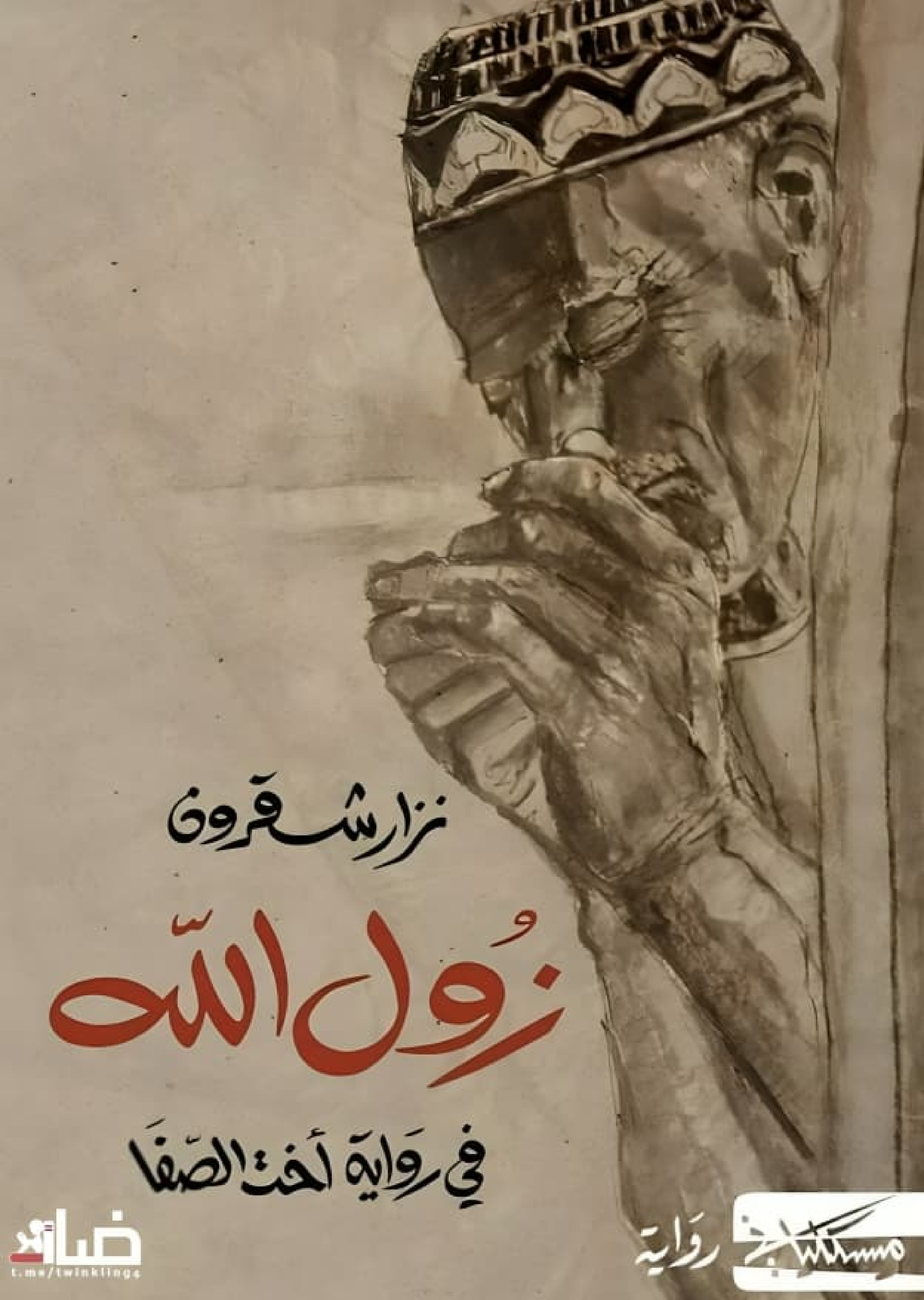
نزار شقرون
زول الله
في رواية أخت الصفا
رواية
مسكلياني
ضياء
t.me/twinklings

تم تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.

جميع الحقوق محفوظة ©

t.me/twinkling4

أمسح الكود وانضم لأسرة ضاد
https://t.me/twinkling4

المؤلّف: نزار شقرون

عنوان الكتاب: زول اللّه في رواية أخت الصّفا

خط الغلاف: الفنّان سمير بن قويعة

لوحة الغلاف: الفنّان خميس النعيمي

تصميم الغلاف: عبد الفتّاح بوشندوقة

ر.د.م.ك: 978-9938-979-22-0

الطبعة الأولى: جوان 2022

الطبعة الثانية (منقّحة): جانفي 2023

حقوق الطبع محفوظة للناشر ©

منشورات ميسكلياني

13 شارع محمّد الخامس، المدينة الجديدة2، تونس

الهاتف: 561936632(971+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

(1)

اعلَمْ يا أخي، أيّدكَ اللهُ، أنّني عثرتُ عليه كمن وجد مخطوطًا لم يفتحهُ أحدٌ منذُ قرون. سَحنتهُ المائلة إلى السّواد تلتمع بالحزن والهوان. وجبهتهُ تحمل نُدوبًا ريفيّةً واضحة. أمّا عيناهُ المطعّمتان بفَصَّيْ عسلٍ جبليّ، فغائرتانِ تكتمانِ الأسرارَ ولا تبوحان لأحدٍ بما مرّ به. نظراته النّاعسة تجعله يبدو نائمًا حتّى وهو يمشي، وظهرُه تقوَّسَ، فلا تدري أَمِنْ أثر الإعياء أم من فَرْطِ ما حَمَل في حياته من أثقال.

لا أنكرُ أنّني رأيتهُ أوّل الأمر جثّةً حيَّةً! جثّة في وضعيّة ذهولٍ من لحظةِ عودتِها من أسفل السّافلين إلى ظهر الأرض، حتّى إنّهُ صُعق حينَ دلفَ إلى عينيهِ نورُ الشّمسِ، فأغمضَهما بقوّةٍ إلى أن تقطّب جبينهُ. كاد وجهُه يتلوّى مثل الجنين قبلَ أن يلدغه هواء العالم، ونحن نغادرُ مبنى المديريّة بعد الإفراج عنهُ. لم تكن لديه رغبَةٌ في الحديث، فلَمْ يُنصت جيّدًا إلى كلام الشّرطيّ وتنبيهه بعدم مغادرة بغداد، ولم يستلم جوازهُ بيده، بل ظلَّ الجوازُ معلّقًا في الهواء وذراع الشّرطيّ ممدودةٌ نحوه، فما كان عليَّ إلّا أن

أختطفه منه. أومأتُ إلى الغريب بالتحرّك كي لا يتراجعوا عن الإفراج عنهُ. سادَ الصّمتُ لحظاتٍ خشيتُ خِلَالها أن أخرج من المديريّة بمفردي، وحين خرجنا توقّعتُ أن يسيطر عليه الإحساس بالتحرّر فتبرقَ عيناه بالحياة، ولكنْ لا وميض .

كانت السّماءُ شاحبَةً في ذلك اليوم الخريفيّ. وكنتُ أشعر بانتعاشٍ وسرورٍ، لا تشغلني غيرُ فكرةٍ واحدةٍ، وهي أن نصل إلى الدّكان دون عقبات الطريق، ولم يخطرْ لي في تلك الآونة أنّ حياةً جديدةً قد تتفتّح معه. وفي الواقع لم يكن لديّ أيُّ إحساسٍ بالمجازفة أو بالحرج، فقد جئتُ إليه خاليةً من فكرة العواقب التي تسيطر على أيِّ امرأةٍ تصطحب رجلًا لا تعرف عنه شيئًا.

تمايل عند أوّل انعطافةٍ في الشّارع وهو يلهث لحَمْلِ جسدِه، خشيتُ أن يظنّه الناس سكرانَ، فقبضتُ على يده. لَسَعَتْنِي ارتعاشةُ أصابعِه وأنا أحاولُ أن أحثّه على الخطو. كانَ يُحلِقُ في أوراق الأشجار المتساقطة على الطريق. يجرُّ قدميه دون أن يسأل: إلى أين المسير؟ ومن أكون؟ صمتُه المريع جعلني أنسى

أنّه من طينة البشر، وخلتُ نفسي أتحاملُ على جرّ عربةٍ من كُتب. صمتهُ من صمتها، لكنّها مهما سَكتَتْ ستنفض صمتَها ذات يومٍ لتنطق من جديد. لا أعلم لَماذا شعرتُ، حينَ وقفنا لعبور الطريق المزدحم بالسيّارات المهترئة، بأنّه قد لا يستيقظ أبدًا! تخيّلتهُ أعتى ممّا بدا عليْهِ من الوجومِ والانكسار، قال لي أبو محمّد: «الزُّول أمانة، لا تفرّطي فيه حتّى يأذن الله لي بالخروج»، فلم أرهقهُ بأيّ استفسار. تعلّمتُ طوال سنواتٍ أنّ الكلماتِ تُخفي المعنى أكثر ممّا تُفصحُ عنهُ، سترٌ لمعنًى دفينٍ، أصداءٌ تأتي من قاع البئر كلّما ارتطم الدّلو بسطح الماء. لذا كتمتُ أسئلتي. كلامُه توجيهٌ، فلا داعيَ إلى السؤال: من يكون هذا الغريب؟ فكلّنا غرباء. نأتي غرباء ونعيش غرباء ونرحلُ غرباء. وليس من الضّروري أن أستفسر: كم سيمكثُ بيننا؟ وهل هو عابرٌ أم مقيم؟ فالإقامةُ في هذا الوجود ضَرْبٌ من العبور. وما معنى أن أسأل: ما الأمانة؟ وأين تودعُ؟ فما فتئ أبو محمّد يقول: «الله أودع أمانته في الصّدور، ونحن أودعنا أماناتنا في الكتب، والمكتبة مستودع الأمانات».

كان عليَّ أنْ أحمل الغريبَ إلى الدُكّان وأكتمَ أمرهُ.

أُدخله من الباب الخلفيّ، عند غروب الشّمس، لحظةَ علوِّ آذان المغرب من مسجد الوزير. كانت الشّمسُ تخلع آخر قمصانها البرتقاليّة الشاحبة وتُلقي بها في نهر دجلة، والشوارعُ ما تزالُ مكتظّةً بالباعة المتجوّلين، وأزيز السيّارات يختلط بأصوات صبيان مطاعم الأكلات السريعة. حاولتُ أن أَعْدُوَ، لكنّه تكاسل في خطاهُ حتّى كاد يسقط، حدَجَني رجلُ الشّرطةِ بنظرةِ شكّ. كُلّ واحدٍ هُنا معرّضٌ للشكّ والاتّهام إلى أن يَثْبُت غيرُ ذلك! اقترب منّا، فتردّدتُ في الوقوف، ثمّ تجمّدتْ قدماي. ترى ماذا رأى في مشهد عبوري مع الغريب؟ هل استوقفهُ وَهَنُ الغريب وتثاقلُ حركته، أمْ تجمُّدُ بؤبؤَيْ عينيه وعدمُ اكتراثه لأيّ شيء؟ توقّعت أن يستجوبني، لكنّهُ اكتفى بالتّحديق في الرّجل ثمّ مضى ساخرًا. نظرتُ بدوري إلى الغريب باحثةً في ملامحه عمّا يحمل على السّخرية، ثمّ طلبتُ منهُ أنْ يتبع إيقاعَ سيري، فرأيتُ في عينيه خرَسًا لا يُطاقُ، وبدا لي تمثالًا فقَدَ توازنهُ، إذ تآكلت قاعدته. واصلنا السير دون أن أنتبه إلى خفوت الأضواء وضياعها بين يدي الظلام، الأنوار الصّفراء تتساقط أيضًا في بغداد، ويطرد نورُها

الشّحيحُ الطمأنينةَ من القلوب، كلّ خطوةٍ في أيّ شارعٍ قد تكون مُميتة، وقد يستوقفها ظلّ حرّاس اللّيل المزوّدين بالبنادق في مدخل كلّ حيّ، من أنتِ؟ ومن هذا الشّخص الغريب الذي تجرّينه؟ وإلى أين تذهبين في هذه السّاعة؟ لذلك أسرعتُ الخطى، ينبغي أن نصلَ إلى الدكّان دون أن نعترض أحدًا. في تلك اللحظات الخاطفة رأيت الشّارع سردابًا جنائزيًّا مفتوحًا، ولم أميّز الملاجئَ المكتومةَ الأنفاسِ تحت الأرض من الشّوارع المختنقة الأنفاس فوقها، وأيُّ فرقٍ بين العوالم السّفليّة والعلويّة حينَ يكونُ النفَسُ معلّقًا بين الحياة والموت؟ كدتُ أنسى أنّهُ يترنّح إلى جانبي، ويتشبّث بذراعي دون أن يُحدِث جلبة، أو ينَطق بكلمة. فقد كان مستسلمًا تمامًا لطريقٍ لا يعرفُ نهايته.

قبلَ أشهرٍ قليلةٍ غيّرتُ ترتيب الدكّان، وضعتُ الكتب القديمة في مكانٍ خفيٍّ بالغرفة الداخليّة، لكنّي حافظتُ على المكتب وجعلت منضدته حاسِرةً من الكتب أو الأوراق، فمجرّد وجود أوراقٍ عليها سيثير ألف سؤالٍ لو فُتّش الدُّكّان. رصّفتُ كتبي المفضّلة في جناحٍ خاصٍ، كي تفتكّ نظرة الإبهار

لا الشكّ. فالفوضى لا حدّ لها، وحينَ يكونُ العالم من حولكَ غارقًا في الفوضى، يصير الترتيبُ مثلَ وضع المساحيق على وجه عانس، والدكّان لم يعد يدخلهُ غير القرّاء الّذين فقدوا صلتهم بالعالم الواقعيّ. صحيحٌ أنّ القرّاء القدامى ظلّوا أوفياء، يحنّون إليه، ويتردّدون عليه أحيانًا، وربّما يأتون وفي نيّتهم التبرّك برائحته! لكنّ القرّاء الجدد يقفون دائمًا أمام البسطة يرمقون الكتب المتناثرة بخوفٍ، ويرقبون العناوين دون أن يُغازلوها. أيّ قدرةٍ لهم على قمع الرغبة في لمس الكُتب وتصفّح الأوراق وانسياب العينين في الأسطر وما تحتها؟ إنّهم يقفون واجمين، وكأنّ أعينهم تقع خلف رؤوسهم تبحث عن أعينٍ أخرى قد تكون تترصّدهم من بعيد.

كيفَ لامرأةٍ مثلي، أرملةٍ وعاشقةٍ لرائحة الورق والجلد والحبر، عاشت سنوات الوحدة حتّى نسيتْ رائحة الرّجال، أن تُدخل هذا الغريبَ إلى الدكّان، لتحتلّ أنفاسُه الهواء إلى أجلٍ غير مُسمّى؟ والأغرب من ذلك أن أُهيّئ لهُ الغرفة المتاخمة للدكّان كي تكونَ بيته المؤقّت!

وضعتُ آلةَ العود في رُكن الغرفة، بعد أن نظّفتها من الغبار، كان أبو محمّد لا يتوانى عن تنظيف العود كلّ يوم، يحنو عليه عند المساء كمن يُلاطفُ كائنًا حيًّا، يُداعبُهُ ويُنغّم أوتارهُ. ورغم حرصهِ عليه، لم يكن يعزفُ إلاّ لمامًا، ولا يسمحُ لي باستخدامه، وإن بدا لهُ يومًا أنّ وترًا فيه يحتاج إلى تغيير، فإنّه يحمل العود بنفسه إلى الطّوباسي صانع الأعواد ليغيّر الوتر ويعدّل نغماته، ثمَّ يبقى أيّامًا دون أن يعزف عليه، ظنًّا منهُ أنّ الوتر الجديد يحتاج إلى فترة تأقلم في بيئته الجديدة! ومن شدّة ولعه بالعود، أنفق أكثر من مائة دينار عراقيٍّ من أجل الحصول على مخطوط نادر، كان يقول إنّه يحتوي على نظريّة الفارابي للعود المُثمَّن، اتّصل بصديقه في لندن، وطلب منه ألاّ يدّخر جهدًا للحصول على نسخة من المخطوط، وظَلّ الأمر عالقًا سنواتٍ، وفي كلّ مرّة كان يقول لنا: «اللّعنة، الفارابي محجوز في إيرلندا!» فنتضاحك، وأقول له ساخرةً: «إنّ الفارابي رهينةٌ لدى الجيش الجمهوري الإيرلندي»،

طوال الطريق كنتُ شاردةً، وهو غائبٌ، حتّى خطواته لا تُحدثُ صوتًا، ورأسهُ لا يلتفتُ يمنةً

ولا يسرةً، إمّا أن يكونَ مكتظًّا بالدّهشة إلى درجة الجمود أو منشغلًا بالتفكير في ما يحدثُ لصاحبه، وفي الذنب الذي اقترفه لمجرّد القدوم إلى العراق، كغرابٍ يبحثُ عن مخرجٍ لورطته.

أدركنا ساحة الطيران فأخذتني روائح الأكلات الشعبيّة وهي تنبعث من مطاعمها، وهممتُ بالتوقّف أمام أحدِها، لكنّه حَدَجَني بعينين صافيتين، تستدرّان العطف، كأنّه يقول، متى نصل؟ حاولتُ أن أقرأ في عينيه مزيدًا من الكلمات، بضعة أسطر غير هذا السّطر، فلم أُفلحْ. قلتُ في دَخيلتي، ينبغي أن أسحب لساني من البئر لينطلق في الكلام، ولكنْ ماذا لو استمرَّ في الصّمت؟ قدّمتُ نفسي له: «اسمي ثناء، أخت أبي محمّد، وأنت؟»، فلَمْ يكترث لأيّ حرفٍ. وواصل المشي، دون أن ينتبه إليّ، حتّى انتابني الإحساسُ لأوّل مرّة بأنّ الآدميّين يمكن أن يتحوّلوا إلى أوتار هامدة. قلت له مجدّدا: «نحن في الطريق إلى دُكّان الحَمام، المكتبة التي ورثناها أبًا عن جدّ، ستكون مُقامك فترةً، وتجعلك في مأمنٍ من أيّ ملاحقات، ضَعْ كلّ ما عشته في الأشهر القليلة الماضية طيَّ النّسيان، وما دمتَ على سطح الأرض

فأنتَ أمام فرصةٍ جديدة للحياة»، لكنّه ظلّ واجمًا، نخيّرتُ الصّمتَ. هذا الغريب لا يسمعني، وربّما لا يسمع حتّى أصوات الباعة وهم يغلقون محلّاتهم، ويُنزلون السّتائر الخشبيّة مخافةَ عمليّاتِ السَّطْوِ الليليّ. بدأت الأضواء تنطفئ رويدًا رويدًا، وشرَعَ الظّلامُ يبسط سلطتَه ويجعل الطريق أكثر وحشةً. ماذا لو وجدتُ الكهرباء مقطوعةً في الدّكّان؟ ستصير الوحشة مُضاعفةً، ويظنّ الغريبُ أنّه نزل مُجَدَّدًا إلى الدّهليز!

بلّلني عرقٌ طفيفٌ. فكّرتُ في أنّ الغريبَ يراني غريبةً كما أراه. ولكنْ إذا كنّا غرباء، فما حاجتنا إلى الصّمت المتبادل، ألا تكون هذه الغربة التي يشعر بها كلُّ واحدٍ منّا طريقَ خلاصِنا من الوحشة؟ تُرى هل كان الغريب يقرأ أفكاري وهو يقف للمرّة الثانية كي يجول بنظره في مقهى «حسن عجمي» وقد بلغنا الحيدَرخانه. بعضُ روّاد المقهى مازالوا متشبّثين بكراسيّه، يتذوّقون آخر رشفات استكانة الشّاي. والظّلام يتوغّل في باحته رويدًا رويدًا، فتنوس الرؤوس بين شراكه. كان أبو محمّد يتردّد كثيرًا على المقهى، ويوم الجمعة هو موعده المقدّس للقاء

أصدقائه، لم يكن يسمّيهم الأصدقاء، بل يصنّفهم طبقات، والطبقة الأثيرة عندَه يسمّيها الأعوان، أولئك الذين يشرعون في النِّقاش داخل المقهى ثمّ يتسلّلون خلسةً إلى البستان واحدًا تلو آخر، وما البستان إلّا اسمٌ أطلقه أخي على الغرفة الّتي يختلي فيها بأصحابه في الدكّان. ورغم أنّ أغلب الرّواد كانوا محسوبين على اليسار، فإنّ أبا محمّد لا يفتأ يُدافع عن المقهى، ويعتبرُه أشبه بجبّة الصّوفي التي تَسَع الجميع، ويرى الرّوادَ أشبه بالمريدين، لو غاب أحدهم عن جلسات المقهى فكأنّما انتقض وُضوؤُه فلا صلاة له.

ظننتُ أنّ الغريب تاه في منظر تلك الأريكة العتيقة التي بدت خاليةً في جوف المقهى، أو توقّف لاصطياد صوت المذياع الذي غطّى أصوات شتات المريدين المنهمكين في لعب «الدّومينو» على ناصية الطريق. لمحتُ الغريبَ يمسح عرقًا عن وجهه، ربّما أنهكه المشيُ، أو ثقل لسانه بما يعجز عن التفوّه به. أمامنا بضع مئات من الأمتار لنصل، وسَواءٌ وَجدنا الكهرباء أو لم نجد، فإنّ قدّاحتي كافيةٌ لإنارة الطريق، وها هي تستعدّ لإشعال سيجارتي المتلهّفة إلى مداعبة شفتيّ.

في تلك اللّحظة كاد ينطق، لكنّ ضوء الشّارع المقابل أخرسه مُجدَّدًا، فاستمرّ الصّمت إلى أن فتحتُ بيسرٍ بابَ الغرفة كمن يفتح مغارةً مكتفيًا بنُطق كلمة السرّ. حينها صار قريبًا منّي أكثرَ، فاحت رائحةٌ غريبَةٌ من رقبته وهو يستدير إليَّ، كأنّها بخور ممزوج بالعرق. في حياتي لم أشتمّ غير رائحة ماجد الذي التهمته الحربُ بلا رحمة. وأزكمتني، منذ رحيله، رائحة القنابل التي قطّعت جسمه وحوّلته أشلاء!

بدا لي قريبًا من عقده الرابع، أصغر من أبي محمّد. وضعتُ له العشاء على المنضدة، وأشرتُ إلى مكان الحمّام، فبرقَتْ منهُ نظرةُ طمأنينةٍ غريبة. لا بدّ أنّه يحتاج إلى النوم، ربّما لم يذق طعمه منذ اعتقاله. النوم تحت الأرض غير النوم فوقها. سمعت أنفاسه تشبه زفيرًا حادًّا وهو يتّجه إلى الحمّام. خمّنتُ أنّه سيلتقي بصورته أمام المرآة كمن يستعيد وجههُ، ولعلّهُ يكتشف أنّ شعيراته البيضاء فشلت في تغطية صلعه، أمّا شاربهُ فقد صار شوكيًّا، وعيناهُ بدتا غير متحفّزتين للنّظر.

وجدتُني أجول بعينيّ داخل الغرفة التي أمعنتُ

في ترتيبها، وكأنّني أدخلها لأول مرّة. تمتمتُ وأنا أرمق نسخةً من المُنَمْنمة المُعلّقة على الحائط المقابل للكنبة: «إيه، أحفادك يا واسطي، أبو محمّد المعتقل، وعالية المغتربة في هولندا، وأنا، أحفادكَ الذين تبعثروا خارج ألوانك ولولب أشكالك، وصار مصيرهم مجهولًا»، ماذا عليّ أن أفعل؟ هل أغادر قبلَ خروجه؟ مرّت تلك الدّقائق متثاقلَةً. وفجأةً أيقظني صريرُ باب الحمّام من الشّرود، فأخذتُ نَفَسًا عميقًا، ولم أجد بُدًّا من الكلام: «سأضطرّ إلى الذّهاب، غدًا آتيك، نم هانئًا، لا أحد هنا في الجوار». لكنّه لم يُعِرْني أيَّ انتباه، كأنّه لم يكن يسمعُ شيئًا.

شرع في نزع حذائهِ، وعيناهُ تلتهمان المنضدة بما عليها. فكّرتُ أن أُحضّر لهُ الشّاي، لكنّي لم أجد ما يبعثُ فيّ يقظة الحركة. تخيّرتُ أن أغادرَ الغرفة وأرجع إلى شقّتي القريبة في شارع الرّشيد. استبدّت بي لحظتها فكرةٌ مُنكَرة جعلتني أتردّد في الخروج من الغرفة. البقاء مع الغريب! إن تركتُ الغريب وحيدًا قد تراودهُ وساوسُ الخروج إلى الشّارع فأفقد أثرهُ. كانَ عليَّ أن أُلازِمهُ. ترى هل أنا مطالبَةٌ بحراستهِ؟ ولماذا ألاحق أنفاسه؟ حينَ أعودُ إليه في الغدِ،

لأجلب له ملابس أبي محمّد، سأطلبُ منهُ ملازمة الغرفة، غرفة المنام والمعيشة في آنٍ واحد، فلا يطلعُ منها أبدًا. لِيكُن حلزونًا، يُطلُّ برأسه من البابِ دونَ أنْ ينسلخ من صَدَفَتِه.

أخذتُ أدخّن بضجَرٍ. شعرتُ ببردٍ خفيفٍ يتسرّبُ إلى مفاصلي. كانَ عليّ أن أرتدي العبايَةَ في مثل هذا الجوّ، بغدادُ ليلًا ظلامٌ لا تقهرهُ سوى أنفاسِ الفقراء في الأحياء المترامية، أمواج الظلام بلا عدّ، مدٌّ ليليّ يُعسكر في كلّ مكانٍ، ولسعاتُ البرد تتسلّلُ إلى ما تحت بنطلون الجينز، وجاكيتي القرمزيّة.

***

للخريف رائحةٌ خاصّة، إنّها شبيهةٌ برائحة الكتب القديمة. ولا أدري كيف يعشق الناس هذا الفصل رغم أنّه يأخذ من كلّ الفصولِ بطرفٍ، فلا يستقلُّ بشيءٍ! خفتُ في الأيّام الأولى أن تُسيطر رائحةُ الغريب على البستان ثمّ تجتاح الدُكّان بأسره. أصبحتُ أطيلُ البقاء أمام بسطة الكتب، وأستسلم لتبادل الحديث مع القرّاء والباحثين عن

آخر ما صدرَ. كان بعضُهم يسأل عن كتب التراث في طبعاتها القديمة قبل أن تُحذف منها الصّفحات ويُعدم عددٌ من فصولهَا، بعضهم الآخر يسأل بتوجّسٍ عن الكتب المهرّبة من المكتبة النّظاميّة التي نجت من الاجتياح المغولي ولكنّها ستفشل بعد قرونٍ في النّجاة من أيدي العابثين من أحفاد العمّ سام.

طوال أيّامٍ ظلّ يلازم البستان، لا يرغب في الخروج لاستنشاق الهواء، أو لمعرفة المكان، ولمّا قرّر تَرْكَ الأمتار القليلة التي قاسها بعينيه، وجالها بقدميه ألف مرّة، أقدم على الخروج مساءً، كنتُ حينها بصدد النقاش مع بائع كُتبٍ قديمةٍ. ظلَّ متمسّكًا بعدم التخفيض في سعر مجموعةٍ من الكتب اشتراها من ورثة أحد الشّعراء البغداديّين، وكنتُ مصرّةً على اقتنائها، ففيها عناوينُ تعود إلى العهد الملكيّ، وفيها أعمالٌ أخرى عليها إهداءات أصحابها. كنتُ أجمّع كُتبَ الإهداءات في جناحٍ خاصّ، وأغلبُها اشتريتُه لكُتّابٍ عراقيّين مازالوا على قيد الحياة، وفضّلوا بيعها أو التخلّص منها كما يقولون من أجل حفنة دولارات. ما كانَ يُحزنني دائمًا أن أبتاع كتُبًا لأدباء

لاحقتهم الفاقة سنواتٍ، وأضحت حياتُهم من حياة البُقَيْلَة الذّاوية التي لازمت أديبًا مثل أبي حيّان.

ما إن رآني الغريب حتّى ارتبك قليلًا، لكنّ الضّوء الشّاحب خفّف من ارتباكه، فاقتربتُ منهُ دون تردّد. سألتهُ عمّا إذا كانَ يريدُ شايًا ساخنا. فرمقني بتعجّب، وقال بنبرةٍ حادّة: «من أنتِ؟» ويا له من سؤال! ابتلعتُ ريقي، كيْ أداري دهشتي وقلتُ في نفسي: «أخيرًا نطق!». ظلّ واقِفًا يتفرّسُ في حركة بعض الباعة وهم يُغلقون دكاكينهم بخوفٍ. ثمّ تركني واجمةً وانصرف. بدا لي أكثرَ سوادًا من أُولى أيّامِ إقامته في الدكّان، كاد اللّون القمحيُّ الدّاكن يسلّمُ آخر أنفاس درجته اللونيّة إلى السّواد. ولولا ضوءُ القمر لما تبيّنت وجهَهُ. كنتُ سأُواجهُ جذعًا آدميًّا بلا رأس، فزّاعةً تحرُسُ سوق الكتب.

ومنذ ذلك المساء، صار يخرجُ قليلًا ليقبع أمام الدّكان، أو يجلس قبالة البستان من جهة الشّارع الخلفيّة. وكنتُ أجلب له، كلّ ظهيرةٍ، حساءَ العدس، وقليلًا من البيض. وبعد الغروب، أطرق باب البستان الخلفيّ، فأجده مواربًا، أدخلُ

متحمحمة، لا أسمعُ صوتهُ. أبحث بأصابعي عن زرّ الكهرباء، ثمّ أتذكّر أنّ التيّار الكهربائيّ مقطوعٌ في أوّل اللّيل فأستعيد يدي. ألمحُ بصيصَ نورٍ ينبع من ركنِ الطاولة. وأنتبهُ إليه وهو غارقٌ في صفحات كتاب. لكنّه لا يُعيرني انتباهًا، بل يستمرُّ في القراءةِ بخشوعٍ. نور الشّمعة يكادُ لا يغطّي إلّا مساحةً صغيرةً من الكتاب، وأصابع يديه تقبض على أطرافه، كأنّها تمسك بطوق نجاةٍ. عندما اقتربتُ منهُ، وقع في نفسي شعورٌ غريبٌ، إذ لمحتُ خربشاتي على طُرّة الصفحة التي كان مُستغرقًا في قراءتها. لا شكّ في أنّه لم يتفحّص الكتب المرصوفة من حوله، ولم يُجهد نفسه لاقتطافها من مكانها، فاكتفى بما وجده رابضًا على طرف الطاولة منذ أشهر. شعرتُ لحظتها بأنّني عاريَة! وأدركتُ للمرّة الأولى في حياتي معنى أن يتكشّف شخصٌ غريبٌ على عالمك، فتلتحم بمشهد حوّاء وآدم في عرائهما الكلّيّ، لذلك عقدتُ العزم على إخراجه من الصّمت هذه المرّة، فلا يُعقل أن نستمرَّ في تبادلِ النّظرات، وتلقّف الأنفاس، وكلّ واحدٍ منّا يُوهم نفسه بأنّهُ مُفْرَدٌ وحيدٌ في المكان!

كان في هدوئه شيءٌ غامضٌ. أحسستُ به منذ

لحظات لقائنا الأولى وكأنّي أتقفّى رموز كتّاب. ذاتَ يوْمٍ، قال لي أبو حيّان، وكانَ من أصفياء أبي محمّد: «من أين تعلّمتِ قراءَة الأثر؟ لو نشأتِ في الصّحراءِ لوجدنا تفسيرًا لذلك، لكنّك بنت المدينة!»، ثمّ أردَفَ وهو يُتمتم: «مَنْ كانَ لهُ سرٌّ وخشيَ فضحه، عليه ألّا يقفَ أمامكِ أو يتحاورَ معك، فأنتِ كشّافةُ أسرار!». ولم أكن أضحك حينها عند سماع ملاحظته بنيّة الضّحك، بل لأخفي أيّ احتمالٍ تطابقٍ بينَ ما يقُولهُ وبيني. وفي الحقيقة، لطالَما شعرتُ بأنّني أمتلك حاسّةً نوعيّة، لا أريد أن أُسمّيها حاسّةً سادسة، فلستُ ممّن يُؤمنون بذلك، وكلّ ما في الأمر أنّ في كلّ حاسّة إمكاناتٍ كثيرَةً مُعطّلةً لذلك ما إن تتحرّك حتّى يظنّ الواحد منّا أنّها السادسة. أعضاء كثيرة مُعطّلةٌ فينا، فما بالك بالحواسّ الخمس!

كنتُ أشعرُ أنّ لديه كلامًا كثيرًا يريد قولهُ. ومثلما كان غريبًا في نظري، كنتُ غريبَةً في نظرِه. غير أنّه لم يستطع أن يتفحّصني لخجلٍ مبالغٍ فيه. لمَ تمنّيتُ في تلك اللحظة أن يحدّقَ فيَّ قطعةً قطعةً، من جبيني إلى أخمص قدميّ؟ لا أدري إلى الآن، لكنّ صوتهُ الخافت أيقظ شرودي: «لستِ أنجليكا! أليس

كذلك؟»، لم أفهم كلماته، قلتُ لهُ دون اكتراثٍ: «أنتَ هنا منذ أيّامٍ ولم أسْمع لَكَ صوتًا، أنا ثناء أخت أبي محمّد»، وقصصتُ عليه ما حدث إثرَ قبْضِ رجال الشّرطة عليهِ، وكم شهرًا ظلَّ في السّجن الاحتياطيِّ، وعن توصيةَ أبي محمّد. كان لا بُدّ له أن يستسلم لما أرويه حتّى يكفّ عن الوساوس، هل تعلم أنّك مجرّد مشتبه فيه؟ إذا ألصقوا تهمة تهريب الكتب بأبي محمّد، فإنّهم لم يجدوا أيَّ أدلّة لزجّك معه مدّةً أطول. «أخوكِ مهرّب كتب، أنت تعرفين القوانين، كلّ من يُخرج الكتب من العراق يُعَدُّ مجرمًا، كتب العراق للعراقيين»، هكذا صاح فيّ ذلك الشّرطيّ الوقح، كانَ يمدّد صوتهُ وعيناهُ تجلدان جسمي.

هزّ رأسه نافيًا.

«ما أذكرهُ أنّهم كرّروا عليّ سؤالاً واحدًا، هل تعلم الجهة السريّة التي هرّب إليها أبو محمّد الكتب؟ تشنّجتُ كثيرًا، ظننتُ بعد الخطوات الأولى للمحقّق في الغرفة المعتمة بأنّهم سيخلون سبيلي، قالَ لي بثقة: « لم نجد في غرفتك بالفندق أثرًا للكتب، لم نعثر حتّى على رائحة الكتب! يبدو أنّك مجرّد ساترٍ لأبي

محمّد، تزوره في المكتبة وتتجوّل معه في شوارع بغداد ولا تعلم حقيقة ما يفعل؟» تجاهلتُ سؤاله اليوميّ، تعلّمتُ بعد فترةٍ قصيرة كيف أرسم على وجهي علامات البله، علّهم يُشفقون عليّ، ولكنّ ألسنتهم لا تكلُّ عن لسعي بالأسئلة، رأيتُ في وجه المحقّق جهاز الغراموفون المغبرّ، وشعرتُ بالغثيان، الأسئلة نفسها، موسيقى العذاب اليوميّ تثقب طبلة أذني. تمالكت نفسي طويلاً، والمحقّق يزمجر: «ستطول إقامتك معنا، الذاكرة تحتاج إلى وقت، ربّما تتذكّر شيئًا يُنقذك من البرد القادم، لن نفرج عنك إلاّ إذا أفدتنا بما نريد»، ولكن إذا كانوا يعلمون ما يريدون فلماذا احتجازي كلّ تلك المدّة؟! أليس ذلك من عبث الغراموفون!

نهضتُ لأتمشّى قليلًا. لا أعرف هل كان معتادًا على الاختلاء بامرأة غريبة لا تدري من أين تشتقُّ الجرأة. مرّت برهات صمتٍ. عدتُ إلى مكاني. قلتُ لهُ «حان وقتُ رحيلي» وأخبرته بأنّ جواز سفرِهِ محفوظٌ في الصّندوق المجاورِ للكنبةِ. وحالما تفوّهتُ بأمر الجواز، التمع صَلَعُهُ، واهتزّ شعره الخفيف النابت على أطراف رأسه، ثمّ قال: «ومتى أستطيعُ المغادرة والعودة إلى السّودان؟». سكتُّ قليلًا، لم أكن مُتهيّئةً

للإجابَة، ولا يُعقلُ أن أُعلمه من المحادثة الأولى بأنّ موضوعَ السّفر مُؤجَّلٌ إلى وقتٍ غيرِ معلوم، لكنّه أمعن في السّؤال: «هل أنا محتجزٌ هنا؟ قولي لي أأنا هنا لوقتٍ قصيرٍ، أمْ ستحوّلونني إلى قطعةٍ أثريّةٍ مرميّةٍ جنب هذه المخطوطات والكتب القديمة، وبعدها أتعفّنُ وأصيرُ مجرّدَ رائحةٍ من الماضي؟»، شعرتُ بأنّ ما سأقوله أقربُ إلى الهراءِ، لكنّني وجدتُ نفسي مجبَرَةً على إعلامه بذلك، كي لا يَخافني أو يفقد ثقته بي. فقلتُ لهُ بهدوءٍ مبالغٍ فيه: «أنتَ ضيفنا، ستبقى هنا حتّى يأذنَ الله بالرّحيل». اندلقتْ منه ابتسامةٌ عرجاء، بحثتُ لها عن تفسيرٍ فلم أجدْ! وقبضَ بقوّةٍ على القلم الذي كان يتلوّى بين أصابعه، ثمّ حدجني قائلًا: «تعنين أنّي أنتظر المكتوب، لقد عشتُ حياتي كلَّها مُسلّمًا بالمكتوب، أقبلُ بما يحدثُ لي دونَ تبرّمٍ، ولا أشكو من شيءٍ، ظللتُ أسلّم بالمشيئة، وكنتُ طيّعًا طائعًا لأنّي أقنعتُ نفسي بأنّها مشيئة الله، أمّا أنْ تكونَ حالي الآن من مشيئة العباد، فهذا ما لا أستطيعُ معهُ صبْرًا»، ثمّ دخل الدّكان وهو يقول بنبرةٍ مُتقطّعةٍ حادّة: «لي الله... يا الله!... لي الله...»، وخَلّفني وحيدةً، كموجةٍ

لفظتْ زَبَدَهَا دونَ أن تكترث.

(2)

بعد أيّامٍ قليلة، تعاهدنا على أن نكون صديقين. أعترف بأنّه رفَضَ ذلك في بادئ الأمر. وقال: «من الحماقة أن نؤمن بالصّداقة مُطْلَقًا. فما بالكِ بصداقة بين رجلٍ وامرأة! هل كان آدم يرى في حوّاء غير تُفّاحةٍ خُلقت للأكل؟ وهل كانت حوّاء ترى في آدم غير مِعْوَلٍ يَشُقّ حَقْلَ شهوتها؟ إنّ الصّداقةَ بينهما ليست سوى وسواسٍ ألقاه إبليس في القلوب بيُسر. وما أكثر ما ترجف به القلوب! ظللْنا قرونًا ونحن نسجن كلّ رجفةٍ جديدةٍ في شِراك الكلمات، ونُطلق عليها أيّ اسمٍ من الأسماء الهاربة من نار الرّغبة. ظللْنا في مجازات الأخوّة والصّداقة نُخفيها، ونتخفّى بها. حتّى الحُبُّ ذلك الصّندوق الكبير الّذي دُفن فيه العُشّاق والشعراء، يحتاج دومًا إلى مزلاجٍ يُسمّونه العفّة، لأجل استبعاد الوسواس بحيلة الكلمات، لكنّه في الحقيقة ليس سوى استعارةٍ أخرى تُداري جبلّة الشّهوة الأزليّة».

كانَ عنادُهُ أقسى من فراق الأوطان. وفي كلّ يومٍ كان يُقاومُ زهده الظاهريّ، ويتولّهُ بأسمالِ أجداده،

وهو يدور في فلك ذلك اللّغو: «لِنَفتَرِض أنّ الزمن توقّفَ لحظةً، لِنَفترض أنّنا أوثقنا الصّداقة قبل أن تتحوّل إلى مسخ، بمجرّد انسلاخ الحاضر عن الماضي، ستتجرّد الكلمة من ثوبها البرّاق لتكتشفي هول الوسواس! من منّا يستطيع أن يتنكّر لماضيه بدعوى أنّه يسبح في مستقبلٍ مجهول؟ المستقبل بهذه الصّورة أشبه بماء النيل ولن يرأف بالعباد إلّا إذا أمدّوه بالقرابين!».

كم قلتُ في نفسي: «لِيَذهَبْ إلى الجحيم!» وعلى مدى أشهرٍ، توهّمتُ أنّي كسبتُ تحدّيه، استمعتُ إليهِ بآذان النسّاخين، وسجّلتُ في دفتري ليلًا ما كانَ يبوحُ به نهارًا، ومن حكايةٍ إلى أخرى، سَرَدَ لي ردهات حياتِهِ كمن يبحثُ عن مأوى، أيَّ حياةٍ يرويها؟ لم يكن يثقُ كثيرًا بمن يُحيطُون بهِ، فلم أميّز في قولِهِ الحقيقةَ من الاختلاق. كانَ يغوص في ماضيهِ ليُعيد ترتيبه حسبما يشتهي. كلّ شيءٍ معه جائزٌ: الجدّ والهزل، الظاهر والباطن، الحقيقة والمجاز. وكانت تلك الأضدادُ التي قَهَرت حضارَةً بأسرها، هي لُعبته المفضّلة.

قبلتُ أن أكونَ دليلَهُ في إقامته القسريّة، ومُنظِّفةَ البيت الذي أقام فيهِ. ومع ذلك، كنت أرى في عينيه كلَّ يومٍ ذاكَ الاعتقادَ الرّاسخ بأنّني نسخةٌ من المرأة التي سَكَنت صورتُها عَوَرَه الأبديّ. أَكُنتُ نسخةً أصليّةً أم مُشوَّهةً؟ لا فرق. «ما دامت المرأة تخون، فلن تكون في مقام الصّداقة، الصّداقة تستوجب كتم السرّ، والمرأة هاتكةُ أسرار». بالطّبع، الخيانة امرأة، والسّقوط يبدأ بالخيانة. المدن تسقط بالخيانات، والنّساء أوّل من يخون! تبًّا له.. لم يكن مؤيّد الدّين العلقمي امرأةً، ومع ذلك سقطت بغداد على يد المغول!

***

حين وصلتُ إلى مطار «شخيبول»، صمَّمتُ على نسيانه تمامًا. كان استقبالي هناك شبيهًا باستقبالِ كبار الزّوار أو النّاجين من موت مُحقّق. لم أتصوّر أن تطالعني عيونٌ مجهولة، كلّها فرحٌ ونشوةُ انتصارٍ بمجرّد خروجي من الجمارك، حتّى أختي عالية لم أستطع تبيُّنَ وجهَها، وشعرتُ للمرّة الأولى بقِصَرِها قياسًا بقامات الأشخاص الّذين تحلّقوا حولي كما لو كنتُ

جنديّةً مُحَرَّرةً من الأسر. هؤلاء الهولنديّون غريبو الأطوار حقًّا، لطالما سمعتُ أنّهم يكرهونَ الأجانب، ولكنْ بدا لي ذلك مُجَرَّدَ هراء، إذْ وجدتُهم عفويّين، وفطرتُهم باديةٌ على وُجوههم.

في الطّريق السّريع تذكّرتُ حزمة أوراقه في حقيبتي شبه الفارغة، ففكّرتُ في إلقائها نَحْوَ أوّلِ نهرٍ يُصادفني، قرّرتُ أن أبدأ بدفن كلماتِه، ثمّ أدفن بعدها كلّ شيءٍ في شهقةٍ واحدة، أدفن الماضي بما فيه، ولكِنْ، مَزِيّةُ الماضي أنّه لا يعودُ أبدًا، حتّى إن توهّم مئاتُ الآلاف من الناس عكسَ ذلك، وصار وهمُهم عقيدةً. إنّنا نحفر قبرَ الماضي حالما ينقضي، ونضع عليه شاهدةً، ثمّ نزوره مرّاتٍ ونحن نبكي، ونحمل له مرّاتٍ أخرى إكليلًا من الورود. وحين نُدير له ظهورنا في أيّ اتّجاهٍ فإنّنا نتركه وحيدًا للدّيدان. لذلك لا مشكلةَ لنا معه، إنّما مُشكلتُنا مع تلك الصخرة التي نحملها قسرًا، ونسمّيها «الذّاكرة». فمن لا ذاكرةَ له، لا ماضيَ له، فمن أين تعلّم ذاك الغريب كيف ينقش اسمَه بعمقٍ على صخرةِ الذاكرة؟ لقد تركَني عند آخر نقطةِ تفتيشٍ على الحدود الأردنيّة، واختفى. أحدُهم قال لي إنّه عاد من

حيثُ أتى. وبعضُهم قال إنّه تاه وسطَ جموع الفارّين إلى أراضيهم الموعودة. وأنكر آخرون رؤيتَه بتاتًا مخافةَ أن يتعرّضوا للاستجواب. وثمّة من حَدَجني بنظرةٍ قاتلة كي أكتُمَ أنفاسي، وأمتنع عن سؤال الآخرين. فأدركتُ حينئذٍ أنّه أصبح من الماضي وأنّ التخلّص من صخرته شبيهٌ بمحاولة الطيران. نالت منّي ألفُ صورةٍ وصورة، واخترقت ذهني فوضى الكلمات. فتمنّيتُ أن أقطف مَسَّاحةَ السيّارة وهي تمسح قطرات المطر، لعلّها تمسح ما تهاطل من زخّات ذكراه.

بعد صمتٍ ثقيلٍ، رفعت أختي عالية صوتَها، فكادت تَخِزُ طبلةَ أذني: «مرحبًا بك يا سيّدةَ الحَمام». تبادلت الكلام مع زوجها إياد عن أيّام زمان، بغداد واللثام، وعن أيّام الطفولة النقيّة في الأعظميّة، وسنوات الضّياع بعد حرب الخليج الأولى، ثمّ انتقلنا إلى الأيّام الأولى في أمستردام ومعاناة استخراج وثائق الإقامة. واستمرّت زخّات المطر تغسل كلّ شيء في الخارج ولا تغسلنا. وهكذا، من الطريق السّريعة إلى الطرق الضيّقة، ومن البيت الساكن في الطابق الثاني والأخير، إلى شوارع

قلب المدينة الهامسة بالموسيقى، تعاظَمَت الرغبةُ في الطيران.

ظننتُ نفسي قادرةً على التخلّص من حِمْل الصخرة. وظننتُ الانتقالَ من وضعٍ إلى آخر، صفةً أخرى للنسيان. ولكنْ أحيانًا تتغيّر الصّفاتُ ولا تتغيّر المسمّيات، من مواطنةٍ إلى مهاجرة، ومن غربةٍ داخل الوطن إلى منفًى شاسعٍ محاطٍ بمياه البحر! كانت عالية تصحو قبلي دائمًا. أظَلُّ أسبح في نومٍ عميق، كأنّي أنتقم من اليقظة الّتي طال مداها في بغداد، وجعلتْ ليلنا خطًّا متقطّعًا لا يتّصل، إن لم تقْطعه صفّارات الإنذار، قَطَعه الصّياحُ والعويلُ والرُّعب المدمّر حتّى صرنا نحلم بالنّوم.

كانت السّتائرُ غيرَ مُسدلةٍ بالكامل، فيتسلّل ضوءٌ خفيفٌ إلى غرفتي في الصّباح، وتقرع سمعي حَمامات فضّلنَ الرّقص قريبًا من النافذة. في كلّ يوم يتسلّل إليّ هذا الضّوء الباهت، واللّحاف يكاد يُغطّي كاملَ جسدي بلا داعٍ، أمازال الخوف يطاردني إلى هنا؟ لم أعد أبالي بطلوع النّهار، انتهى زمن فتح الدكّان في الصّباح وترصيفِ الكتب على البسطة، ورشِّ قليل

من الماء أمامها كي لا يستيقظ الغبار، وانتهى فصل الغريب، تبدّدت تلك الأصباح التي كنتُ أُسرع فيها إلى إيقاظه بعد أن أعدَّ لهُ استكانة الشاي، وقليلًا من الجبن الأبيض وكسرة الخبز. لا شيء يمنعني الآن من مُباشرة نهاري بعد الظهيرة، ولْأَكُن امرأةً مسائيّة، لا بأس بذلك، فما الزمانُ إلّا خرقةٌ جُعِلت لتخفيفِ آلامِنا بالوجود، وما علينا إلّا أن نستر بها ما بدا لنا من أوجاع. وما الذي سيتغيّر لو بدأتُ نهاري عند الصّباح الباكر، أو عند بداية المساء؟ الحياة هنا لا تخلقها الفواصل الزّمنيّة، بل يخلقها الإنسان.

يأتيني وقْعُ أقدام عالية من السُّلَّم الخشبيّ. فأتحامل على نفسي وأهرع مباشرةً إلى المطبخ، أوهمها بأنّي استيقظت باكرًا على غير العادة، لكنّها حالما تراني، تنفرط منها ضحكةٌ ساخرة وتقول: «خِلصِتْ المسرحيّة». فأعود أدراجي إلى غُرفتي، بخفّةِ شبح، هنا ينبغي ألّا تحدث صوتًا عندما تمشي، الأسقف لها آذان، وجارتنا الهولنديّة لا تتوانى عند الظّهيرة عن رفع صوتها كي نتلقّف مخاوفها: «ألِكْس! أَلِكْس! ضع جزمتك أمام الباب، للمرّة الألف قلت لك إنّ احترام الجيران يبدأ بانتعال الخفّ». وكان

ألكس زوجها لا يدخل البيت إلّا آخرَ اللّيل!

شعرتُ بالفخر لنجاح عالية في استئنافِ حياةٍ جديدة، لم تكن الأخت الكبرى فحسب، بل الأختَ الأجمل في العالم. علّمنا اليتم أن نظلّ صديقتين. ورغم اختلاف طباعنا، وحّدنا الألَم، وبدا الشَّوق بيننا شبيهًا برباط الوردة بشوكها. كانت لا تبالي حين أقول لها: «أنت الوردة وأنا شوكك، أنت العقل وأنا الجنون»، لكنّها في الحقيقة تقفز إلى كلّ مغامرةٍ قبلي، وهي تركضُ في كلّ الطرقات، وتحلمُ بحياةٍ بديلة، على أرضٍ جديدة. وأوّل خطوةٍ لها في ذاك الحلم، كانَت زواجَها من إياد الكردي، قالت: «العبور إلى الأرض الجديدة، يبدأ بالتخلّص من العِرق والمذهب». وحين نجحت في مغادرة العراق ظلّت تناشدني أن ألحق بها. كنتُ أغبطُها على تلك الإرادة التي تدبّ في الجسم مثل النار فلا تتوقّف عن الاشتعال. بعد فترة من التعرّف على إياد قرّرت الرّحيل معه حيثُ يشاء، قبِلت بالانقطاع عن دراساتها الجامعيّة في كليّة الآداب ببغداد، أقنعت نفسها قبل أن تُوهمنا بأنّ الحياةَ لقاءٌ بين روحين، ولا يجوز التفريط في ذلك اللّقاء الوجودي حتّى وإن تمّ

تعطيلُ خطّ الزمن الاجتماعي، لم تنصت لنصائح أبي محمّد، ولم تبال لتوسّلاتي كي تتوقّف عن السّير نحو مغامرتها. أُصبنا بالخيبة. استغرق التقاطنا لحياتنا بعد رحيلها وقتًا طويلًا. أحسّ أبو محمّد بعجزه عن تنفيذ وصيّة أبي: «أختاك ثمّ أختاك»، ومنيتُ بحالة فقدانٍ أخرى، كنّا وقتها نرى العائلة خيمة، يُسند فيها بعضُنا بعضًا، وكانت ترى أنّ إيّاد سندَها، قدرها الذي لن تُفرّط فيه.

وها قد لحقتُ بك يا عالية! واجتمعنا بعد سنوات، دبّت فينا الذكريات المشتركة، لكنّ كلّ واحدةٍ منّا أحسّتْ بأنّها تتعرّف إلى الأخرى من جديد. ولذا علينا أن نتسلّق أسوار قلعتنا القديمة كي نعود إلى نقطة البداية، غير أنّ الخطّ إذا ما انطلق، لن يقبل العودة إلى تلك النقطة وفي نواته إصرارٌ على الحرّيّة والاندفاع. لم تكن تعشق الأشكال المغلقة، وأنا أيضًا كنتُ أرى جمالَ الخطّ في حرّيّته وهو يستقيم ويتكسّر ويتعرّج وينعطف. كانت متعطّشةً إلى معرفة أسراري الجديدة، لكنّها أضحت منشغلةً بعملها مترجمةً في مكتب الهجرة، تنهض باكرًا وتعود عند الظهيرة، فتغيّر ثيابها وتغرق في النّوم.

صارت الظّهيرة علامةً على تجدّد لقائنا، ونظراتنا المازحة تجّدد كلّ ظهيرة، وتحت تلك الإضاءة الخافتة التي تغطّي أركان البيت، لا تتردّد عالية في جلب قنّينة النبيذ لتحتلّ مكانها بين الأطعمة العضويّة الّتي صارت مغرمةً بها، في انتظار التحاق إياد. هي نصف نائمة، وأنا نصف مستيقظة، أُمعِنُ النّظر إليها، وأبحث فيها مُجدَّدًا عن قطرات الحليب الأولى، وقد رضعتُ منها الحكمة قبلَ أن أغرق في مجاهيل الكتب، وأندسّ بين أصحاب أبي محمّد في خلوات «البستان».

تسحقني الرغبة في البوح، غير أنّ لساني يتيبّس، فماذا دهاني؟ وأين اختفت جرأتي؟ وهل انفرط حبل الأسرار بيني وبينها؟ كنتُ أودُّ أن أحدّث منقذتي بشهقتي، وأعترف لها بأنّني نجَوْتُ بمُفردي، وفَشِلتُ في إنقاذ الغريب! هي طوق نجاتي، وأنا كنتُ طوقًا لغريبٍ رفض النجاة!

«لا يستطيع الإنسان أن يعيش بمفرده إلّا منكودا»، أليس هذا كلامكِ المحفور في رسائل المجهولين؟ سيزدادُ ضيقي رغم أنّي استعدتُكِ. مضى

زمنٍ طويلٍ، كنتُ حينذاكَ أفكّر فيكِ، بعد فراق زوجي ماجد، اعتقدتُ أنّ النّكد تلبّسني، إلى أن ظهر الغريب، وفهمت أنّ نكد الوحدة الّذي تقصدين هو أن يعيش الإنسان من دون صديق. لكنّك ظللتِ في كلّ مكانٍ تظهرين لي طيفًا، وكلّما تأمّلتُ وجهي في المرآة رأيتكِ تُطلّين من خلفي، تجدلين ضفيرتي مثلما كنتِ تضفرينها لي في صغري. كنت تخترقين حياتي، وتخترقين السرّ بين عينيّ، فما بالكِ، وأنتِ قبالتي الآن!

لقد تغيّرتِ قليلًا، في مَظْهَرِكِ على الأقلّ، كنتِ تعشقين ارتداء الجينز، فلا يفارق جسدك الأبيض، وها أنتِ الآن في الخامسة والثّلاثين من العمر، تَرفُلين في التّنانير، وبياضك يزداد اتّقادًا. يبدو أنّكِ تأقلمت سريعًا مع المنفى، ولا أدري هل أستطيع أن أسلك الطريق الذي سَلَكْتِه، فالشمس هنا لا تشتعل، والبيوت أشبه بدِنانٍ للأسرار، تخاف أن تَذرُوَ قَمْحَها طواحينُ الهواء المزدحمة في ضواحي المدينة، والشّوارع التي ترقص بهدوءٍ تحت وقع الموسيقى، لا تبالي بالغرباء، وتزفّهم إلى المنطقة الحمراء، كأنّهم عبروا الصّراط، وأجيزوا بالجنّة!

***

في حانة أمستيل، أجلس وحيدةً على الكرسيّ الخشبيّ العالي، لا شيء يخترق عزلتي سوى نظرات النادلة الشّقراء وهي ترمقني بفضولٍ بين فينة وأخرى. لعلّها تتساءل في سرّها: «من تكون هذه المرأة ذات الشّعر البنيّ الطّويل، المرأة التي تربض كلّ مساء في الطّاولة نفسها؟» أمّا أنا فلم أكن أعيرُ نظراتها المتكرّرة أيَّ اهتمامٍ. كنتُ أعتقدُ أنّ العربَ وحدهم يُدخلون أنوفهم في كُلّ ثقب، فإذا الشّيء نفسه هنا! إنّهم ينشرون فضائحهم وحياتهم السرّيّة في الصُحف، مثلما ينشرون الغسيل على الحبال داخل البيوت! أتجاهلُ أسئلة النادلة الصامتة، فتستيقظ أسئلتي: لمَ لا أكتب سيرتي بدلًا من رواية فصولِ حياته؟ وهل يُجبرني المنفى على نسيان الماضي تمامًا، والاعتقاد بأنّي وُلدتُ لحظةَ ختم جوازي في الجمارك الهولنديّة؟ يُمكن أن تكون حياتي بذرة روايةٍ عجيبة: أطوار البنت التي وَأَدت روحها الظروفُ، يُتمُ الأبوين، انقطاع عن الدراسة الجامعيّة، مقتلُ الزوج بعد أقلّ من عامٍ على الزّواج، موت الجنين عند

الولادة، هجرة الأخت، اعتقال أبي محمّد... تك تاك، تك تاك..، عقاربُ السّاعة الحائطيّة التي تشبه هديّة هارون الرشيد إلى «شارلمان»، تتراقصُ في مدخل الحانة مع فواصل تلك الأطوار الكبرى، تناجيني وأناجيها. ومع كلّ كأسٍ إضافيّةٍ يشتدّ في داخلي الذّعر. عندما أُحدّق في الواجهات البلوريّة المقابلة خلف المسلك النهريّ، لا أقتنصُ غير خيالاتٍ شبه عاريَة، ما أخشاهُ هو أن تُطلَّ عليّ صورتي من هناك! لذلك ينبغي ألّا أكتب شيئًا عن نفسي، بل مجرّد كلمات، وإشارات، فليس للإنسان أن يشطب نفسَهُ نهائيًّا. قد تنسلّ تفاصيلُ صغيرة، هي أشبه بكشف الظّهر، والتلويح بحمّالة الصّدر. ربّما عليَّ أن أُنقّح كلّ ما أكتب. فما أكتبهُ ليلًا، تحت وقع الموسيقى الكلاسيكيّة هو ضربٌ من التلاشي والبَوح، أمّا شطبُ الكلمات فهو ما يجعلني أتماسك وألتمّ. لذلك روّضتُ نفسي على أربع كؤوسٍ من البيرة لا غير، أظلّ أترشّفها بإيقاعٍ بطيءٍ على مُدَدٍ زمنيّةٍ طويلةٍ تسمح لي باحتلال الطاولة أكثرَ وقتٍ ممكن. ولم أعد أكترث لقطعة الحشيش الصغيرة المسموح بها في اللُّفافة.

اقتربت منّي السّاقية، وضعت الكأس في دلال، ولم تستطع كَتْمَ فضولها، فاختلست نظرةً إلى خربشاتي على الدّفتر. سألتني: «هل أنت كاتبة؟» فاجأني توصيفها لي. ودون تردّدٍ كبير، أومأتُ إليها برأسي «نعم»! فقالت بغنج: «عادة، الكتّاب يشربون بنَهَمٍ أكبر!»، لماذا لم أقل لها « كلّا!»، لماذا أوهمتها بأنّي كاتبة؟ لماذا لم أخبرها بأنّي قارئةٌ نهمة لا غير، مجرّدُ ورّاقَةٍ بغداديّةٍ ضلّت الطريق إلى أنفها الطويل؟!

ظلّت تراقبني كلّ مرّةٍ وأنا أتفحّص أحدَ القراطيس الّتي خلّفها الغريب. كان أنفُها يُسابقُ عينيها وخيالها ليحشر نفسه داخلَ الورق، فأرميها أحيانًا بنظرةِ عتاب. ومع مَرِّ الأيّام أَلِفْتُ أنفَها ونظراتِها، بل صرتُ أشعر بالضّيق إذا التفتُّ فجأةً ولم أجدها تصوّب فضولها إليّ!

كنتُ أجلس إلى الطّاولة ذاتِها في أغلب المساءات، أحتلّها بدفتري الذي حملته معي من بغداد، وقد جلّدتهُ بنفسي. منفضة السّجائر في شكل الغليون، والكأس البرّاقة بسوادها تشبه المحبرة التي كنتُ أغمس فيها ريشة قلمي، قطراتُ البيرة تسيلُ من

شفتي، كلّما تدفّقت بداخلي لحظةٌ من لحظات الغريب، أستمرّ في تخطيط الكتابة من يومٍ إلى آخر، أنسخ ما أقدر على فهمه ممّا كتبَ وأكتبُ ما يَدورُ في خلدي ممّا عشتُ وممّا أعيش. خطّ الحياة يبدأ من غرفتي الّتي يتسلّل إليها النور وينتهي عند طاولة الحانة، وبينهما أسلك يوميًا طريقًا مختلفا. الأفكار في داخلي تترنّحُ دونَ أن أفقد توازني، وقلمي لا يتوقّف عن الكتابة، أتنفّسُ بصعوبةٍ كلّما رأيتُ الغريب بين الأحداث، لا أعرف هل أجني عليه حينَ أختطفه من سواد الذّاكرة إلى بياض الورق، أدسُّ حكاياته داخل الورقة، حيثُ لا خطوطَ عرضٍ ولا خطوطَ طولٍ ولا طُرَّة! تعمّدتُ أن تكون أوراق دفتري بيضاء تمامًا، ربّما أثأر لنفسي، فأجعله يتمرّغُ في بياضٍ تقشعرّ لهُ بشرته القمحيّةُ، هو المتبجّحُ دائمًا بأصله العربيّ، وبازدرائه القبائل الإفريقيّة.

بعد ثلاثة أشهرٍ أدركتُ أنّي لا أستطيع الاستمرار في الحياة على هذا النّحو. لا يُمكنني أن أبقى عبئًا على عالية وإياد. الاستمرارُ في العطالةِ يُشبه الدخول في غيبوبة، وقد قرّرتُ الصّحو. لا شيءَ أهمّ من التّغيير، أن أكتسب شجاعة التأقلم في بيئةٍ جديدةٍ هو

رهانٍ آخر، يجعلني أبرهن لنفسي، قبل الآخرين، أنّني لستُ يائسةً ولا مهزومة، ولم أهاجر لأجل الموت البطيء، وكأنّ المنفى مقبرة الهاربين من أوطانهم. كنتُ أردّد باستمرارٍ أنّ المنفى ليس مكانًا نهاجر إليه، المنفى وجعٌ داخليّ ينبتُ في الوطن وتكبرُ أغصانه وتتدلّى أوراقهُ في المهاجر. كنتُ أسأل نفسي كلّما طالعتُ محطّة القطارات، هل أنا بصدد الهروب من الحاضر إلى دكّان الماضي، أم من الدّكّان إلى الحاضرِ. محطّة أمستردام سنترال للقطارات مفترقُ أزمنة، بحرٌ من البشر في مدٍّ وجزرٍ. لذلك كنتُ أفضّل المشي دائمًا، أُدوّن الملاحظات في ذهني، أستجمعُ التفاصيل لأضمّها في حزمةٍ من الأفكار، أحدّقُ في الأضواء وهي ترتعش بين رذاذ المطر، وأستمرُّ في البحث عن ظلّ الغريب.

لم تكن لي أدنى فكرةٍ عمّا ينبغي أن أشغلَ نفسي بهِ. أستطيعُ تنظيفَ البيت، وتحضير الغداء، وفتح التلفزيون لمشاهدة قناة الجزيرة، ومراجعة أوراق دفتري، وترتيب الكتب فوق الكوميدينو، كتب قليلة، لكنّ لها منزلةً خاصّةً في قلبي، هَرّبتُها معي دونَ ختم وزارة الثقافة والإعلام العراقيّة، لا أملَّ

من قراءة «ماهيّة علّة فنون المعشوقات» لإخوان الصّفا، الرسالة الساحرة التي دفعني بهاؤها إلى نسخها بيدي، على ورقٍ عتيق، ومن كثرة قراءتي الرسالةَ كدتُ أحفظها عن ظهر قلبٍ، ومع ذلك لا أتوانى عن قراءتها بخطّي، ألهجُ بكلماتها وحِكَمِها في خشوعٍ، وحينَ ظهرَ الغريبُ، ازددتُ ولعًا بها، وحاولتُ فَهْمَها من جديد.

صرتُ أشردُ من حين إلى آخر كلّما كنتُ وحدي، أُمشّط شعري، وأحدّق في المرآة، لم تزدني هذه الأشهر وزنًا، لكنّي لاحظتُ تورّمًا خفيفًا تحت عينيَّ، قد يكون انتفاخًا بسيطًا بسبب الإكثار من النّوم، أو الإكثار من الشّرب ليلًا، سيّان، لا أحد هنا سيكترثُ لذلك، حتّى عالية، منصرفةٌ إلى العمل، لا تعود إلّا عند التحام الظهيرة بالمساء، تلك النقطة التي أبدأ فيها التحضير للخروج. لم أشعر بالضّجر، في البيت ولا أثناء تجوالي بالمدينة، كنتُ أُديم الجلوس أحيانًا على مقعدٍ خشبيٍّ قديمٍ أمام النّهر، أتأمّلُ العابرين والقوارب الصّغيرة الشبيهة بقوارب الورق التي كنّا نلقي بها في نهر دجلة، ونظلُّ نتابعُ تأرجحها حتّى تنقلب على ظهرها وتغيب في صفحة الماء.

أصابتني عدوى الغريب، فصرتُ مثله، سلحفاةً تحمل قبرها فوقها، عيناها في الخارج ونظراتُها في القوقعة، ولم ينقذني من هذه العزلة وبداية السّقوط في العبث، إلّا صوتُ عالية المفاجئ ذاتَ يوم: «أخيرًا وجدتُها!»، لم تكن تفّاحةَ نيوتن بالطبع، لكنّ ما وجدَتْه شبيهٌ بها، فقد انتشلني من فضائي، وأعادني إلى الأرض.

- أنتِ لا تحذقين الهولنديّة، ومع مرور الأيّام ستتعلّمينها، ولكن عليك الآن أن تشتغلي، لا مِن أجل «الخولده» (1)، ولكن من أجل أن تغيّري حياتك.

- وما العمل؟

- غالبًا ما تكون لدينا الحلول، ونبقى نفتّش في العالم عن حلّ!

- هات الحلّ!

صمَتتْ قليلًا، ثمّ قالت ضاحكةً: «يداك يا عزيزتي!».

منذ ذلك اليوم، وأنا أجلّد كتبًا، لا أفقه ما تحتويه

من معنى! كنتُ في الدّكان، أتملّى الكتاب قبل تجليده، ألاطفُهُ، أثبّتُ عينيَّ على عنوانِه، وأتصفّحهُ قبلَ التفكير في لون الجلد المناسب له. أمّا الآن، فلا أعرفُ لهذه اللّغة صوتًا، ولَا أدرك ما أجلّد من كُتبها، أهي كتب تاريخ أم فلسفةٍ أم روايات؟ وحدها كُتب الجغرافيا، ظلّت تلتمع أمامي بخرائطها، وكتب العلوم بصور تخصّصاتها، ولكن من المؤسف أن أداعبُ كتبًا لا أعرف كتّابها ولا عناوينها، ربّما هذا مُهين حقًّا، لأنّي شعرتُ بذاك الألم القاسي الذي تجده أيُّ امرأةٍ أُجبرت على أن تهب جسدها لرجلٍ مُقنَّع!

لم تبخل عالية بجلبِ الطلبات، بل إنّها أوعزت إلى جارهم «ديفيد» بأنْ يُجلّد ما لديه من كُتبٍ قديمة كي لا تتلف. قالتْ إنّها كلّ ما تبقّى له من رائحة أبيه، وهي تعرف جيّدًا مثل كلّ الجيران حكاية أبيه الّذي تركه في بطن أمّهِ قبلَ أنْ تخطفهُ غجريّةٌ قادمةٌ من بلاد العرب. قضّى «ديفيد» عمره وهو يبحثُ عنْ أصلهِ حتّى عثرَ على أبيه البيولوجيّ في دار العجز. قالت لي عالية إنّه ما فتئ يردّد كيفَ ندمَ على كلّ السنوات التي أضاعها في البحثِ عنْ رجلٍ

بلا ذاكرة، لولَا تلك الكتب القديمة التي وجدها في غرفته، ولم يتردّد لحظة في أخذها دونَ استشارةِ أحد.

لقد كانَ عليَّ أنْ أجيدَ ذلك العمل، لأنّه وفّر لي قليلًا من المال. لكنَّ التّجليدَ سيجمّدني في هذا الصّالون. سيجعلني في شرك الوساوس دائمًا كلّما شعرت بالدّوار أو بالرّغبة في التقيّؤ، فيكون الخروجُ من البيتِ مقاومةً لأيّ استسلام. ينبغي ألّا أفكّر بأنّ شيئًا يتكوّن في داخلي، حتّى لو كان مجرّد إحساس كاذب بشأن احتمال انتفاخ بطني بعد أشهر! لا أقدر على الجزم بأنّني أحملُ في رحمي شيئًا من صلبه، هل استطاع ليلتها أن يهرّب فيّ نفسًا من أنفاسه؟ ماذا في وسعي أن أفعل، إن تسلّل إلى حياتي غريبٌ آخر، لن يعثر على وطن أمّه أو أبيه، ولن يلثغ لغة أمّه أو أبيه، ولن يُسامح يومًا أمّه ولا أباه!

(3)

لم يكن الخروج إلى الشارع وسط زحمة الأفكار بالأمرِ السَّهْل، فقد كنتُ أحيانًا أنسى تمشيطَ شعري، ولا أضع ولو قليلًا من أحمر الشّفاه، حقًّا لمنْ أتجمَّل في هذه المدينة الهادئة بموسيقى القطارات، وهسيس الدرّاجات؟ لكنّي كنتُ أحتاجُ إلى ترتيب هندامي، واختيارِ الجينز المناسب، أزرق داكنٍ كالعادة، وبلوزةٍ صوفيّةٍ سميكة، تستطيعُ مقاومةَ البرد الفاتر. بعد وقتٍ وجيزٍ، أستسلم لوسط المدينة العابثِ بالمُشاة يأتون من كلّ صوبٍ، وأنا أضاعف خطواتي. وفي محفظتي التي لا تشبه شنطة النساء حزمةُ أوراقه ودفتري الجلديّ. تشغلني مشكلة تنظيم تلك الأوراق دائمًا، لا أعرِفُ لماذا لا نجدُ صعوبَةً في معرفة البداية، بدايَةِ كلّ شيء، لكنّنا نَتِيهُ في معرفة ترتيب ما يلحقُها، فأغلب الخلقِ يعرفون أنّ الله هو البداية، وبعضهم يؤمن بأنّ الانفجار العظيم هو البداية، وفي الحالتين، ثمّة إقرارٌ بوجود بداية. ولكنْ لا يوجد اتّفاقٌ حول ترتيب ما حدثَ بعد ذلكَ، فالتاريخ البشريّ مثل هذه الأوراق كلٌّ يرتّبهُ بحسبِ ما يرى، وما يعتقد، وما يُريد.

لا أكادُ أفترضُ بدايَةً حتّى أعودَ لأغيّرها، وإن كنت قد فضّلتُ أنْ أبدأ بتدوينات ما بعْدَ يقظته وهو في الدكّان أشبه ما يكونُ بشريحة لحمٍ سائحٍ على ساعة «سلفادور دالي» المعطّلة. كانَ بإمكاني أن أتخيّر بدايَةً أخرى، بداية البدايات، النّشأة والطفولة، وهكذا أتابع مسارَ حياته في محطّاتها الكبرى، لكنّي لم أكنْ يومًا أرجّحُ أنّ الطّفولة هي المنطلق.

قدّرتُ أن تكون يقظتُه البغداديّةُ هيَ نقطة البداية، ولو أنّ هذه الأوراق وقعتْ بين يدَي شخصٍ آخر فلعلّه يرتّبها كما تُرتَّب الأرقام: المولدُ أوّلًا. بيد أنّي لا أرى مولدًا غير الولادة التي يعي فيها المولود أنّه بدأ طريقهُ حقًّا.

بدا عليه الاضطرابُ، ففي تلك الغرفةِ لا متّسعَ للتّأمّل. ومع ذلك كان البستانُ رحِمَ أفكارهِ الأولى، وقد ظلّ أيّامًا لا يخرُجُ إلّا لمامًا ويبدو أنّه مشغولٌ بأمرٍ واحد: كيفَ السبيلُ إلى الخروج من بغداد نهائيًّا؟ وفي لحظةٍ مّا وأنا أقاومُ لسعات غروب الشّمس عند بسطة الكتب، أَطلَّ عليّ برأسه، كحلزونٍ عنيدٍ. ساورني شعور غريبٌ بأنّه طلع منْ

قبْرٍ قديمٍ كُسرت شاهدتهُ في عمليّة تجريفٍ. ربّما لم يكتشف إلى حدّ تلك اللحظة أنّهُ في سجنٍ كبير، حتّى فكرةُ مغادرة بغداد شبه مستحيلةٍ، فنحنُ هنا جميعًا كلٌّ في زنزانته، لا يسمعُ بعضنا غير أنين بعضٍ عبر الجدران.

فجأةً قال لي باستحياءٍ وعلى وجهه علامات الكرّ والهمّ: «هل يُمكنني أنْ أذهب بعيدًا عن هذا المكان؟»، قلتُ لهُ بهمّةٍ: «لا عليك، سنتمشّى الليلةَ على حافّة دجلة إن أردت»، فردّ خائبًا: «أقصد أبعد من ذلك!»، كنتُ سأجيبه، لكنّي آثرتُ أن أغيّر مجرى الكلام، فقلت لهُ: «قريبًا أغلق الدكّان، ونذهب». اقترب منّي أكثر، وبصوتٍ شبه مبحوحٍ همسَ لي: «لأوّل مرّةٍ في حياتي أريد أن أذهب بعيدًا دون رجعة! هل تفهمين معنى البعيد؟».

لفنّي صمتُ مزهريّة «فون غوخ»، وشعرتُ بأنّي تحوّلتُ إلى عبّادة شمسٍ تعيسة، في صُفرةِ الشّمس الذّابلة. عاد سريعًا إلى مخبئه، وبعد أقلّ من ساعةٍ وجدتهُ منتصبًا أمامي، وقد غيّر لباسَه وارتدى بنطلون أبي محمّد البيج، وقميصَه الكاكي. كدتُ أضحكُ من

هذه التركيبة اللونيّة التي فضّلها، شعرتُ فعلًا أنّ لخبطة ألوانه توحي بذوقٍ غريبٍ لشخصٍ لم يفكّر من قبل في الألوان. وكظمتُ ضحكاتي، وقلت في نفسي: قد يحتاجُ إلى درسٍ في الألوان. ولكنْ داهمني لأوّل مرّةٍ ذاك الشّعور بأنّني أمّ! فكّرتُ في الأيّام الأولى أنّي تحوّلتُ إلى مدبّرة بيت، والآن ونحن نبتعد عن الدكّان قليلًا، في اتّجاه شارع أبي نوّاس، أحسستُ بأنّي أسير مع طفلي في بداية ليلٍ، ربّما لأنّي فقدتُ ذاك الإحساس الأصليّ، لمجرّد موتِ الجنين في أحْشائي، أو ربّما ظللتُ أتوهّم أنّه لم يمتْ وأنّ كلامَ الطبيب لم يكن غير إجراءٍ روتينيٍّ كاذبٍ عن تسجيل حالة وفاةٍ لم تقعْ.

بدأ يُسرع في المشي كعادتهِ، بخطواتٍ كادت تقطع أنفاسي. من الواضح أنّه لم يجرّب في حياته السّيرَ مع امرأةٍ، لكنّه أخبرني أنّه متزوّجٌ، وكيْ يخفّف حدّة استخفافي بمشيَته، قال لي إنّ زواجه من سُليمة ليس إلّا ارتباطًا تقليديًّا، وما من امرأةٍ في قريته تخرج مع زوجها، حيثُ لا شوارع، بل طرقٌ غير معبّدة، وبيوتٌ لا تسمعُ فيها غنج الأزواج. وحين عاتبته وطلبتُ منه أن يرحم أنفاسي راحَ يُفسّر: «ما من

امرأةٍ تعوّدت الخروجَ مع زوجها في تلك الطرقات بغاية النزهة في الحقول، فالخروج جنبًا إلى جنبٍ هو أصلًا شبه محرّمٍ في العرف الدّارج، فالنساء يخرجن مع النسوة، والرّجال مع الرّجال، ولا اختلاط إلّا في مناسباتٍ قليلةٍ جدًّا، حتّى عند الأكل يأكل الرجالُ بمعزلٍ عن النساء، ولا داعي إلى هذا الاختلاط، الأولاد يكبرون، وهم يعلمون أنّ المرأة امرأةٌ والرّجل رجل! هكذا بحكم طريقة العيش، مجتمع رجالٍ ومجتمع نساءٍ، أمّا أن أخرج معك، وجنبًا إلى جنبٍ، فهذا ما لم أقترفه حتّى في سنواتي الجامعيّة بمصر!».

بعض الكلاب الفاغرة الأفواه بدأت تتبعنا، وهو غير مكترثٍ، قال: «هذا وضعٌ مألوف، في القرية وعندكم سواء!» وحين وصلنا قرب النّهر، كانَ النّخيل يتراءى لنا على مقربةٍ منّا، لكنّه أقرب على صفحة الماء، بفعل انعكاس الأضواء الشّاحبة عليه. طلبتُ منهُ أنْ نجلسَ، بالطبع أخذ مسافةً منّي حتّى كدتُ أشهق ضحكًا، لم أدرِ هل كانَ يحسَبني قادرةً على الكلام بصوتٍ عالٍ حتّى أسمعه، أو تهيّأ له أنّ الهواء سيضخّم من صوتينا، وينفخ في حروفنا نفخَ البوق.

على أيّة حالٍ، استسلمتُ لذلك الوضع، حتّى الكلمات التي لم أكن أسمعها بشكلٍ جيّدٍ لم أكترث لها. لا أخفي أنّي صمّمتُ على اكتشافه منذ أن حدّثني عنه أبو محمّد، من منّا لا يريدُ أنْ يكتشفَ ما تحت ذلك الجلد الإفريقيّ منْ أحلامٍ وآهاتٍ وعواء، نعم «عُواء»، لا يمكن أن أستبعدَ ذلك الذّئب الذي بداخلنا جميعًا، حتّى إن كنّا متصالحين مع الكلاب وحسب!

قال بهدوءٍ ورأسه إلى الأرض: «أنت متحرّرة زيادة!»، لمجرّد أنّي أشعلت السيجارة، وبدأ حشيشها يحترق سريعًا بسبب لفح الهواء. ثمَّ أضاف: «مرضت قبل سنواتٍ في القرية، كانت حرارتي مرتفعةً جدًّا، وظللت عاجزًا عن الأكل والكلام أيّامًا، قالت أمّي حينها إنّني مجنونٌ ما دمتُ لا أقربُ الأكل، جلبوا إليّ جارَنا عبد الباقي إمامَ جامع القرية، فظلَّ يقرأ القرآن، ثمّ يُكثر الدّعاء، وبعد ساعاتٍ طلب منّي أن أشرب الماء، كنتُ أشرب ثمّ أتقيّأ. هل تعلمين ما يمكن أن يتقيّأ الإنسان وبطنه خاوٍ؟ كنتُ أتقيّأ ألياف الأمعاء، ولأوّل مرّةٍ يختلط عليّ الأمر، بين ما ألقيه من الفم وما أخرجهُ من برازه. وبعد أيّامٍ

لم تتغيّر حالتي، فكّرَت أمّي أنّها ستفقدني، وبدأتْ تستعدّ لذلك، حتّى إنّها صارت تلبسُ ثوبًا أسود، وصرتُ أسمع أكثر أصوات الجارات وكأنهنّ يولولن بكتمان! الوحيد الذي لم يقف أمام مرضي موقف المستسلم هو أبي، حَزَم أمرَهُ سريعًا وقرّرَ أن أُحمَل للعلاج في مصر، واعتقد الجميع أنّي سأعودُ ميّتًا، ولن ينتظروا غيرَ إعلان موتي في نشرة الراديو، ولا تتصوّري كيفَ حُملتُ إلى مصر، صدّقيني مازلتُ أتذكّر تلك السيّارة اللّعينةَ وهي تشبه محمل النّعش، لا تتأخّر عن الاستجابة لكلّ المطبّات، وتتوجّع بدلًا منّي على امتداد الطريق. تخيّلي ما كان سببُ مرضي، إنّه جان «التّيفوئيد»!

وبعد يومين من الإقامة في مستشفى «الدّقي»، بدأت ألعن ذاك الأنبوب المنغرز في ذراعي، حاولتُ أنْ أخفّف من ألمه، فمسكتُ البكرة بأصابعي كي أحرّكها قليلًا، أو أغلق ذاك السائل الذي يتقاطر بداخلي، وإذا بعينيّ تكادان تنفصلان عن محجَرَيْهما، ودونَ أن أعي ما أفعل ضربت الجرسَ بقوّةِ مَن سيلفظ أنفاسَه، فما لمحت في غبش النّظر غير الملاءات البيضاء وقد صارت تتحرّك جيئةً وذهابًا

فوق رأسي وبجانبي، وتُحدثُ حشرجات، وتقول طلاسم، وظننتُ أنّ ما قاله عبد الباقي هو الحقّ، وأنّ الجانّ خرج من عينيّ ومن فمي. لم أدرك أنّ ما رأيتُ ليس غير الممرّضات إلّا في صباح الغد، وقد هويتُ في حالةٍ فقدتُ معها الرؤية ساعاتٍ. إيه يا مصر، أمّ الدنيا صحيح! لم أشعر بقيمة هذه الكلمة إلّا عندما اقتربتْ منّي الممرّضة وهي تلبس تنّورةً قصيرة، وكنتُ قد بدأت أقف على رجليّ، وأتعلّم من جديدٍ ارتداء الثّوب بصعوبةٍ بالغة، وكان ثوبًا شفّافًا. أوّلَ ما اقتربت منّي أنفاسها، شعرتُ بشيءٍ يتحرّكُ بين قدميَّ. ومرّةً أخرى اعتقدتُ لحظةً أنّ الجانّ سكن الثّوب، حتّى إنّي انحنيتُ قليلًا، وتلوّيتُ على بطني، وخشيت الممرّضة أنّ نوبةً مّا عصفت بي، لكنّي أحسستُ أنّ ما تحرّك فيّ شيءٌ غير الجانّ فطلبتُ منها أن تخرج برفقٍ كيْ أرتاح، فتبسّمت مداريةً ضحكتها، ولم أستطع غضَّ بصري عن ردفيْها الثخينَين، وهما يشرعان في الدوران كناعورة الساقية، حتّى ظننتُ أنّ الجانّ طلع منّي وحلّ فيهما، وحمدتُ الله على عودة الرّوح!».

غُصنا في الضّحك، ولم نبالِ بانتباه بعض السّاهرين

المنتشرين مثلنا على حافّة النّهر، تلذّذتُ طرافةَ قوله، وتعجّبتُ من قدرته على الحكيِ بسلاسةٍ وتلقائيّة، ما كنتُ أصدّق أنّه جريءٌ، لم يكن مرتبكًا أو مهتمًّا بتضايقي من كلامه، ظلَّ يرمي الحصاة في النهر، ويقول: «دوري، دوري!» كانت الدّوائر ترتسم على صفحته، ونحن لا نكادُ نرى أبعادها، فالضّوء ينوسُ، وهو يكرّر: «دوري، دوري يا ناعورة»، ويضحك، ولم أستطع كتمَ ضحكاتي وإلقاءَ عَقِبِ سيجارتي في النهر لعلّي أنادي مثله «در، در! يا عَقِبي!».

منذ سنواتٍ، وقد يعود ذلك إلى أيّام الجامعة، لم أشعر بتلك الرّغبة في الضّحك. فحتّى في تلك الظروف القاسية أثناء الحرب مع إيران، كنّا نضحك، ونقهقه، ونرى الطّائرات في أيّام صبانا لُعَبًا في السّماء، والحربَ مجرّد لعبةٍ بين صبيان الحيّ، فرصةً للتسلية لا أكثر!

عدتُ فأشعلتُ سيجارةً تلو أخرى، دخّنتُ ليلتَها بشراهة، كان الضّوء الخافتُ يلتمع أكثرَ على صلعه، انتبه إليَّ وأنا أتفرّسُ سفح قامته، وبنبرةٍ جافّةٍ قال: «أرأيتِ؟ كلُّ شيءٍ يسكنه الجنّ حتّى رأسي، أنت

لا تعلمين كم كان شعري غزيرًا، أرأيتِني كيف أسير اليوم ولا أقوى على امتلاك مصيري؟ هذا بلا شكٍّ بسبب زوال الشّعر!» واستمرّ في الضّحك، إلى أن برزت أسنانه البيضاء، والتمعت في ظلام المكان الذي لفّهُ بقوّةٍ حتّى ظننتُ أنّ هلالًا نبت بين فكّيه!

التقطتُ أنفاسي وأنا أستمع إلى كلامه، شعرتُ به يقطع أميالًا في اتّجاهي دونَ حواجز، كأنّه درسَ معي بالأمس في الجامعة أو كان واحدًا من زبائن البسطة من المثقّفين الذين يُصيبهم الكمد إن فاتهم يومٌ دون أن يمرّوا أو يشتروا كتابًا مع الرّغيف. شرع ينظرُ بشرودٍ في النّهر. كان الهواءُ يقضم أطرافَنا بنعومة. «لا أدري ما سيصيبني وأنا معك هنا»، تمتمَ دون أن يلتفت إليَّ، ثمّ أدار وجهَه صوبَ بعض الفتية القادمين من الطرف المقابل، وكانوا شبه سكارى يتمايلون، يغنّون، لا نميّز غناءَهم من نحيبٍ مُرٍّ لناظم الغزالي. كان فيه فضولٌ للإصغاء، يتتبّع بأذنَيه في صمتٍ ثقيل، يحكّ شحمة أذنه لعلّهُ يُنشّط السّمعَ أكثر، ثمّ يبتسم حينَ يلتقط الكلمات، ويأخذ في الدندنة: «فوكَ إلنا خل فوكَ يابه فوكَ إلنا خل فوكَ، مدري لمع خده يا به مدري القمر فوكَ»، ويتطلّع

بعينيه إلى السماء.

التقط من الأرض عودًا وبدأ يرسم به خطوطًا، وقال: «كلٌّ منّا يبحثُ عن خلّه في أعالي السّماء، أمّا في الأرض فكلّ شيءٍ مقوَّسٌ، منحنٍ، ومهزوم!».

قال ذلك بنغمةٍ حزينةٍ ثمّ نهضَ، وأشار إليّ بأن نعود، فلحقتُ بعينيهِ.

- إلى أين؟

- يجب أن أنام، وقبل ذلك عليّ أنْ أقرأ ما تيسّر.

- ما رأيك في أنْ نتناول العشاء بأحدِ تلك المطاعم؟

- لا أقدر الليلةَ على أكل شيء، غدًا أدعوك إلى العشاء معي.. ما رأيك؟

كان في البستان مطبخٌ صغير، ليس به غير وابور غاز، يستخدمهُ أبو محمّد عادةً ليعدّ الشّاي أو بعض السّندويتشات للأعوان. كنتُ أستخدمهُ كذلك اضطرارًا حين أُرغم على البقاء يومًا كاملًا في الدكّان. سألته: «هل تُجيدُ الطبخ؟»، لم يجبْ مُباشرةً على سؤالي، ثمّ قال: «الغربة في مصر علّمتني الطبخ، وفهمتُ من زمانٍ أنّ كلّ شيءٍ في حياتنا طبخ،

أتدرين؟ حتّى تلك الصورة المعلّقة في الغرفة قبالة السَّرير طبخٌ!» ضحكتُ حقًّا من هذا التّشبيه، لم أعلم أنّ السّنوات التي قضّيتُها في مدرسة الفنون الجميلة كانت سنواتٍ لتعلّم الطبخ! وضحكتُ أكثر حين قلتُ لهُ: «تقصد أنّ مُنمنَمة الواسطيّ نوعٌ من أنواع الطّبيخ؟»، فهزّ رأسه وقال ساخرا: «إن كانت حقًّا لأخيك الواسطيّ فهيَ طبيخٌ لا ينازع براعته أيّ طبيخٍ آخر». وكدتُ أشهقُ بالضّحك «الصّورة للرسّام يحي الواسطيّ. همهم وتبسّم: «إذن سأحتاج إلى الواسطيّ ليرسم قصصي!».

قبلَ أنْ نصلَ عادَ ليقول: «الصّورة طبيخ، ولا ينقص تلك الصّورة غير الرّائحة». كانت كلماتهُ لافتة، يبدو أنّي استهنتُ به في البداية، ولكنْ ها أنا أكتشفه! صمتَ بُرهَةً ثمّ أردف: «هل يمكننا أن نرحل عن طريق النهر؟!».

حدستُ في تلك اللحظة أنّ منمنمة الواسطيّ عن المقامة الفراتيّة للحريريّ قد سيطرت عليه، واعتَقدَ أنّ خلاصه في السفينة. وكيْ أُبعد من جديدٍ شبحَ الرّحيل، قلتُ له ونحن على مشارف البستان:

«ذكّرتني بكتابٍ في الطبخ لن تجدَ في الأرض مثله، وهو أوفرُ الكتب متعةً، لقد أعدتُ نسخَه منذ فترةٍ قبل مجيئك وعنوانه: «كتاب الطّبيخ» للكاتب البغداديّ محمّد بن الحسن محمّد، فقد تجد فيه هذه الأيّام أنيسًا ومعينًا لك في الطبخ! ولا تنسَ أمرًا مهمًّا، سنتبادلُ الحديث في الطبيخ، فرغم إيماني بأنّ المرأة ليست كائنًا مطبخيّا، أعشقُ الطبيخ». حاولتُ جرَّ تفكيره إلى الأرض بدلًا من حلم السّفر والخروج من هنا. فتمتم وهو يودّعني: «لا بأس، مادمتُ قد عدتُ إلى القراءة، فسأقرأ هذا الكتاب وأعطيك الجواب، ولكنْ رجاءً اطبخي لي رحيلي من هنا!»».

***

عصرَ اليوم التالي، وبينما كنتُ أرتّبُ الكتب على البسطة، فاجأني البروفيسور عبد القادر بإطلالته، فقد اختفى منذ أن قبضوا على أبي محمّد. كانت الشائعات تجثم على سماء شارع المتنبّي، «القبض على مهرّب كتب الأجداد»، «الأمن العراقي الباسل يُحبط تهريب صفقة الكتب»، «هروب أجانب حاولوا سرقة تراث العراق»، «الأمن يحقّق مع

المشتبه فيهم من العملاء»، «حراسة مداخل شارع المتنبّي ومخارجه ليلَ نهار»، «وزارة الثقافة والإعلام تُغلق باب الموافقات على خروج الكتب من العراق»».

ضربت الشائعات طوقًا حول الدّكان، من يستطيع الاقتراب من بسطة كتبنا أو يُحرّك رأسه وهو يعبر ناحيتنا؟ حاولتُ أن أبدوَ رصينةً غيرَ عابئةٍ بتلك الغيوم المتوحّشة. صمدتُ شهورًا. أبو محمّد لم يهرّب شيئًا. متى كان نشرُ المعرفة جريمة؟ ومتى كان العراق يبخلُ بكتبه على العالم؟ كانَ يقول للأعوان باستمرار: «إخفاء الكتب عن الناس شبيهٌ بجريمةِ حرقها، لا تضنّوا بها على أحد أيًّا كان جنسه ولغته ودينه»».

عاتبتُ البروفيسور بشدّة، فالأعوان لا ينقطعون عن السّؤال حتّى في أسوإ الأحوال، وإن كنتُ أعي جيّدًا أنّ المكان شبهُ محاصرٍ بالعيون نهارًا وليلًا، حتّى المثقّفون والكتّاب لا يتوافدون على الشارع كالعادة، فالخوفُ يحيط بالجميع تحت ويلات الحصار.

كان بعض الأطفال الذين يرتدون الفانيلات الخفيفة يخترقون الشّارع بالصّياح كما لو أنّ لعبتهم

المفضّلة الجديدة هي بثّ الذّعر في نفوس الباعة والزبائن على السّواء. وكان البروفيسور وقورًا بقبّعة السيدار التي لا تفارقُ رأسهُ صيفًا وشتاءً. ورغم أنّ مرسمَه غير بعيدٍ عن الشّارع، فهو لم يظهر منذ مدّة، وقد عزمت على السّؤال عنه، ولكنّ حلول الغريب حال دون ذلك.

للبروفيسور عبد القادر صلةٌ وثيقةٌ بعائلتي، وله بشارع المتنبّي علاقةٌ شبه بيولوجيّة، وكم قال: «الشّارع مُلهِمٌ»، لم يكن يبحث فيه عن الكتب كبحثه عن مشهدٍ استثنائيٍّ وسطَ الزّحام، وكبحثه عن الرّائحة التي تتولّد من الكتب. «إيه الكتب! في الصّباح تشتمّ رائحتَها وهي تتثاءب بعد سباتها، وحين تتمدّد صفحاتها بين كفَّيْ مثقّفٍ أو كاتبٍ تتغيّر ملامحها أوّلًا ثمَّ تتغيّرُ رائحتها، للكتب حياةٌ ورُدُودُ فعلٍ. عند الظهيرة تستسلم هي أيضًا للقيلولة، بعد أن دَعَكَها العشرات، بعضُهم داعبَها وبعضُهم قبضَ على رأس صفحاتها فترك بصماته عليها، الكتبُ تتأوّهُ ولا أحدَ ينصت إلى أنينها، تتضايق وما من أحدٍ يلتفتُ إلى ضيقها، الباعة هنا لا يهتمّون إلّا بالدينار يخرج من جيب الزّبون إلى صندوق البسطة». ذلك تقديرُه

لرائحة الكتب. قبل الحصار أجَّر بيتًا صغيرًا في بنايةٍ قريبَةٍ شبه متداعية، حوّلَه إلى مرسمٍ، وبعد سنواتٍ اتّخذَه مسكنًا وهجرَ شقّتَه في حيّ الكرّادة، أمضى سنواتٍ وهو يشتغل على موضوعٍ واحدٍ هو «شارع المتنبي»، وما ترك فيه قبل الحصار ركنًا أو دبّةَ نملةٍ إلّا صوّرها. كان يحمل كاميرا التصوير ويلتقط آلافَ الصّور، بورتريهات الباعة، حركة المريدين في جميع الفصول، أوضاع البسطات، دكاكين الكتب، مخازن الطابق العلويّ، دُرر المخطوطات الخفيّة، وبالطبع مئات الصّور للبستان، سنوات من التوثيق البصريّ لعالم شارع المتنبّي، صور تحكي الشارع عبر أجيال المريدين في الثمانينيّات والتسعينيّات من القرن العشرين، كلّ الصّور بالأبيض والأسود، كلّ ذلك من أجل مشروعه الفنّيّ.

في المساءات يستقبلُ طلبتَه في مرسمه، فيكشفُ لهم عن خزينته من الصّور بينما تفوح روائح ألوانه الزيتيّة لتسيطر على الأنوف، وفي كلّ شهرٍ كانَ يعرض لوحاته على حائط البستان، حصريًّا يعرضها هنا، في الدكّان الذي صار أسرتَه، فماذا يفعل رجلٌ بلا زوجةٍ ولا أطفالٍ، غير أن يبنيَ عُشًّا من قشٍّ

الألوان ويطلي سماءهُ بروائح الكتب ويستسلم للحديث عن الفنّ؟!

لم يكنْ يستخدمُ مرسَمَه للرسم، بل يتّخذه لتحميض الصّور وإجراء لقاءاته، أمّا رسوماتُه فأغلبها رُسمت في الشّارع نفسه. كان يضعُ الحاملَ في أيّ ركنٍ وينطلقُ في رسم اللحظة التي تمرّ أمام عينيه، ظلّ انطباعيًّا وفيًّا لاتّجاه أستاذه حافظ الدروبي. وحين يسيطر عليه منظرٌ مّا، يعود إلى رسمه في أوقاتٍ مختلفة. لا يفتأ يكرّر لطلبته في حضوري: «المكانُ ثابتٌ والمنظر يتبدّل، الرأس ثابتٌ، ومع ذلك تتبدّلُ سحنات الوجه، اقبضوا على ما يتبدّل، اقبضوا على نقطة الضّوء قبل أن تدخل العتمة! في الحَرّ تتغيّر الملامح، في البرد يطغى الأزرق على الشّفتين، والتراب الذي يطير ذرّات غبارٍ في الجوّ لا تتركوه يحجب رؤيتكم، وحتّى إن حجبها فأنتم ترسمون بالإحساس لا بالعين، اللوحة الجديرة بالحياة هي التي تمتلك أحاسيسكم، أمّا ما يظهرُ للعين فهو زائلٌ في اتّجاه الماضي، كلّ شيءٍ يتّجهُ نحو الماضي، اللّوحة وحدَها تسرق الحاضر من الزّمن!».

قلتُ لهُ معاتبةً: «أين اختفيت عن الأنظار؟ حسبتك سافرتَ، فليس من عادتك أن تختفي!»، ردّ ضاحكًا: « كلّنا نريد أن نختفي!»، ثمّ أخذ يقهقه، بينما ظهرَ الغريبُ يتأبّط كتابًا. بدت علامات الاستغراب على الغريب أكثر ممّا بدت على وجه البروفيسور. ولم تمرّ دقائق حتّى تعرّف أحدُهما على الآخر. انغمستُ في ترتيب الكتب ومحادثة مريديها، ومن حينٍ إلى آخر أسترقُ إليهما النظر وقد جلسَا على الكنبة المحاذية للجدار. كادت تنفلت منّي ضحكةٌ وأنا أراقبهما، واستحضرت لوحات الفنّان غوغان وميلَه إلى رسم الزّنوج. في تلك اللحظات مالت سحنة الغريب إلى السّواد، ربّما بسبب مواجهته للبروفيسور.

لم أتوقّع أن يكون اللّقاءُ بينهما بدايةَ تخطيطٍ لأمرٍ مخيف! التّفكير في الرّحيل عن بغداد رغبَةٌ مشروعة. أن ألتقي بأختي من جديدٍ هو أملٌ، أمّا أنْ يكون التّفكيرُ في الرّحيل أشبه بتخطيطٍ للهروب الجماعيّ فهذا سيجلب لعنةَ ألسنة الشّمس قبلَ أنظار المخبرين! ولكنْ إلى متى الخوف؟ وإلى متى نخفي أبسط مشاعرنا ورغباتنا وبنات أفكارنا؟ منذ مئات السّنين، والأعوان يختفون واحدًا تلو آخر، يُلقون بأفكارهم

خفيةً، ولا يتركون أثرًا واضحًا لخطوهم، حتّى أسماؤهم محفوظةٌ في السّماء، وكلّ من حاولَ إماطة الاسم ضلَّ.

تكلّم البروفيسور ونحن في مقصورة البستان، وقال بلهجة المصمّم على التنفيذ: «لا يكونُ الهروبُ إلّا جماعيًّا! إن كنّا لا نستطيع أن نستمرّ في العيش هنا، فعلينا بالرّحيل، قبلَ أنْ تغرَق السّفينة!».

قال الغريب وفي صوته بحّةٌ شبيهةٌ بالغصّة: «تقصد سفينة الواسطيّ؟» فضحكنا جميعًا، ومال عليه البروفيسور قائلًا: «عليك بالمقامة الفراتيّة حتّى نشركك في المرتع والمربع». وبُهت الغريبُ كأنّه سمع كلامًا مُبهمًا، أوْ حلَّ بقومٍ لا يتكلّمونَ لغتَهُ، ولم يهدأ بالُهُ في ذلك المساء إلّا بعد أنْ جلبتُ لهُ نسخةً قديمةً من مقامات الحريري، فتلقّفها بشهيّة، وتركتُهما يتحدّثان بهدوء الحكماء، وكُلّي ريبَةٌ، بيْنما كانت الشّمسُ تلتهبُ.

حينَ كنتُ أخرج إلى الشّارع الواسع هنا، بحثًا عن الشّمس، أفكّر بأنّي سأصابُ بالإحباط إن لم يُداعبني شعاع، وبأنّ صدري الذي تحتلّه قطعتا

كُمّثرى سيصابُ بالخمول وارتخاء الحلمتين، إنْ ظلّت الشّمسُ مختفيةً أيّامًا أخرى تحت السّحاب! لم تكن شمس بغداد تكفّ عن بثّ الجموح، رغم كلّ الجراح، والفقدان ورائحة الموت التي حوّلت البلد إلى مشرحة. وكلّ جثّةٍ تذرعُ الشّارعَ كانت تحمل قابليّةَ عودتها إلى الحياة من جديدٍ كلّما عانقت الشّمس. الفرق الوحيد بين جثث الشّوارع وجثث المشرحة أنّ الأولى أرواحٌ بلا أجسادٍ، والثانية أجسادٌ بلا أرواح! نظرتُ من جديدٍ فيهما، ما الذي يدور بينهما؟ الغريب يقطّب حاجبهُ، بدا كأنّه شخص مختلف، ربّما يميلُ إلى الحديث مع الرّجال أكثرَ من ميله إلى الحديث مع النّساء، والبروفيسور لا يتوقّف عن الكلام، أردتُ قطعَ حديثهما لكنّي انشغلتُ بالحديث مع طالبٍ في الجامعة، يسألُ عنْ كتابٍ لأستاذه منْ ضمن مقرّرات المنهج، ولم أتفطّن إلى مغادرة البروفيسور واختفاء الغريب. ففكّرتُ وهلةً أنّهما سارا معًا في اتّجاهٍ لا أعرفهُ.

***

كنتُ واثقةً من أمر اختلاف الغريبِ الآثاريِّ

عنّا. كلّنا مختلفون لا محالَةَ، ولكنّ هذا الغريب يستجمع في عينيه فطنةً عجيبة. حينَ خرج من المقصورةِ بعد سويعاتٍ، بدا لي شخصًا آخر، وقفَ بخُيلاء، وقال: «اعلمِ أنّ التّبرَ في عِرق الثّرى خافٍ إلى أنْ يُستثارَ نبْشُهُ». اقتربَ منّي، وناوشني بغمزة عينه كيْ ألحق به خلف الدكّان، فأسرعتُ إليْه، دونَ تردُّدٍ، وعجبتُ لما رأيت. كان قد أعدَّ صينيّة الشّاي، وأخذنا نشرب صامتين، وفجأةً طلبَ منّي سيجارَةً فذُهلتُ، قال لي: «هل من العيبِ أنْ أدخّن معكِ على سبيل المجاملة؟» رفعت حاجبيَّ ضاحكةً: «وهل تريدُ عرقًا في الليلِ مُجاملةً؟»، قهقه طويلًا، وقال: «أرى جبالَ اليمن تتصدَّع منْ حوْلي، وأنا كعُشبة قات تنتظرُ صاحبها!» لم أفهم حديثَهُ ساعتَها، ولمَ السّعيُ إلى الفهم؟ هل ينبغي أن نفهم كلَّ ما يُقال؟ أخذ يسحب الأنفاس بسرعةٍ. «إيه لذيذة والله، لماذا حرّمها الأزهر؟» بدا كأنّه يتحدّثُ إلى نفسه حتّى إنّه بلغ عقب السيجارة وأخذ يسحبُ دونَ أنْ يتفطّنَ إلى ذلك.

رُحتُ أنظرُ إليهِ لفهم ما يدور في ذهنه. استغرق صمتُه دقيقة، لكنْ في هذه الحالات قد تبدو الثّواني

أطولَ من السّاعات، حملقَ فيّ كأنّه يضعني بعينيهِ في ركنِ الاعتراف، ثمّ شقّ صمتِي بجملةٍ واحدة: «أخبريني منْ تكونينَ بحقّ اللّه؟».

لم يحن الوقت بعدُ كي أبُوح لهُ بما يجبُ البَوْح به. ليس لي ما يكفي من يقينٍ بأنّه قد يصبح يومًا واحدًا منَّا، رغم أنّ لأبي محمّد حدسًا ثاقبًا، وما عهَدَ به إليَّ إلّا وقد أدرك معدَنَه وصفاء سريرته، واقتدارَه على كتم الأسرار. لكن لعلّه يرتابُ إذا أعلمتُهُ بأنّنا لا نرى العالم كغيرنا، أو ربّما يفكّر في الهروب منَ البستان إن حدّثته بأنّنا نبْحثُ عنْ عالَمٍ جديدٍ لا تكونُ فيه الأفكارُ القديمة مسطّرةً تُهلِكُ أنْفاسنا، قد يحسبُنا خليّةً سرّيّةً للعمل السّياسيّ، أوْ فرعًا لتنظيمٍ إيديولوجيٍّ معارضٍ لحزب البعث. لو خامرتْه هذه الوساوسُ وتداخلت عليه الهواجسُ فلنْ يُفكّر في الهَربِ فحسب، بل ربّما يشي بنا إلى أقربِ مخفرٍ ويقايضنا السّماحَ لهُ بالعودة إلى السّودان!

(4)

بلغتُ منتزهَ «فوندلبارك»، وفي ذلك اليوم قرّرتُ أنْ أشرد بقدميّ، ولم أجد في الحياة أروعَ من هذه الجنّة التي تمتدّ مروجُها إلى أطراف النّظر، وتبزغ خُضرتها بلَا فتورٍ أو استرخاء، كأنّها خضرةٌ مشتقّةٌ من المرج الذي كنتُ ألعبُ فيه وأنا بعدُ صغيرةٌ على طرفَيْ دجلة، قبل أن تلتهم الحربُ السّماء، وتصبح الغيوم مسنّةً وجدباء، ويتحوّل الأخضر إلى خانة الشّحوب. هنا كلّ هذا المرج ضاحكٌ، مستسلمٌ لمن يفتح ذراعيه كي يحتضن حبيبته، لمنْ يضعُ شفتيْهِ على حوافِّ شفاهٍ لا تقبلُ باللغة بديلًا من معاني الحبّ، هنا شعرتُ ودون خجلٍ برغبةٍ في نزع ثيابي، وإلقائها في الهواءِ. إيه، ما أروع أن أتعرّى هنا، مثل طفولةٍ مستعادةٍ في جنّةٍ موعودة.

صوتُ عجلات الدرّاجات يحنو على الإسفلت، كلّ شيءٍ ناعمٌ، الدرّاجون، ومرتادو المقاهي الجانبيّة. لا أعلمُ لماذا كانت الحديقة شبه فارغة، وكمْ أخبرتني عالية باجتناب المنتزه إن أردتُ الخلوة مع نفسي، خوفًا من الزحام. يومَها قرّرتُ أن أجلس في أحد

المقاهي التي تحاذي المرج وتطلّ على بحيرةٍ غير بعيدَةٍ خطفت أنظارَ الشباب فسلبتهم بعضَ ملابسهم رغم قسوة البرد!

أخذتُ أقلّبُ في أوراق «الزّول» من جديدٍ، أحتسي قهوةً مصفّاةً بطريقةٍ عجيبَةٍ يكادُ بُنُّها يتمدّد في قفص الصدر. استغربْتُ من الرّزمة التي استخرجتُها، فقد مُهِرت بجملةٍ في أقصى الطُّرّة، كأنّها عنوانُ فصلٍ أو بابٍ: «في الصّباح، تذكّري أنّي حاولتُ مقاومةَ عُبوديّتي». تذكّرتُهُ يومَ سألته: «لماذا تزوّجتَ سُليمة، وأنت لا تُحبّها مثلما أخبرتني؟»، فردّ هازئا: «حاولتُ مقاومةَ عبوديّتي للتقاليد وفشلت». في المرّات القليلة التي تحدّث فيها عن علاقته بزوجته، اعترف لي أنّه لم يعرف معنى الحبّ الذي سمع عنهُ من حكايات أصدقائه، زواجه التقليديّ نعمةٌ لأنّه لم يشعر بعذاب المحبّين، ولم يسهر الليلَ وهو يقلّب النجومَ ليبحث عن كلمات الحبّ، ولم يلهث وراء زوجته لأنَّ من يُحبّ يتزوّج الذّلَّ قبلَ الزوجة! وكم سألتهُ: «أَيُعقلُ أنْ يتزوّج رجلٌ امرأةً لا يُحبّها؟» فردَّ: «من أراد السّلامة مثلي يتبعْ أجدادَه في كلّ شيء ولاسيّما في الزّواج». حسبتُه بلا عاطفة، واستغربتُ كيفَ يحيا

قرويٌّ دُونَ حبّ، ولكنَّ الحبّ مركوزٌ في طباع النّفوس، وماذا عن تلك النّظرات الحزينة التي كان يُغدق بها عليّ، كأنّما هي علامات حسرةٍ على عمرٍ ضائع! جرّبتُ أنْ أُحدّثه عن المحبّينَ، وبُحتُ لهُ دونَ خجلٍ بأنّني تزوّجتُ ماجد بعدَ أنْ عجزت الكلمات بيننا عن قولِ شيءٍ يعادلُ ما نشعر به. اخترتهُ مثلما اختارني. هناك في أعلى السّماء، تنبت أقدار المحبّين. جعلني صمته إزاء كلامي عن الحبّ، أستغرب من إلحاحه على مغادرة بغداد بأقصى سرعةٍ. اعتقدتُ أوّلَ الأمر أنّه يريد الركضَ في اتّجاه سليمة، وقد ركضتُ أنا خلفَ نعشِ ماجد. فما بالُك بركض الأحياء خلف الأحياء؟ كانت نيّتي أنْ أعانقهُ قبل أن يوارَى التُّراب، لكنّهم قيّدوا رغبتي، الرجالُ في الغالب لا يلقون بالًا لأمنية أرملةٍ طازجة. يومَها جلستُ بين النّسوة بلا حراكٍ، لماذا نحيا؟ ولماذا نموت؟ وما نفعُ الدنيا بعد فراق من نحبّ؟ وما معنى الموت؟ هل هو غيابٌ تامٌّ أم مؤقّت؟ وهل في ما بعد الموتِ مكانٌ سرّيٌّ يجمعُ الأعوان بعضَهم ببعض، الأعوانُ الذين تشتّتوا في الأرض، بسبب بطش السَّاسة والفقهاء معًا؟ في صبيحة الغد، جلستُ عند

قبرِه، لم أكن وحيدةً، فأبو محمّد والبروفيسور وعارف وآخرون قرؤوا الفاتحة بصمتٍ، وقرأتُها جهرًا، كنت أريدُهُ أن يسمع صوتي، فالرّوح ما تزالُ فوق القبرِ تحلّق!

أرعبني ذلك الصّمت الذي طوته السنوات، ذقتُ الوحدة مجدّدًا، وكانت وحدةً مغموسةً في اليتم! رحلَ ماجد قبل أن يسردَ لي قصّةَ دخوله إلى الكويت مُكرهًا، وكم عدتُ لقراءة كتابه الصّغير «وصيّتي»، وهي مجموعة خواطر وأشعارٍ حرّة، لم يتقيّد فيها بشيء، مازالت كلماته الأولى منقوشةً في ذاكرتي «إذا كنتَ تبحث عن الحرّيّة، فلتَبدأ بنزع القيود عن الكتابة»، لكنّ كلماته غاصتْ في الصّحراء مثل دمه. خمس سنواتٍ معه حفرتْ فيّ أشياء كثيرة، وسنواتٌ دونهُ لم تزد الأثلام إلّا اتّساعًا. قال قبل أن يلتحق بسرّيّة الجيش: «إذا متُّ فلْتكتبي إليّ الرسائل!»، ارتدى بدلته وغابَ. كنتُ مستغربةً من طلبه. وحينَ أوصدتُ البابَ، شَحُبَ وجهي وشعرتُ بالغثيانِ وتحسَّستُ بطني. لا شكّ أنّ الراحلين يعلمون توقيت رحيلهم النّهائيّ، ولكنّ الأحياء لا يبصرون إلّا ما تحت أقدامهم. آه منك أيّها الرّحيل!

لم أكتب إليه رسالةً واحدة، بل تحرّرتُ من قيد الكتّابة معه، وكنتُ أُحدّثهُ كلّ ليلة وكأنّه بجانبي، يعانقني ويقبّلني بلا حدٍّ. حديثُ الأرواح أيسر وأعمق، وكلّما عزفَ أبو محمّد، وجدتُ في أنغام الموسيقى الرّسالةَ التي لم أكتبها إليه! ليتني كتبتُ، لكلِّ شيءٍ طَعمُه، والموسيقى لغةُ الروح، لكنّ للكلمات طعمَ الحياة.

أثناء اللحظات التي بدأت فيها ترشّف القهوة، شرعتُ في القراءةِ، أتهجّى أحيانًا بعض المفردات. فقبلَ أنْ أعيد نسْخَ هذه النّقوش، عليَّ قراءتها أكثر من مرّةٍ، أكتشفها في بداية الأمر، ثمَّ أودعها الدّفترَ. لا أدري لماذا تسلّلت إليَّ فكرةٌ ماجنة: لمَ لا أتخلّصُ منها نهائيًّا؟ فلأتوقّف عنْ عمل شيءٍ لا معنى لهُ سوى تحنيطِ الماضي في متحف الذّاكرة! لكنْ ما الفرقُ بيني وبينَ منْ أحرقَ المكتبات في بغداد والإسكندريّة إن أنا فعلتُ ذلك؟

نقش

في الصّباح، تذكّري أنّي حاولتُ مقاومة عُبوديّتي

أعلم أنّ خطّي رديء، أكتبُ مثل دودةٍ خائرة القوى، ومع ذلك لا أشكّ في أنّك تستطيعين فكّ شفرة هذا الخطّ. أنتِ من قلتِ لي إنّ النّقطة، على غرار الأعوان من جدودك، شيءٌ لا جزءَ له، وهي أصلُ الخطّ كما أنّ الواحد أصل الاثنين، وأنّك خطٌّ مستقيمٌ ممتدٌّ لتلك النقطة البعيدة قبل قرون، وبالطبع لم أستسغ ذلك. أتعرفين السبب؟ ببساطةٍ، اعتقدت سنواتٍ طويلةً أنّي خطٌّ مستقيم، أمشي على الصّراط، لم أُذنْبْ في حقّ أحد، ولا في حقّ نفسي، محافظٌ في كلّ شيءٍ، تقليديٌّ حتّى الرقبة، «زول دغري»، كنتُ أصلّي مع المصلّين، وأحافظ على الصّلاة والعادات، الصّلاة لله والعادات لخلق الله، ولا أشكّ في شيء! حتّى إن تلصّص عليّ إبليس، لأنّي بشرٌ مثل سائر البشر، أفتح له أذنيَّ حتّى يشعر بأنّي استسلمتُ له، ثمَّ أباغتهُ بالعصيان. ما حللتُ بمكانٍ إلّا حاولتُ تغييره بحسبِ محافظتي،

في أوّل الأمر كنت أجد صعوبةً في ذلك، قيل لي يصعب على الإنسان أن يغيّر المكان، فالأمكنة تغيّر أصحابها، لكنّي وجدتُ طريقةً سهلةً لتحقيق ذلك، اكتفيتُ بأن أحمل أمكنتي المفضّلةَ في ذاكرتي وأعيش فيها، دون اكتراثٍ بأيّ مكانٍ جديد، لم تعد الأمكنة الجديدة تعني لي شيئًا أكثر من كونها حاوياتٍ لأفكاري وأحاسيسي وعاداتي! رأيت كلّ شيءٍ في الخارج محايدًا، وظننتُ أنّي أسيرُ في الاتّجاه الصّحيح، أزهو بالصّراط المستقيم، وأقترب كلّما تداعى العمر من نقطة النهاية إلى الفردوس. حتّى زوجتي لم أخترها من بين المئات أو الآلاف، ولم أرهَق في اختيارها، العادات اختارتها لي! وجدتُها كما تمنّيتُ، ولم أفكّر كثيرًا في ما إذا كانت مكانًا جديدًا، فالأمكنة لم تعد مهمّةً أمامَ قوّة التصميم على أن أكون كما أنا، وما عليها إلّا أنْ تكون وعاءً لي! هكذا ظننتُ الاستقامة!

كادت الحياة تتغيّر، لفحتني روائح غريبةٌ حين التقيتُ بهيرو أوّلَ مرّةٍ في ميدان عُرابي، لم تكن رائحةَ عطرٍ مغشوشٍ أو بخورٍ فاسد، بل رائحةً من عرق العبيد، كأنّه اندلق في لحظتها من رحم أمّه

بدمه المعفّر ووجهه الأزرق من شدّة انعكاس الشّمس على سواد وجهه، رأسُه كان أشبه بحبَّة مانجو ملقيّةٍ على التُّراب، نسيَ المزارعون وضعَها في الصّندوق مع شقيقاتها، وقامتهُ الطويلة تذكّرني بخرافات العماليق. لا أذكر أنّي صادفتُ سودانيًّا بهذا الطول، حتّى إنّي كدتُ أهرول في اتّجاه الكورنيش خوفًا من هذا المارد! وخشيتُ أن تدبَّ فيه روح الثّأر فيصطادني، ليجعلني من عبيده، وفي داخلي «هوجة عرابي» وصوته وهو يلعلع: «لقد خلقنا الله أحرارًا ولم يخلقنا تراثًا ولا عقّارًا»، نخفّ عندي الشّؤم، وفوّضتُ أمري إلى الله!

اندهشتُ كيف دلَّني عليه شُول، زميلي في الجامعة، فشُول قصيرٌ وثخينٌ، وبنيتُه قريبةٌ من هيئة النساء، وهو لا يفتأ يدعو إلى الصّلاةِ في الكنيسة يوم الأحد، وكان كثيرَ الأكل، لا يشبع إلّا إذا أحسّ بالإسهال. رأسُهُ طبلٌ بأذنَيْ فيل، يتلقّف أخبار السودانيّين، ولا ندري أَهُوَ مخبرٌ أمْ عميلٌ للنظام المصريّ، فلا نعلم من أيّ مصدر يُرزَق بالجنيهات، ومن أين ينعم بالسّكن في أفضل شقّةٍ تطلّ على شاطئ ستانلي. ورغم أنّه شُهر بطبعه المتسلّق فقد

نصحَني، حين علم ببحثي عن شخصٍ يحدّثني عن آثار اليمن، بأن أتوجّه إلى هيرو، بل إنّه رتَّب لي ذاك الموعد معه، ولم يطلب منّي حينها شيئًا مقابل تلك الخدمة. ما الصّلة بين شول وهيرو؟ أمرٌ حيّرني آنذاك، ولم أجد سوى تفسيرٍ واحدٍ يتعلّق بوحدة المنشإ، فكلاهما من الجنوب.

- «هل سابقتَ الرّيح من قبل؟».

- «لم أفهم، ماذا تقصد؟».

- «الريح التي تخيف عواء الذّئاب».

- «قسمًا لا أفهم ما تقول؟».

- «إذن، مازلت صغيرًا على الذّهاب نحو الجبال».

نزلت كلمات هيرو في لهجة تأنيب، وجرَّ قدمَيه في اتّجاه المقهى المطلّ على الميدان. حتّى ذلك التاريخ لم يسبق لي أن جلستُ في مقهًى، حتّى مشربة الجامعة أنفر منها، ولكنْ ما دامت حاجتي إلى هذا الشّخص ضرورةً فما عليّ غير اتّباع أثره، وإن استدعى الأمر الجلوسَ في المقهى فسأجلس. هذا نوع من الاستسلام الظاهريّ لإبليس! كان

المقهى مزدحمًا. أحسستُ بالقشعريرة تنخر عظمي، كأنّي أخونُ نفسي، فأنا مجبرٌ على اتّباع هيرو كَمَنْ ينقادُ إلى زريبةٍ تحت وطأة السّلاح. كانت يدهُ على فخذه، يتحسّسُ ما يمكن أن يُفتقد من بكارة! هيرو الجبّار يدخلُ المقهى دونَ جلبة، أنفهُ يسبقهُ، يتحسّسُ المكانَ بمنخريْهِ، وعيناهُ مسلّطتانِ على كلّ مَن جلس ملاصقًا الممرّ. مَن هؤلاء البشر الذين تركوا أعمالهم وأولادهم وزوجاتهم وربضوا هنا؟ شعرتُ أنّهم جزءٌ من المقهى، فطريقتُهم في الجلوس توحي بأنّهم جثموا هنا طويلًا، وأنّهم لن يتزحزحوا عن الكراسي إلى يوم الدّين. ثمّ هل يكونُ هيرو ملّاحًا في البحر والبرّ؟ يشقُّ زحامَ مريدي المقهى والطّاولات دون أن يأبه لأيّ شيءٍ أو أحد. قال لي شول: «لا نتناقش معه كثيرًا، أمثاله اعتادوا أن يتكلّموا والبحرُ طوال الطريق ساكت!».

تناول هيرو الكرسيّ بهدوءٍ بينما أقبل النّادلُ مُسرعًا، وأنا بعدُ واقفٌ في مكاني، سمّر عينيه في صمتي: «إِنْتَ صاري مركب وإلّا إيه!»، ومثلَ طالبٍ وديعٍ جلستُ قبالته. طلب كأسَين من الشّاي، لم أطلب شيئًا! هل كان عليه أن يسألني عمّا إذا كنت

أشربُ شايًا أم أكتفي بالماء؟ هل هو فظٌّ إلى هذه الدرجة؟ لَملمتُ بعض كلماتي ونويتُ سؤالهُ، فسبقني: «ما الذي تحمله بين يديك؟ آه، «هيرودوت في مصر!»». أيقظ بضحكاته جلّاسَ المقهى الذين كانوا شبهَ شاردين، وأضاف: «إنّ ملامحك نُوبيّة، فلا تنشغل كثيرًا بتاريخ المصريّين!»». دون أدنى شكّ، لم أتردّد في القول: «النوبيّون أصل العالم! المصريّون مدينون لنا، ومن يقول عكس ذلك فعليه أن يتذكّر اسمَ طهراقة، فحسب»». لم يفكّر طويلًا ليقول: «الحقيقة قد تكون غير ذلك وقد تكون كذلك، إذا أردت أن تعرف فعليك التخلّص من الجزم والحماسة، أمّا الجزم فمثل أن يدّعي البحّار أنّه يعرف البحر تمامًا، لكنّه ينسى الدُّروس ومنها «التايتانيك»»، وأمّا الحماسة فمثلَ أنْ يتوهّم أنّه أمهرُ بحّارٍ على وجه الأرض فيقود السّفينة إلى الهلاك، لأنّ الحماسة الزائدة طيش! وإذا أردت أن تذهب معي إلى حيثُ تريد فعليك التخلّص من الاثنين معًا»».

سكتُّ قليلًا، أبحثُ في ملامحه عن تفسيرٍ مقنعٍ يكشف سرَّ هذا الأسود الذي يكلّمني مثل أستاذٍ في محاضرة، أهو مجرّد بحّارٍ أم رجلٌ مقنّعٌ يحذق

الحديث بألف لسان، غير أنّه تفرّس في عينيّ كَمَن يقتفي أثرًا: «لا تخمّن كثيرًا، من يجلس أمامك، بعضُهم يصنّفه من عصابة البحر، وآخرون يعتبرونني من عصابة الجبال، في الإسكندريّة وجه، وفي الحُديدة وجهٌ آخر، مع أنّي شخص واحدٌ وليس لي غير وجهٍ واحد! ولكن يبدو أنّ سواد وجهي زادني غُموضًا، ولأنّي أودُّ أنْ أكونَ صريحًا معك، أقول لك مباشرَةً: إن أردت السّفر إلى اليمن بصحبتي فليس لك غير أن نتوكّل على الله أوّلًا، ثمّ تقبل بأن تركب السفينة وتشقّ البحر الأحمر معي ثانيًا». زاغت نظراتي قليلًا عنهُ، وقلتُ لهُ بنبرة اليائس: «لكنّي أخافُ البحر، كنتُ أخشى النّيلَ فما بالُك بالبحر!»، صفعني بضحكاته دون أن أجرؤ على رفع عينيّ في عينيه، وقال مؤنّبًا: «لم أطلب منك السباحة من بورسعيد إلى عدن، لا تخفْ، اركب معي وإن عجزت عن تحمّل الرحلة فسنلقي بك جنب الشّعاب المرجانيّة الحمراء، أو نرميك في بور سودان».

في تلك الظّهيرة لم أشأ إعلامَه بأنّي لا أريد العبورَ من باب المندب. فحينَ يلتقي السّاحل الإفريقيّ بالسّاحل الآسيويّ، لن نسمع غير صراخ المستغيثين

من البحّارة الذين أكلهم البحر، وستودّعني ذكرى العبيد الذين مرّوا في شحناتٍ بشريّةٍ بعد أن تمّ اصطيادهم في إفريقيا ليُباعوا في أسواق النّخاسة بآسيا، عويلٌ وبكاءٌ وتضرّعٌ إلى الله والربّ على حدٍّ سواء! أيّا كانت ديانتهم فبكاؤهم واحد، والمضيق يضيقُ عليهم!

ومع ذلك ظللتُ أستمعُ إليهِ بشغفِ مَنْ يبحثُ عنْ شيءٍ مفقود. قال هيرو إنّهُ لا يشعرُ بالتّعب إلّا حينَ يطولُ به المقام على البرّ، فإن كان الإنسان يُمضي ثُلُثَ حياته في النوم، فإنّه غير مستعدٍّ لقضاء يقظته كلّها خارج البحر. وأضاف في حبور القراصنة الذين قهروا أعداءهم: «لكلِّ مغامرةٍ ثمن، وأفضل مغامرةٍ هي شقّ البحر الأحمر، وأنت مستعدٌّ لفراق دمك في أيّ وقتٍ، الدّم يفورُ في الجسد الحيّ، مقدار الحياة يقاسُ بفوران الدّم، وعندما أكون في البرّ يتضاءلُ الفوران!» قلتُ بفتور: «حتّى أهل البرّ يفور دمهمْ!»، فردَّ ساخرًا: «دم الرّهينة في البحر أغلى من دم الرّهينة في البرّ! إن فارَ دمي الآن فبسبب رفضِك ركوبَ البحر!».

أخذ يُدخّن بخُيلاءِ مَن يُسمِّر عينَيه صباح مساء في المرآة، ويُمشّط شعرهُ بأصابعه الطّويلة. كانَ شعرهُ على طريقة بوب مورلي، وذقنهُ تفتك به شعيراتٌ قليلةٌ تتدلّى في شكل عنقودِ عنبٍ، ووجههُ صخريٌّ بلا تجاعيد، ونقراتُ أصابعه على حافّة الطاولة تُنغّم موسيقى زنوجٍ معذّبين! هو يشبهُ قُرصانًا حبشيًّا، حتّى الجاكيتَ الكاكي التي يلبسُها تُوحي بأنّه افتكّها منْ رهينةٍ بريطانيٍّ منذ سنوات، من النّظرة الأولى تعرفُ أنّه خبيرٌ بالحياةِ. لم يغيّر اتّجاهَ نظراته وهو يُحدّقُ فيّ متفحّصًا صمتي، أو يقلّبُ روّادَ المقهى بنظرة صقرٍ يُلاعبُ فريستَه قبلَ الانقضاض عليها.

رفعتُ حاجبيَّ مندهشًا حينَ وخزني بكلماته:

- من الواضح أنّك عديم التّجربة مع النّساء!

- النّساء! وما دخلُ النّساء؟

- أنا عرفتُ الكثيرات، ولم أفهم عالمَ أيّ واحدةٍ منهنّ! اكتشفتُ أنّي عجزتُ عن معرفتهنّ حين كنتُ إنسانًا برّيًّا، أمّا حين ركبتُ البحر فقد تغيّر الأمر، البحر علّمني كيفَ أبْحر في المرأة، كيفَ أمشي في طريقها دون خوفٍ من الآتي، كيفَ أصبر على

هيجانها وتبدُّل مزاجها. المرأة بحرٌ يا زول، وإن كنتَ تخشى البحرَ فلن تكون إلّا عاجزًا بعد حين!

قهقهَ مثل زير نساءٍ، وتكوّرتُ أنا على نفسي. لا أنكر لحظتها أنّي سحبتُ يدي من فوق الطاولة وأنزلتها قليلًا لأتفقّد أيري! راحَ ينظرُ إليَّ، وعاد إلى سؤالي عن رغبتي في السّفر إلى اليمن، واشترطَ من جديدٍ أن يكون دليلي إن قبلتُ ركوبَ السفينة معه. لكنّي طلبتُ منه أن يُمهلني أيّامًا للتّفكير وإعداد نفسي للرّحيل قبلَ أن يبدأ قيظ الصّيف، وقلت له إنّني سأُعلمُ شول بقراري، وكنتُ في قرارة نفسي أستبعدُ ركوبَ البحر وسماعَ صوت أنين الأفارقة يعبرُ التاريخَ ليثقب طبلةَ أُذني.

فجأةً طلب ورقةً من النّادل، وسجّلَ عليها رقم هاتفٍ غريب، قال لي إنّه هاتِف السّفينة، وألحقَ به رقمًا آخر، بدا لي مفتاحُه غير معروف، وقال: «إن لم أردّ عليك من الرقم الأوّل، فلتتّصل بي على الرقم اليمنيّ، قد تحتاج إليّ حقًّا»، ثمَّ ابتسم قائلًا: «ينبغي عليَّ الانصرافُ، ثمّة من ينتظرني ليَلتهم شهوتي! هل تريدُ الذهاب معي؟ على كلّ الله كريم».

هل كان يختبرُني؟ لا أعرفُ سوى أنّه اقتربَ منّي قبلَ أن ينهضَ وقال: «أنا لا أثيرُ أيّ مشاكل، أُفرغُ ما لديّ من حمولةٍ، وأدفع الأجرَ، وأحمي شرفَ الكابتن والبحّارة، لا أحد يجرؤ على تلطيخ سمعتنا، حتّى ونحن نمرح ونمزح ونفتح «السُوستا»! أروي لك ما وقع لباخرتي قبل سنوات، حادثةٌ أسميناها جميعًا حادثةَ استعادة الشّرف، فحينَ تريد أن تمارس حقّك في أكل اللحم عليك أن تحترم قوانين البحار. كان في الباخرة بحّارٌ طيّب، رجلٌ في الخمسين غير متزوّج، يتولّى إمامةَ البحّارة ونصحَهم وهدايتَهم، يُدعى الظّافر، وكان على رحلتنا تلك بحّارٌ شابٌّ اسمُه الغرافي، يكثر الجلوسَ بمفرده، وحينَ ترسو السفينة في ميناءٍ ينَزل إلى اليابسة ويغيب، فلا يرجع إلّا بعد انتصاف الليل وهو سكران. كانَ من حقّ البحّارة أن يشربوا ما شاؤوا عند رسوّ السفينة واستراحتنا أيّامًا، وأن يذهبوا صوبَ مرابض النساء. فلمّا رسَوْنا في ميناءٍ بغرب إفريقيا، اتّجه الغرافي إلى ماخورٍ معروفٍ بالمدينة، وقضّى نهارَه مع مومس سليطة اللّسان، وبعد أن قضى حاجتَه منها طالبته بأجرها، فماطلها ثمّ أخبرها بأنّ اسمَه الظافر، وطلب منها أن

تأتيه في اليوم الموالي إلى السّفينة ليعطيها حقّها. فجاءت في الموعد ولم تجده، فشكتْ إليّ وهي تولول أنّ بحّارًا يدعى الظّافر قد مارس معها الجنس دون أن يعطيها أجرَها، فاستغربتُ من الأمر، إذ كيف للظّافر المتديّن أن يخرج من جبّة الدين ليعاشر هذه المومس! كانَ معي بحّارةٌ آخرون استمعوا إلى روايتها، فذهب بعضُهم إلى الظّافر لإخباره، فنفى التهمةَ حتّى إنّه بكى. وفجأةً مرّ الغرافي على ظهر السّفينة وقد كنّا في كابينة القيادة، وإذا بها تصيح عندما رأته: ذاك هو الظّافر ذاك هو الظافر! بعد أيّامٍ طُردَ الغرافي من العمل على السّفينة، فلا مكان بيننا للسّفلة، الاحترام والإيفاء بالعهد واجبٌ حتّى لو كان مع مومس!».

عندَها قلتُ في دخيلتي: «هذا الهِيرو خطير، يريدُ إغوائي بشتّى السُّبل، المرأة عندهُ قطعة لحم! وهو ليس قُرصانًا بل له سماتُ أكلة لحوم البشر! أنا فعلًا لم أعاشر النساء، ولكنْ لن أجرؤ على الذهاب إلى هناك، صحيحٌ أنّ المائة دولارٍ التي أخصّصها لنفقاتي كلَّ شهرٍ لا تكفي حتّى لإسكات خوار بطني، لكنْ حتّى لو كانت لي آلاف الدولارات، فلن أدعو بنتًا لارتشاف القهوة معي!».

لا أدري الآن، هل كنتُ محقًّا في ذلك الرأي والإحساس؟ هل كانَ عليَّ أن أبقى طاهرًا، فأحرم نفسي لذّات الحياة، وأقضي سنوات الجامعة مثل قَسٍّ في كنيسة؟ حتّى حين تزوّجتُ سُليمة ظللتُ أسأل الأسئلة نفسها!

بعد تلك الجلسة غاب هيرُو. وظهرَ شول بعد أيّامٍ ليؤنّبني على رفض السّفر، فقد فوّتُّ في نظره فرصةَ العمر، وأغضبتُ صديقَهُ الذي تعرّفَ عليه في حانةٍ قديمة جنب الميناء. منذ ذلك اليوم وهِيرو يستقرُّ في شقّة شول كلّما نزلَ إلى البرّ، فيتّخذها منطلقًا لغزواته. قلتُ لهُ متعلّلًا: «لم أقبل السفر معهُ لأنّ الرحلة ستطول، وستتجاوز إجازة الشّتاء، والأفضل أن أسافر إلى اليمن بعد استكمال العام الدراسيّ».

كنتُ في سنة الباكالوريوس، وليس أمامي غيرَ أن أتخرّج وأُنهي عذابَ أبي مِن دفع مصاريف الجامعة، أمّا رغبتي في البحث عن النّقوش اليمنيّة القديمة فيمكنُ تأجيلها. عشراتُ الرغبات مؤجّلة، ولم يحدث أن تغيّرتُ حينها أو تغيّرَ العالم من حولي!

حين أخذ شول يلومني، طلبتُ منهُ أن نتّجهَ صوبَ

شاطئ سيدي بشر، لستُ أدري، هل هي رغبةٌ نجولةٌ تلك التي نَمَتْ في داخلي لأرَى البحر بعَينَي هِيرو؟ تنحنح شول، وقال ساخرًا: «لنذهب إلى الحانة! البيرة رفيقة الدرب. بعد أن تَكْرَع كأسًا واحدةً، ستفكّر في اللّحاق بهِيرو!»

مشينا متجاورَين وعلى لسان شول جملةٌ واحدة: «إِنتَ تشبه مين؟ غارق في الكتب والتفكير وتبحث في آثار المنسيّين!». كان شول محبًّا للشّعر، يقول دائمًا إنّ بين الشّعر والآثار صِلةً، الشّاعر يبحث عن الحقيقة الأولى التي جعلت العالم نثرًا، والآثاري يبحث عن الحقيقة الأولى التي جعلت الحضارة تنمو. وهو لا يفتأ يكرّر أنّ حبَّه للإسكندريّة يفوق حبَّه للنّساء، الإسكندريّة في رأيه لا يمكنُ معرفة أسرارها إلّا إذا كان الواحد سكران، ففي اليقظة تكون عبدًا للشّواغل اليوميّة، وحين تبدأ في الشّراب ترى نفسك سيّدَ الكون وتمتلك البحر! البحر من جديد! لا أعرفُ لماذا الإصرار على أن يكون البحر هو الحياة، وقد نشأتُ وكبرتُ بعيدًا عنه.

ظلّ يُدندنُ في الطريق بينما الشّمسُ تلهثُ في

السّماء: «اسكندريّة الملح غطّاها، حبلت وولدت، ورد على ياسمين، ولدت حديد على نار، مبيضين على شيالين، على مراكبيّة.. قال اللي قال: حوشوا، كانت مراكب، أصبحت توابيت..»، يقول بنشوة: «إيه يا صلاح جاهين الكبير! تصوّر حياة من غير شعر جاهين، ولا أغاني سيّد درويش، هي مصر إيه من غير الكبار؟!» على امتداد سنواتٍ لم أستطع الاقترابَ من عالم الشّعر مع أنّ شول كان يُحرّضني أثناء سنواتي الجامعيّة على ذلك. كنتُ أرى الحجرَ أكثرَ إثارةً لتفكيري، ولا أدري هل كانت عواطفي شبه متيبّسةٍ بسبب موقفي من الشّعر أم لا، لكنّي كنتُ أحبّ الخيال، لأنّ الحجارة الصّامتة يحيطُ بها الكلام، تروي ما لا ترويه الكتبُ ولا تقولهُ القصائد. الحجارةُ عينٌ على كلّ ما حَدَثَ ويَحدثُ، وكثيرًا ما رفضتُ ربطَها بالماضي. كلمة الماضي نفسُها لا أحتملُ وجودها في قاموسي. الحجارةُ حاضرٌ وإن انتمتْ إلى تاريخٍ سابقٍ. وعندما كنتُ أبوحُ لشول بتلك الأفكار، كان يحدجني بعينيه البُنّيّتين ويضحك قائلًا: «أنت حجرةٌ متحرّكة، لو شربت كأسًا لصرتَ غبارًا، ولو لهثتَ خلفَ امرأة لصرتَ ألماسًا في رقبتها، يا لك

منْ صخرة!».

تقبّلتُ ضحكاته ونظراته. وبعد فترةٍ قصيرةٍ من المشي، بلغنا بئر مسعود، وصعدنا الرّبوة، قال لي: «هل لك أمنية؟» ضحكتُ، لا لشيءٍ إلّا لأنّي لا أملك قرشًا واحدًا كي ألقيه في البئر! ثمّ أضاف: «الحجارة دي مثلك تمامًا ما تغيّرت من زمان! قالوا إنّها ترجع لليونانيّين، كانت مقبرة، يعني الحجارة تغلّف الموت والموتى، وحقّ يسوع أخشى أنّي مصاحب مومياء!». تسمّرتُ في مكاني، وأنا جالسٌ على الصّخرة، أحاولُ النّظر إلى المياه وهي تموجُ ثائرَةً، تدوّي كالرّعد، وقربي فتاةٌ في العشرين، قد تكون جامعيّة، تضع حجابها بشكلٍ عجيب. رقبتُها ظاهرة، ووجهها خليطُ ألوانٍ بمساحيق تشبه الدهانات. كانت تقول بصوتٍ مسموعٍ: «يا ربّ أتجوّز!» دون أن تكترث لجمهرة الناس منْ حولها. فتياتٌ وشبابٌ وبعض السيّدات اللواتي عبثتْ بوجوههنّ التجاعيد يتحلّقون حول الصّخرة، وينصتون برهبةٍ إلى هدير المياه، كأنّهم يسمعون نداء «مسعود»!

فوجئت بشول يتّجه صوبَ البحر، يرفع يدَيْه في

حركةً غريبة، ويجري نحو شيءٍ مّا. ظللت واجمًا أتابعهُ، بلغَ حافّةَ الكورنيش وصعد على سياجه الحجريّ، وبدأ يُدير يدَيه كعقارب ساعةٍ اتّحدت في مسار الزمن، وأخذ يُلوّحُ بذراعَيه. لم يكن جَسَدُه يستطيع متابعةَ حركات يديه، بينما انحرفت العيونُ كلّها نحوَه في استغراب، وبعض الضّحكات بدأت تنسلّ من شفاه عاشقين، وأوّل من سارع إلى الاحتشاد حوله هم الصّبيان. أصبحوا يُهلّلون ويقلّدونه، يرفعون الأيدي، وشول ينتقل من ضمّ ذراعَيه في حركة الدّوران إلى حركة التّجديف، والأطفال يصيحون ويجدفون هُم أيضًا في الهواء، لا أحدَ من المارّة فَهِم ما يحدثُ، ومع ذلك توقّفوا ليتابعوا المشهدَ، وتابعتْه النّسوةُ بخوفٍ. ربّما خفنَ أن ينزع شول قميصهُ في حركةٍ مفاجئة، هكذا المجانين أحيانًا يبدؤون بالرقص ثمّ يتخلّون عن ثيابهم قطعةً بعد قطعةٍ في اتّجاه العراء. لكنّ شول أخذ يدندن، وهو يواصل التجديف ويرفعُ قدمَيه أحيانًا نحو الأمام بالتناوب ثمّ يُمسك خصره بكلتا يديه، ويصيح: «كافافيس.. كافافيس»، والصبيان يردّدون خلفه: «كافافيس.. كافافيس»، ولا أحد يفهم معنى ذلك!

ثمّ يضربُ شول بكفّه على فخذه في حركةٍ متسارعة، والصبيان يقلّدونه، ويتعالى صياحهم «كافافيس.. كافافيس»! وبعدها يشرع في الدّوران ويداه على خصره، ويسيرُ يمنةً ويسرةً كبهلوانيّ، ويعودُ إلى نقطة البدايَة، والمارّةُ يخرجون عن صمتهم ويصفّقون، فيمتزجُ تصفيقهم بصوتِ أمواج البحر وهي تصفعُ الصّخر، وبعضهم يتمايل باستحياءٍ. أنا أيضًا تمايلتُ دونَ أنْ أشعر، لكنّي سرعان ما تماسكتُ! وأصابني الهلعُ حينَ صاح شول بأعلى صوته: «كافافيس!»، وقفز من السّياج. ظننتُ أنّهُ ألقى بنفسه في البحر، لكنْ حين اقتربتُ مسرعًا وجدتُهُ واقفًا على صخرةٍ واطئةٍ، والصبيان رؤوسهم شبه متدلّيةٍ من السّياج يرقبونَه وهو يبلّل يدَيه برذاذ الموج.

لم أستطع فهمَ شول، يغيبُ في الكنيسة أيّامًا، ويدعوني لكرع البيرة، ويرقص على الكورنيش في وقتٍ واحد! ومع ذلك تمنّيتُ يا ثناء أنْ أكونَ مكانه، على ذلك السياج أرقصُ وأصيح. كانَ عليَّ خوض المعركة مع نفسي يومَها. عليّ أن أعترف بأنّني لم أعرف شول جيّدًا، أدركتُ متأخّرًا أنّه شاعر، منذ أن استعدتُ كلامهُ ونظرته للحياة، ليس لأحد

أن يشكّ في شاعريّته، لا أدري ما إذا كان من المفيد أن يُصاحب المرء شاعرًا، كانَ يهمسُ لي: «الشعر معجزة»، وكنتُ أسخر بالقول: «ولّى عصر المعجزات»، لكنّني حدست أنّ العناية الإلهيّة لا تبخل على العالم بالمعجزات متى أرادت. يأتي الشّعراء من كلّ فجّ، يأتي شول برقصه وغنائه كأنّما يركبُ ظهر إحدى الحوريات، ويغيبُ في قاع البحر.

اكتشفتُ بعد محاولاتي الأولى تسليمَ نفسي لرقص الحياة أنّي لستُ على استعدادٍ للمخاطرة بإلقاءِ سنواتي السابقة في البحر. لم يكن ذلك بإرادتي، شعرتُ أنّي أحتاجُ إلى قتلِ شخصٍ مّا بداخلي، وتلك معصيةٌ لا يُمكنني ارتكابها. فكرة القتل نفسُهَا جرمٌ. لماذا أسعى إلى العيش في حدادٍ على نفسي بقيّةَ سنوات عمري، ويصبحُ جسدي مُجرَّد مقبرةٍ؟! ولا أخفيكِ أنّي الآن أشعر بحزنٍ على نفسي لأنّي لم أقتل ذاكَ الشّخص الذي لازمني منذ نشأتي، ولعلّي أستعيرُ حاجبَيْكِ فقط لأطعنهُ. ما يدريني؟ لعلّي أعيشُ مختلفًا عنهُ بقيّة عمري!

(5)

في الدكّان منضدةٌ واحدةٌ، لطالما تحلّقنا حولها، أنا وأبو محمّد وعبد القادر وعارف. هل كنّا حقًّا ورثةَ الأعوان؟ وهل قضى الحصارُ على أمانينا في استكمالِ برنامجنا؟ يا إلهي! كانت المخاوف تداهمنا كلّما فكّرنا في أن نتنفّس فكرًا وأدبًا وفنًّا. ماذا نفعلُ، وقد أقام في بغداد قابضُ الأرواح؟ ثمّة تحالفٌ عبثيٌّ بين مطرقة السّلطة وسندان العقوبات الأمريكيّة، كلاهما ينشب أظفارَهُ في لحمنا بلا رحمة، وينشر الموتَ في كلّ مكان. خلال سنواتٍ قليلةٍ، صارت كلمة ولادةٍ نقمة، فبعض الحوامل يتوقّعنَ إنجابَ مشوّهين، وأُخرياتٌ ينتظرنَ ولادةَ أطفالٍ سيأكلهم الموت تباعًا، حتّى صارت كلمة «الموت» رحمة! وكنتُ أحمد الله أنّي أجهضْتُ، ثمّ صرتُ أرملة! وهكذا تحوّلت تلك الكلمة إلى كابوسٍ حقيقيّ يشبه كلمة «حياة»! مازلتُ أذكر ذلك اليوم في أوائل التسعينيّات، عندما جمعنا أبو محمّد إثر عودته من البصرة. ناداني وهو مُرتعبٌ، وقال لي: «انسَيْ ما فات، لا تستقيم الحياة إن أضعنا المعنى». وعجزتُ لحظتها عن فهمه، فبعد أشهرٍ من فراق ماجد، لم

يكن بوسعي أنْ أفكّ شفرة أيّ كلمةٍ، لكنّه طلبَ منّي إحضار البروفيسور عبد القادر وعارف، وهمسَ ساخرًا: «إن كانا ما يزالان على قيد الحياة!»».

يومهَا تمتمَ أبو محمّد، وحسبناه اختلى بنفسه مع العَرَق. قال بنبرةٍ لم نفهم أكانت على السرور أم على الحزن: «لقد صادفتُ في البصرة زيدًا بن رفاعة، فحدّثني عن احتراق جزءٍ كبيرٍ من مكتبته، ثمّ صمّم على أنْ أصحبهُ إليها، فوجدتُ قبالتها أثاثًا محترقًا، ورفوفًا متفحّمة، وكتبًا متناثرة قضمت النارُ بعض صفحاتها، ورأيتُ كراتينَ كتب أخرى أتت عليها النارُ فلم تُبقِ منها غيرَ رمادٍ سميكٍ. وحينَ دخلتُ الجزء المتبقّي من المكتبَةِ، وكانت به خزائنُ من الحديد، حمدتُ الله على سلامةِ ما فيه، إذ نجا الجزء الخاصّ بمخطوطاتٍ نادرةٍ يعودُ بعضها إلى القرن الرابع هجريًّا، أذكر بعض مخطوطاتِ ابن الهيثم في البصريّات، وأبي بكر الرازي وأبي نصر الفارابي، وابن جرير الطبري، ومؤانسات أبي حيّان التّوحيدي فضلًا عن مقابساته، وغيرها. ولا أدري كيفَ تجرّأت النارُ على تلك المكتبَةِ، وقد استبعد زيدٌ أنْ تكونَ فعلةَ عدوٍّ أو مُغرضٍ أو جاهلٍ، إذ كانَ

سوقُ الكتبِ يشكو سلَفًا من تآكل المباني، وتشابك أسلاك الكهرباءِ. وما جعلني أفرَحُ رغم الغمِّ أنّ زيدًا أخبرني بسلامة الصّندوقِ الخشبيِّ الذي كانَ يقبعُ في الطابق العلويّ من المكتبةِ، وبهِ مخطوطاتٌ قديمة لديانات تعود إلى أزمنةٍ سحيقة، ومنها كتبٌ للمانويّة، توشّيها زخرفة عجيبةٌ، ومخطوطاتٌ للحلّاج مكتوبةٌ على ورقٍ صينيّ، وبعض صفحاتها كُتِبَ بماء الذّهب وبُطِّن بالدّيباج والحرير وجُلّد بالأَدَم الجيّدِ. وقدْ أرانيها زيدٌ فكدتُ أشْرُد إلى ذلك العصر العجيبِ». ثمّ توقّف لحظاتٍ شاردَ الذّهن كأنّه سافر إلى ذلك العصر، وفجأةً التّمعت عيناه، فواصل كلامه بحماس: «أتعلمون ما وقَرَ في قلبي؟ لقد رأيتُ في الصّندوقِ حزمةً من ورقٍ سمرقنديّ مغلّفٍ بغلاف أبنوس، فعجبتُ لحسنها، ولمّا سألتُ زيْدًا عنها قال لي: «أهديكَ إيّاها»، فتلكّأتُ، إذ لا يُعقَلَ أنْ أقبلَ هديّةً ثمينةً قد لا أستطيعُ حفظها، فتحاشيْتُ قبولَهَا وما كنتُ أعلمُ ما فيهَا، وخشيتُ في داخلي أنْ تكونَ طلاسم! وحيّرني ممَّا رأيتُ رسالةٌ منْ رسائلِ إخوان الصّفا خطّت على جلد أفعى!».

في تلك اللحظة شخصَ أبو محمّد. ونظر إليه البروفيسور

عبد القادر بحُنوٍّ وقال: «أمّا زيدٌ فعرفناهُ، وما حدث لمكتبته فألُ سَيِّئٍ، ونحمد الله على نجاةِ المخطوطات، وأمّا دعوتك لنا بهذه العجلة فلم نفهم سببَها».

واصلَ أبو محمّد سردَ ما جرى له في البصرة. وهنا بدأنا ننتبه أكثَر. وشعرنا بأنّه سيذيعُنا سرًّا. فقال ملتقطًا أنفاسهُ: «حريق جزءٍ من المكتبة لم يكنْ سوى حدثٍ بسيطٍ ممّا رأيتُ، فبعدما سهرنا في مكتبته بساحة أمّ البروم، دعاني لقضاء الليلة في غرفةٍ بالطابق العلويّ من المكتبة مجهّزةٍ لاستقبالِ الضّيوفِ. ولم أتردّد في القبول، وقد أخذني الإعياءُ. حينَ دخلتُ واستعددتُ للنّوم، راحت الأفكار والهواجسُ تعبثُ بي، وكانت رائحة الحريقِ ما تزال تنتشر في هواءِ المبنى كلّه، فحاولتُ فتحَ النافذة لتخفَّ وطأتُها. ولكنّي عجزتُ، فخطر لي أن أتركَ البابَ مواربًا، فمن ذا الذي يُمكنهُ القُدومُ إلى هذا المكان في ذلكَ الليلِ الموحشِ، والبابُ السفليّ للطابق الأرضيّ مغلقٌ؟! بدا لي المكانُ مرتّبًا رغمَ ما يزخر به من كتبٍ وصورٍ قديمةٍ وأنتيكاتٍ من نحاسٍ وفضّةٍ لأباريق وفوانيسَ، وشمعداناتٍ عجيبةٍ، وزجاجيّاتٍ روسيّةٍ تعود إلى عقودٍ سابقةٍ، وأوانٍ

معدنيَّةٍ وتُحفٍ صغيرَةٍ بعضها من الرّخام وأخرى من البرونز، وعددٍ من لوحاتٍ لفنّانين عراقيّين، وقّع على إحداها اسم الفنّانة ليلى العطّار، وأخرى لحافظ الدروبي، وعلى الحائط ثُبِّتَ سجّادٌ فارسيٌّ صُوّرت عليه منمنمةٌ قد تعودُ لبهزاد. وسط هذه الأنتيكات شعرتُ بأنّني في متحفٍ صغيرٍ، وبأنّني لست وحيدًا، لكنّ هذا الشّعور أخافني وأسعدني في آنٍ واحدٍ، إذ تخيّلتُ نفسي في مكانٍ تسكنهُ أرواح كلّ منْ تفنّن في صنع هذه الأنتيكات!».

كنّا ننظر إليه كَمَنْ يستمعُ إلى حكايَةٍ من حكايات أهل الزمان القديم، أبو محمّد فاتنٌ حينَ يَتلبّسُ به أيُّ حدثٍ فينقلهُ بتشويقٍ رهيبٍ. يقول: «الحياة كلّها حكايةٌ، ومن أراد أنْ يحياها بعمقٍ فعليه أنْ ينجح في إبداع الحكاية!» كان يُحاولُ الإمساك بالتفاصيلِ فيحبسَ أنفاسهُ قليلًا، ثمّ يدقّق في عيوننا، قبل أن يستمرّ في الحكيِ. أمّا عارف فيطلبُ منه الإسراع في القول، فهو كعادته يرى الإطناب في الحديث مناقضًا لمتطلّبات الحداثَة. والحياة عنده كتلةٌ مختزلةٌ من أحداثٍ مترامية، والقصيدةُ ينبغي أنْ تكونَ موجزةً ومكثّفة، حتّى لا تُبتلى بالبلاغة التي يراها

ثرثرةً وسببًا في تخلّف العرب وانحطاطهم!

واصلَ أبو محمّد حديثه: «لم أعتد النّومَ في غرفةٍ شبه مفتوحَةٍ، لكنّ النّعاسَ غلبني، وبين فينةٍ وأخرى كنتُ أشعر بعينيَّ تنفتحان في حراسَةٍ مستمرّةٍ تحسُّبًا لأيّ طارئٍ. لا أعرفُ هل ما حدث لي وهمٌ أم يقظة! غير أنّي متأكّدٌ من أنّه حدث بينهما. لمحتُ رجلًا أَسْوَدَ يدْخلُ من البابِ، يلبسُ خرقةً، ساقاه رقيقتان وبطنه عظيم، وعلى جبهته ندوبٌ، وبيده كتابٌ ومجرفة. ظننتُ أنّه يوم الحشرِ، وأنّني بُعثتُ وحدي، قال لي بصوتٍ مبحوحٍ: «يا خازنَ الكتبِ، ابحث عن سفينتك، ولا تنسَ دَفنَ ما لديْكَ»، فارتعبت من قوله، إذ لستُ بحّارًا كيْ تكون لي سفينة، ولا أملكُ ما يستحقّ الدّفنَ من مالٍ أو ذهبٍ أو فضّة. ولمّا رآني مرتجفًا شاخصًا، سلّمني المجرفةَ وقال: «إنّك من أحفاد نوح، فاعتبرْ، ولا تكن مغترًّا بحالِ دنياكَ ولا تتوهّم أنّ الجبلَ منقذُكَ يومًا». فسألتهُ، وبيني وبينهُ مسافةٌ لا أعرف أَكَانتْ قصيرةً أم بعيدةً: «هل تعني أنّ الطوفانَ قادمٌ منْ جديد؟»، فضحك من قولي، وطأطأ رأسه قائلًا: «ومتى غابَ الطوفانُ عن دنياكمْ؟! للطوفانِ دورَةٌ،

ومتى طغى الظّلمُ وانتشرَ الجهلُ وضاقتْ الأرضُ بمن عليها زمجر منْ تحتها، وخرجَ منْ بطْنها حتّى تتنفّسَ». أخذتني الرّجفةُ، وصحتُ دونَ أنْ أتماسكَ: «وهل النهاية قريبةٌ؟»، فردَّ وهو يُلوّحُ بالكتّابِ: «ذلك ما حُفظَ في الأزلِ وقُيّدَ إلى الأبد»، فأصررتُ مرّةً أخرى على الفهمِ: «هل هو يومُ الحشرِ؟»، فنفى برأسه ذلكَ، ونظرَ إلى أعلى، وقال: «السّاعة منْ علمِ ربّي». ثمَّ سكتَ هُنيهةً، وسقفُ الغرفةِ يتلوّنُ بلونِ البرتقالِ، وقال: «لكلّ بدايةٍ نهاية، وبينهما بداياتٌ صغرى ونهاياتٌ صغرى، وأنت الآن في واحدةٍ منها، فعجّل بالسفينَةِ، ولا تنسَ أن تحفرَ المخبأ كي تدفنَ فيه ما أنتَ خازنهُ اليومَ، فإنّك لا تعلمُ ما الطوفانُ، ولاَ تقوى عليْهِ، واجمع منْ تثق به ممّن يكتمونَ السرّ، وتوكّل على الله». فقلتُ: «ومن تكون كي أصدّقك؟»، فردَّ: «أنا العبدُ التقيُّ الذي بُحتُ بالسرّ فأماتني اللهُ، وهكذا أحياني». فاستغربت قولهُ، وسألته: «ومتى متّ، ومتى بُعثْتَ قبلَ البعثِ؟»، فابتسمَ وقال: «متُّ في مسجدٍ من مساجد بغدادَ في اللّيلةِ الثّامنة والستّين بعد الأربعين». فحملقتُ بعينيَّ استغرابًا من كلامه، «وهل في الدنيا عامٌ تبلغ

أيّامه ما ذكرتَ؟!» فربّت على كتفي كأنّما حطّ عليّ جناحا طائرٍ، وقال: «أنا ابنُ الحكاية، أولدُ خارج زمانكم وأموت خارج زمانكم، ورغم ذلكَ أنا شاهدٌ على زمانكم». فازددتُ استغرابًا، وكدتُ أُسرعُ إلى النافذَةِ كي أكسرهَا هربًا منهُ ومنْ أحاجيه، لكنّ شيئًا بداخلي أوثقَ كلَّ أعضائي، فقلتُ لهُ: «لا أكادُ أفهمكَ، حدّثني كيفَ أبني السفينة؟» فقهقه حتّى احتبست أنفاسي، وصاحَ فيَّ: «وهل طلبتُ منْكَ قطع جذوع النخلِ كي تصنع سفينَةً من الخشب؟!»، فازددتُ حيرةً منْ أمرِه، وما عقلتُ أنّ السّفينةَ غيرُ ما أدركُ، وأعدتُ سؤاله: «وماذا تقصد بالسّفينة إذَن؟!»، فقال: «ما يطلبه العاقل ويعمى عنهُ الجاهلُ. ولم أعرف أَكَان يقصد العلم أم شيئًا من صلبهِ، لكنّي ضجرتُ من غموضه، وشككتُ في أمرِهِ، وقلتُ في نفسي: لعلّهُ من الجنّ. ولمّا أدركَ أنّي مكذّبه حَدَجني بنظرةِ عتابٍ، وعاود الاقترابَ منّي فلمحتُ شيئًا لم ألتقطهُ من قبلُ. كان كتّابًا روّعني، إذ شعرتُ أنّي أعرفهُ، ولعلّي نَسختهُ وجلّدتُه قبلَ سنين، لكنّي لم أستطعْ تذكّرَهُ. قد يكون مخطوطًا نادرًا لكتّابٍ من الكتب المقدّسَة، فقد هزّت

أوصالي رائحته كأنّما طُلِيَ حبرُهُ بالكافورِ، أو كتابَ أحد الأولياء الصّالحين، لعلّه لسيدي عبد القادر الجيلاني، وقد يكونُ «مغامرات سيّدنا» الذي فقدتهُ منذ سنواتٍ، وبكيتهُ بدموعٍ لم أذرفها على أبي! لم أعرف الكتّاب. وظلّ يتمتمُ بكلماتٍ لم أتبيَّنها، وفجأةً صعد إلى السّقفِ فَتوارى لون البرتقال وقصفت الرّعود والبروق على زجاجِ النافذةِ، وبدأ المطر يهطلُ، فذهلتُ ممّا يحدثُ ودبّ فيّ الجزعُ وقدماي تلويان على الهروبِ بيْنمَا جمّدني صوتُ الغريب وهو يلدغني منْ بعيدٍ: «هيهات أن تفهم، هيهات أن تفهم»».

يا جماعة! استيقظتُ، صبيحة اليوم التالي على غير عادتي، أحملُ رأسي بينَ يديَّ! وخشيتُ أنْ يكونَ ذلك الحلم علامةَ نَحسي، فتكدّرتُ ولم أستطع إخفاء الأمرِ عن زيد، فشققتُ لهُ عمّا في صدري حتّى أخذه الضّحكُ بينما كنتُ أرتعشُ، وقال لي: «تلك رؤيا، فلمَ الخوفُ!؟»، ثمَّ باحَ لي بأنّه باتَ في هذه الغرفة مرارًا ولم يحدث أن رأى شيئًا ولاَ حلمَ بشيءٍ، وما حدث لي هو اصطفاءٌ، وليسَ عليّ غير الإذعانِ للرّؤيا، والشّروع في دفنِ الكتبِ، وأخبرني

بأنّهُ سيفكّر في كتابٍ نفيسٍ يمدّني به كيْ أدفنه مع ما سأدفنُ! وذهلتُ حقًّا كيفَ تقبّل زيدٌ ما رويته ببساطَةٍ، بل إنّي لمحتُ في عينيْهِ ما يغبطني عليه!

حينَ عدتُ إلى بغداد ظللتُ أسابيعَ أقاومُ هولَ ما رأيتُ، وها إنّي أجمعكم، لأبوح لكم به، وأعرِضَ عليكم ما توصّلتُ إليهِ، فقد قَرُب اليوم الذي حدّثني عنه الأَسْودُ، وعلينا أن نستعدّ بما يلزمُ».

ارتبكَ عارف، ثمّ تنحنحَ، وبدت على مُحيّاه علامات الجدّيّة:

- حقًّا هذه رؤيا تحتاجُ إلى تفسير.

وقال البروفيسور عبد القادر: «لنبدأ بفهم دلالة البرتقاليّ، نفهم اللونَ أوّلًا ثمّ ننتهي إلى غيره»، ولكنّ أبا محمّد زمّ شفتيَه ثمَّ قال لي: «وأنتِ، هل ستبحثين في موسيقى الرعد والبرق والمطر؟!» ابتسمتُ بتعجّبٍ، فقد شردت أفكّر في ثنايا الحلم، وظلَّ أبو محمّد صامتًا لحظاتٍ، يُحدّق فينا الواحدَ تلو الآخر. ولم يقطع الصمتَ غير صوت عارف: «هذه الرؤيا كلّها رموزٌ، من هو الأَسْوَد، وماذا يقصد بالسّفينة، وماذا ستدفن؟ وقبل ذلك كلّه ما هو

الطوفان؟»».

قال أبو محمّد: «لقد جمعتكم بعد تفكيرٍ طويل، لا يكون الطوفان إلّا عدوًّا متربّصًا بنا، فإمّا أنّه يُهدّد الأعوان أو يهدّد البلدَ بأسره، وقد يكون من النّظام أو من الأمريكان، وكلاهما طوفان! إنّنا محاطونَ بالنّار، ولعلّ وقت بناء السفينة قد حانَ فعلًا! ولكنّنا مهما فعلنا سنغرق في بحر الهَيُولى!»».

زادنا كلام أبي محمّد اندهاشًا، وكأنّ الأَسْوَدَ عداه في الحلم وصارَ يتكلّمُ مثلهُ، فقلتُ: «قال الأَسْوَدُ إنّك من أحفاد نوح، ثمّ نفى أن تكون السّفينة من الخشب، وطلب منك دَفنَ ما لديْكَ، أحسبُ أنّ للسفينة صلةً بما عندك، ولكنّ ما أعلمه أنّنا لم نرث عن أبينا شيئًا غير هذه المكتبة وحرفة النّسخ والتّجليد». لم يتمالك أبو محمّد نفسه، فنهض من كرسيّه، وقال: «اقتربتِ ممّا انهتيتُ إليه، هل تعلمون أنّ نوحًا عليه السّلام دَفَن كتبَه قبل مجيء الطّوفان؟ وما دمنا أحفادَه، فالأَسْودُ يطالبني بدفن الكتب لأنّ الطوفان آتٍ ليغرقها!» حملق البروفيسور عبد القادر فينا مليًّا، وتفاعل مع أبي محمّد: «الأرجح أنّه

قصد ذلك، فلو دُفِنت الكتبُ قبلَ دخول المغول لما أُغرِقت وغُسِّلت في مياه دجلة، الكتبُ هي ما يجبُ دفنُه». وقفز عارف: «لكن أعتقد أنّه لا فائدة من دفن الكتب كلّها، ليس هناك ما يبرّر دَفنَ كلّ ما في شارع المتنبّي؟» وانسلّت منه ضحكاتٌ خافتةٌ محترسة. فقال أبو محمّد: «يا عارف، لن يبحث الأعداء إلّا عن الكتب التي تخيفهم، وتكون مصدرَ رعبهم، كان هولاكو يخشى من لسان الحشّاشين، ويقولُ سُمُّهم في لسانهم، لذلك أمرَ بحرق المكتبات التي سمَّمت ألسنتهم! الآن ليس أمامنا غير أن ندفن ما نعتقد فعلًا أنّه كتُبنا».

ظللنا فترةً قصيرةً نفكّر. تطلّع إلينا عارف من خلفِ نظّارتَيه: «لكنّنا لا نمتلك كلّ كتبنا، بعضها لدى كبار المثقّفين، وبعضها مخطوطٌ في المكتبات العامّة، وأخرى مرميّةٌ في بيت الحكمة، وغيرها منثورٌ في أركان الأرض، فكيفَ لنا بجمعها ودفنها؟ وأين سندفنها؟ هل أصبحنا اليوم محتاجين إلى ملجإٍ لدفن الكتب؟».

اتّسعت ابتسامة أبي محمّد، وقال: «نحن نمتلك أغلبَ

ما يفيدنا ويفيد الناس من بعدنَا، والبقيّة الباقية سنسعى إلى نسخها»، وغمزني بطَرْفة عينه.

قلتُ بهدوءٍ: «قد نحتاج إلى كتيبة من النسّاخين»، فردّ أبو محمّد: «نعم، سنحتاج إلى كتيبة، ولكن لنوزّعْ عمليّة نسخ الكتب المهمّة على فصولٍ متفرّقة، فلا يعرف النسّاخون من أيّ كتبٍ هي، وإثر ذلك يتعيّنُ علينا، وحدنا، تصفيفُها وتجليدُها».

قال عارف: «حقّا إنّك حكيمنا، لكنّك لم تقل لنا ما هيَ الكتب التي سندفنها؟».

ضحك أبو محمّد، وقال بهزءٍ: «لا تفكّر في دفنِ الشّعير! لن ندفنَ غيرَ كتبنا!».

سادَ بيننا التململ وهلةً، ثمّ قال البروفيسور عبد القادر بأسًى: «حديثنا عن الدّفن مُرٌّ، يُذكّرني بلوعَة أبي حيّان حينَ طالته العزلة والنّكد والفقرُ فصاح «شمسُ العمرِ على شفًا، وماءُ الحياةِ إلى نُضوب، ونجمُ العيشِ إلى أُفُول». تململَ أبو محمّد، ولمعتْ عيناهُ ثمّ قال: «سندفن الكتبَ في الباحة المجاورة للدكان، وقبل الحفر ينبغي أن نصنع صناديق خشبيّة، قد يستغرق منّا هذا العمل أشهرًا»، سألته: «كيف

نختار الكتب التي سندفنها؟»، فردَّ بوثوقٍ: «الكتّاب الذي يُدفَن يجب أن يستجيبَ لشرطٍ واحد، وهو أن يكون جزءًا من مشروع الاكتمال، كلّ كتّابٍ يُعادي العقل والحكمة ليس له مكانٌ في المدفن، لنجمع كتب الفلسفة التي لا غنًى عنها، ولنجمع الكتب التي أسّست للمذاهب والأديان والمعتقدات، فكلّها تسعى مجتمعةً إلى الاكتمال».

سكتَ عارف قليلًا، ثمَّ زفرَ باستيائه: «لا يعقل ألّا ندفن كتبَ الشعر، الإنسانيّة تحتاج إلى الشعر في كلّ زمانٍ حاجتها إلى الفلسفة وسائر الفنون». شعر أبو محمّد بأنَّ هوّةً قد تتّسع بينه وبين عارف فقال: «صدّقني انتهى عصر الأنبياء والشّعراء، الإنسانيّة تحتاج إلى شيءٍ آخر.. إلى السّفينة!».

نزلت علينا كلمة السّفينة من جديدٍ نزولَ الحيرة. أزاح البروفيسور عبد القادر كرسيّه قليلًا، وأومأ برأسه تُجاه الباب: «علينا أن نفكّر في السّفينة، إنّها تعني النّجاة، لكن هل المقصود نجاتنا نحن الأربعة فقط، أم نجاتنا مع غيرنا، أم ماذا بالتّحديد؟ إنّه لأمرٌ مُلغِزٌ حقًّا، فنحن قادرون على دفن الكتب، أمّا فَهمُ

معنى السّفينة، فصعب».

ازداد عارف إطراقًا: «المجاز يسيطر علينا منذ قرونٍ، وما السّفينة إلّا مجازٌ، متى نعيش دون مجازٍ، ونكتب دون مجازٍ، ونسمّي الأشياء بأسمائها؟ متى نبلغ الدّرجة الصفر من البلاغة؟!»، ألقى كلماته بحسرةٍ. لَطالما جاهر بمعارضته لإلقاء الشّعر، وكان يقول: «الشّعر يُقرأُ، الشّعر للتدبّر، وليس لاستمالة المشاعر». ومع ذلك لا ينفي شاعريّة بعض من يُلقون أشعارهم كالجواهري وحميد سعيد. ورغم شدّة حرصه على دفن كتب الشّعر، تخلّى عن إصراره بعدما قال: «بعد الطوفان سيولد شعراء، ويكتبون ما يريدون منْ شعرٍ، الشّعر منتهى الحقيقة، لا يخلو عالمٌ من الشّعر، لا تخلو حياةٌ من الشّعر».

اتّفقنا على أن يتولّى عارف حفرَ المدفن. حديقة البستان الخلفيّةُ هُجرتْ سنواتٍ، فتشابكت أغصانُ أشجارها، ونبتت فيها أعشابٌ صارتْ كالحيّات، كنّا نلقي فيها الخزائنَ القديمة التي نخَرَها سُوسٌ لعين، ولم نفكّر يومًا في تهيئتها، كان أبو محمّد يقول: «هذه الحديقة ليست إلّا الوجه البائس لكلّ الأفكار التي

نؤمن بها قبلَ أنْ تظهر للعالم!» أخذ عارف يختلي بالليل على امتداد أسابيع كيْ يحفرَ ما استطاعَ، وفي كلّ يومٍ يسرّ إليَّ بأنّه كلّما أخرج التراب من تحت الأرْضِ خافَ أن يطلعَ لهُ شبحٌ جبّارٌ يهزّهُ بعينيه المُشَعشِعَتين كالمسارج، ويقول لهُ: «لا أريدُ شيئًا بعينه وأريدُ كلّ شيءٍ!»».

بعد أسابيع الحفرِ، عدنا إلى جلسات آخر المساء، ولم يكن أحد منّا يتغيّبُ عنها مهما تكن الالتزامات والظروف. أبو محمّد يُداعبُ عودَهُ، وينثرُ علينا تغريدَ أوتاره، ولا يكفّ عن العزف إلّا حين يبدأ الأعوان في التقاطر. كنّا أربعةً لا نكاد نفترق، حتّى إنّ الأعوان أطلقوا علينا اسم «جماعة الأربعة». لم تكن الغرفة تسعُ كلَّ من يأتي، فبدا لنا أن نستخدم الباحة الخارجيّة، لكنّ أبا محمّد رفض هذا المقتَرح كي لا يتفطّن أحدٌ إلى وجود المدفن، وقد وضعنا عليه غطاءً قماشيّا إلى حينِ دفنِ الكتب وإغلاقه بالألواح الخشبيّة. لذلك ازدحمت الغرفة اليتيمة، وتداخلت الأنفاسُ، ولم يكن عددُ البنات حينها يفوق عددَ الشّباب. فمنذ سنواتٍ تُعقَد الجلسات باستحياءٍ وخشيةٍ، ولاسيّما بعد أنْ ازداد حصارنا مع الحصار.

كان أبو محمّد يتندّر قائلًا إنّها السنوات السبع العجاف وبعدها الطّوفان، كأنّه تنبّأ بما سيؤول إليه حال الجماعة من انفراطٍ بعد القبض عليه. كان على ثقةٍ بما يقولُ، يخوضُ تجربةً وجوده مثل لحنٍ يطويه الهواء، وحين يتحدّثُ، نسمع وجيب قلبه! الأفكار تنبتُ في العقل، لكنّ جذورها مغروسةٌ في القلب.

***

ربّما كانَ الأسلم أن ألزم الصّمتَ، لكنّي عنيدةٌ، ولا أستمع حتّى إلى وشوشات صوتي الدّاخلي. قلت للغريبِ: «إنّكَ مَعنيٌّ بما نحن فيه، ما دمتَ هنا!»، وأردتُ أنْ أُسْهِب في الكلام، لكنّ نظراته حبست لساني. حاولتُ أن أراوغهُ فأغيّرَ مجرى الحديث، وأمحوَ ما بَدر منّي، وأنصتَ إلى السّوط الداخليّ الذي قرّعني. هزّ الغريبُ رأسهُ مستنكرًا: «أنا معنيٌّ بشيءٍ واحدٍ، الخروج من هنا، والعودة من حيثُ جئت!» قلتُ لهُ: «تمهّل! لا شيء يأتي بالعجَلة، أنتَ مراقبٌ في هذا الشارع فما بالك بالتسكّع في شوارع بغداد وأحيائها». أشاح بوجههِ عن كلماتي، ومدَّ يدهُ في الهواء: «تساويتُ الآن مع حيوانات الزّريبة!». قلتُ

في نفسي إنّه لن يستطيعَ تجاوز الشّعور بالحجْرِ إلّا إذا عرفَ لوجوده معنًى آخرَ غير الهروب، وقد يجد في إطلاعه على أمرنا شفاءً. وأغرب ما شعرتُ بهِ على مرّ الأيّام أنّني صرتُ مهمومةً بهمّه أكثر منْ همّي، وكانت تلك دلائلَ تعلّقٍ لا أعْرِفُ لهُ سبباً واضحًا. كم تردّدتُ في إخباره بأيِّ شيءٍ، كنتُ أتفرّسُ طبْعَهُ وأفكارَهُ، فما نحن فيه لا يطّلعُ عليه إلّا الأعوان، لكنّي حدستُ أنّ البوْحَ معهُ غير مخيفٍ، فمن كانَ في مثل جمودهِ وصمتهِ لنْ يكونَ غيرَ تمثالٍ للكتمانْ!

مرّت أيّامٌ وأنا ألوكُ الكلمات، وأدخّنُ بتوتّرٍ، وهو في كلّ ذلك لا يحرّكُ لسانَه بشيءٍ، ولا تبدو منهُ سوى نظراتٍ هائمة. ربّما كانَ يُفكّرُ في أن يجاملني بتدخين سيجارَةٍ معي، لكنّه لم يطلب شيئًا، بل ظلّ يسأل عن البروفيسور عبد القادر: «متى يأتي؟ هل يُمكنُ لي أنْ أزوره في بيته؟». شعرتُ بأنّي سأغارُ من البروفيسور! ولكنْ لِمَ الغيْرة؟ هل بُعثتْ فيَّ رعشةُ العاطفة التي خمدتْ بعد أن تحوّلتُ إلى «زوجة الشّهيد»؟ لم أدرِ لحظتَها بأنَّ الوحدة التي كابدتُها، وحاولتُ طمرها بالكتب سنواتٍ، قد بدأت تنتأ كلّ كلّما تاهَ فكري في الغريب. رحْتُ أتخيَّلُ غموضَه

كامتداد النّهر وأرى نفسي قصبةً تتوهّم الثبات على أطرافهِ، كيف لي أنْ أعودَ إلى فتوّة القلب، وقد صرْتُ أشبه بقطعةٍ أثريّة؟ ربّما كان عزائي أنّه آثاريٌّ، وسيهتمُّ بي كما يهتمُّ بمسلّةٍ قديمة! ولكن لمَ أبحث عن اهتمامهِ بي؟ وهل أحتاج إلى اهتمامٍ من هذا النّوع؟ ألم أنذر حياتي بعد ماجد للبستان؟

في ذلك المساء الخريفيّ الكئيب، فاجأني برغبته في زيارة بيت عبد القادر، حاولتُ أنْ أخترعَ مبرّرًا يثنيه عن الذّهاب، لكنّ إلحاحه ازداد، ولاسيّما حين طال غياب البروفيسور. ولم يبق في البستان غيرنا، حتّى عارف غاب أيّامًا، فصرتُ أخمّنُ أنَّ وجود الغريب فرّقنا بدلًا من أنْ يجمعنا أكثر.

لو لم أكن واثقةً من البروفيسور عبد القادر وعارف لقلتُ إنّهما غادرَا دون رجعة، أو وجدا سرَّ السّفينة وغامرا بالنّجاة، لكنّي طردت كلّ الوساوس، وقلتُ إنّ العون لا يخون أخاه، ومع ذلك استسلمتُ لرغبة الغريب في الذهاب إلى بيت البروفيسور للسّؤال عنه.

كنتُ يوْمها متْعبَةً وخائفة، فأنا لا أجيدُ مراوغة العَسَس كيْ أخفي نفسي، فما بالك بإخفاء الغريب،

وإن كانت التقيّة من دين آبائي. ولم يكفّ الرّجل عن السخرية من ارتباكي بنظراته المتوحّشة، وهو يُحاولُ أن يهوّن عليّ أمرَ الوصول إلى البيت دونَ مشاكل أو عقبات، قال لي بدعابةٍ: «أتعلمين يا ثناء لماذا يبرع أهل المدن في إظهار الشّجاعة، ويخافون من دبّة النّمل؟ لأنّهم ببساطةٍ لم يتعوّدوا العيشَ مع الحيوانات، فأنتم لا تجيدون غير أكلِها. وحينَ تواجهون آدميّين حلّت بهم طباع الحيوانات، ولاسيّما المفترسة منها، تعجزون عن التعامل معهم.»، قلتُ في نفسي: «إنّه يهذي لا محالَة، وقد يكون هراؤه من أثر إقامته في أمتارٍ محدودة وقلّةِ تواصله مع الناس»، لكنّه واصل دونَ أن يأبه لتعجّبي: «أمضيتُ طفولتي مع الحيوانات، أنام في الزّريبة، وآكلُ بينها، وأستنشق هواءها، وأتفحّصُ سلوكها، وتعلّمتُ منها ما لم أتعلّمه في المدرسة. وحين كبرتُ أدركتُ معنى صلة الأنبياء بالحيوانات، لا يُمكنكِ أن تفهمي ما أقول، ولن تفهمي هذه الحياة كما يجب إنْ لم تدركي درسَ الزّريبة!».

لم يعُجبني حديثه. ولم أفهم ما إذا كان البحث في الآثار دافعًا لإصراره على البحث في أصل الطّباع

البشريّة، وأثر الحيوان في الإنسان، ومع ذلك لمستُ في حديثه شيئًا من الطّرافة، ولم أشغل بالي بمحاججته، فأنا أؤمن بأنّ ما يؤثّر في طباع البشر هي الكواكب لا الحيوان، وهو يقين الأعوان جميعًا، فالنّفوس تتبع أمزجة الأبدان في إظهار الأفعال والأخلاق والمعارفِ بحسب ما يستولي على الإنسان من تأثير أحد الكواكب في مزاجه، فيكون الأقوى في أصل تركيبه. هذا ما تعارفنا عليه من أجدادنا أهل الصّفا.

قد أفاجئه لو قلتُ له إنّ رائحتي التي دَلَفت إلى أنفه هي رائحة عرقٍ نبيل، وقد تصدِمُه ذكوريّته التي طفحت في نبرات حديثه عن المرأة حين قال لي: «تزوّجتها لأنّها تشبه النَّعجة المسالمة في زريبة البيت». ومع ذلكَ لم يكن يهمّني ردُّ فعلِهِ، كنتُ أسأل نفسي فحسب: كيف لي أنْ أعبرَ شارع المتنبّي في اتّجاه بيت البروفيسور عبد القادر رفقةَ الغريب والعيون تنهش زوجة الشّهيد؟ ليس خجلًا أو خوفًا من تهامس النّاس، بل هي الرغبة في الابتعاد عن الألسن التي لم يعد لها من صنيعٍ سوى جلد كلّ امرأةٍ تمرّ من الشارع بلا عباية.

كلّ ما فاجأه، ونحن ندخل باب البناية، هي تلك الشّقوق العميقة التي نخرت جدرانها حتّى بدت كأنّها آيلة للسّقوط. تملّى الدرابزين الحديديّ المتآكل، ورخامَ الدّرج الفاحم، والمكسورَ الأطراف، ثمّ قال لي: «هل أنت متأكّدةٌ أنّ البروفيسور عبد القادر يسكن هنا؟» تبادلنا النظرات، وبدا عليه شيءٌ من القلق. لعلّه خشي من سقوط البناية وهو بداخلها، أو ربّما رأى فيها مظهراً بسيطًا من مظاهر ويلات الحروب والحصار.

قلتُ لهُ: «كان عليك أنْ تكرع معي كأسًا!» فلم يأبه لكلامي، وصعد السّلم الواطئ ذي الدرجات الرخاميّة البيضاء المتّسخة، وكأنّه يعرفُ مكان الشقّة. ثمّ توقّف يجول بنظرهِ في أبواب شقق الطابق الأوّل، فسَبِقْتُهُ بخطواتٍ، وصعدتُ مسرعةً إلى الطابق الثاني، وطرقتُ باب بيت البروفيسور عبد القادر. ظلّ الغريبُ في مكانه يتفحّصُ الأبواب الخشبيّة ويتلمّسها. وظللت واقفةً برهةً حتّى فتح البروفيسور البابَ، وعلامات الدهشة والاستغراب تعلو محيّاه. لم أدخل بيتَه منذ سنواتٍ، فآخر زيارةٍ له كانت يومَ أتممتُ تجليدَ كتّاب كاندنسكي «الروحانيّ في

الفنّ»، وكانت النّسخة مبعثرة الصفحات، من أثر الاستخدام. يفضّل البروفيسور أنْ يتعامل مع الكتّاب كتعامله مع سائر الأشياء منْ حوله، كانَ يفكّ الأوراق بعضها من بعضٍ بحسب فصول الكتّاب، ثمّ يضع كلّ فصلٍ في مكانٍ ويقرؤه مستقلًّا عن الآخر، وكان يقول دائمًا: «الأفكار مثل النساء تمامًا، عشقُ إحداهنّ يستوجبُ تحييد الأخريات. لا يمكن أن نعشق امرأتَين في وقتٍ واحد!». مَن يسمعه آنذاك وهو يشبّه الكتب بالنساء، يحسبه زير نساءٍ حقًّا! قبل الحصار لم يكن بيته يخلو من الطالبات، والطلبة يسمّونه «المعبد»، حتّى الفنّانون كانوا يعتقدون أنّ البروفيسور عبد القادر لا يمتلك في باب النساء غير التنظير، مثل فنّه تمامًا. يقولون: تنظيره يفوق إبداعه، وكلامُه يفوق الإيحاء الذي ترمز إليه خطوط لوحاته وأشكالها.

حينَ جلسَ الغريبُ قبالتَه، حول تلك الطاولة الرثّة التي تذكّرني بطاولة فان غوخ، شعرتُ بأنّهما تواعدا على اللقاء منذ زمنٍ، ولم أكن غير بلهاء أقود الغريب إلى «المعبد» وفي ذهني أنّنا سنفاجئ البروفيسور عبد القادر إن وجدناه، بل شعرتُ حقًّا بأنّني غريبةٌ

عنهما، وثقيلةُ الحضور، وازددتُ يومَها حيرةً بشأن تلك العلاقة الغريبة بينهما.

قال البروفيسور عبد القادر بفرحٍ طفوليّ: «أخيرًا في بيتي، طه بلحمه وشحمه! أتدري أنّي لم أستقبل في بيتي أيَّ زائرٍ غريبٍ منذ سنواتٍ، بعد أن كنت أستضيف فنّانين وكتّابًا من كلّ دول العالم؟ الحصار قضى على كلّ شيءٍ، ولم يعد أحدٌ يفكّر في القدوم إلى هنا».

تنهّد طه عميقًا: «من يأتي إلى هنا يقع في المصيدة! ها قد أتيتُ ووقعتُ!» سكتَ وهو يلتفتُ إليّ، خلتُ للمرّة الثانية أنّني مجرّد دليلٍ في الصّحراء، قدتُ الغريب إلى بيت البروفيسور، وانتهى دوري، وعليّ المغادرة! اتّجهتُ نحو المطبخ متعلّلةً بإعداد الشّاي، ولم أعد أسمع شيئًا وأنا أتفحّص تلك الصّحون والكؤوس المبعثرة في كلّ مكانٍ، وأغراضُ الرّسم ملقاةٌ بينها. تيقّنتُ حينها أنّ حالةً من العبث استولت على البروفيسور، ففوضى المكان أمرٌ طارئ. وعندما عدتُ إليهما بصينيّة الشاي توقّفا عن الكلام دقائقَ، وجدتُ الغريب ممسكًا بحزمة أوراقٍ قديمة، أردتُ

استدراج البروفيسور للحديث فقلت: «حسبناك غادرتَ بغداد إلى البصرة، ولكن نحمد الله أنّك ما تزال بيننا». ردّ بثقةٍ: «مازلتُ هنا، أعتكفُ هذه الأيّام، الاعتكاف ضروريّ، علينا أنْ ننصت إلى ما بداخلنا حينَ يصبح العالم من حولنا غير قابلٍ للتفسير، وحينَ نعجزُ عن بلوغ ما لا يُرى فيه، أنتِ تعلمين أنّنا نحتاج دومًا إلى الصّفاء قبلَ الرحيل». وقعتْ عليَّ كلمة الرّحيل وقعًا ثقيلًا دون أن أعلّق، واستدرتُ إلى القماشة الموضوعة على الحامل القريب من الشّبّاك، وقلتُ: «عدتَ إلى رسم الدّوائر؟»، قال لي: «تلك ليست دائرةً، هي نقطةٌ صفراء اتّسعت من فرطِ ألمها!» كانت القماشةُ البيضاءُ تحتضن بقعةً صفراء فاقعة، أشبه بقرصٍ شمسيٍّ آيل للالتهاب!

رمقهُ طه مندهشًا: «تلكَ شمسُ قريتنا! الشمس عندنا تحتلّ السماء الصافية، تحنو على المَزارع وتربّت على أكتاف المُزارعين، حتّى البهائم تمشي مطمئنّةً تحت الشمس».

نفى البروفيسور بإيماءةٍ: «انسَ الشمس! ذاك نورٌ يبزغ من عمق البياض، عندمَا تنظر بشكلٍ مختلفٍ

إلى اللّون الأصفر وتنسى أنّ كلّ شيءٍ على اللّوحة انعكاسٌ لما في الواقع، لن تتغيّر نظرتك إلى الأشياء فحسب، بل إلى نفسك وإلى معنى حياتك أيضًا».

- «هذه الشّمس التي تتحدّث عنها لا تذكّرني بغير الإله آمون رع، كأنَّك تعود بنا إلى زمن الحضارات القديمة، أنت تؤكّد لي ما كان يقال عن الفنَّانين، واقعهم في وادٍ وَهُمْ في وادٍ آخر!».

- «وهل سألت نفسَك لماذا اهتمّ البابليّون والمصريّون والإغريق بالشّمس؟ حتّى العرب رأوا فيها الزوجة التي أنجبت الزهرة بعد زواجها من إله القمر، الشمس يا زول طه سرٌّ دفين، ورغم ذلك مَا قصدتُ الشّمس في ما تُبصران».

سكتَ الزُّول لحظةً، ثمّ ابتسم بمكرٍ: «ذكّرتني بصديقي هيرو، كان يقول: «إذا أردت رؤية الشّمس فعليك أن تصعد إلى قمّة جبل سمارة في اليمن وتطلق عينيك في السّماء، لا شمس إلّا في سبأ!»».

ضحكنا جميعًا، ثمّ قطع البروفيسور عبد القادر ضحكاتنا: «يومًا مّا سترون الأصفر يعمّ، وستذكرون عندئذٍ أنّ تلك النقطة ليست دائرةً ولا قرصًا، بل

بداية جحيم!».

في ذلك البيت عاشَ البروفيسور عبد القادر مع زوجته بتول، طالبتِه التي تصغره بأكثر من عشر سنواتٍ. كانت ترى فيه إلهها الصّغير، لكنّها لم تعش معه طويلًا، رحلتْ بعد أن أُصيبَتْ بسرطان الثدي، وبرحيلها سيطرت عليه الكآبة، فتحمّلَ كلّ شيءٍ، الوحدةَ القاسية، والراتبَ الضّعيف الذي لا يغطّي تكاليف الرّسم، لكنّه لم يتحمّل غيابَ وجه بتول. ومنذ رحيلها تحوّل البيت إلى زنزانةٍ، ولو لم يلتحق بالأعوان لمات كمدًا، غير أنّه ما فتئ يردّد: «أنا في سجنٍ، وأروع ما فيه أنّه يمنحني شراهة السّجين إلى الهروب».

كان في كآبته شيءٌ من كآبة الغريب، لا أعرف كيفَ يمكن أن يتحوّل قلب رجلٍ إلى قلعةٍ مُحصَّنةٍ لا يمكن اقتحامُها. قد يكون الغريب من هذا الصّنف، فهو رجلٌ خشنٌ بائسٌ لم يفقد امرأةً كيْ يغلق قلبَهُ. لكنْ، أظنّ أنّ ذلك القلبَ ظَلَّ مضخّةً لا غير، ولم يعرف يومًا وهجَ الحُبّ.

***

أعترف بأنّني تلصّصتُ عليه في خلواته، وأقضّ مضجعي مشهدُ حزمة الأوراق التي تسلّمها من البروفيسور عبد القادر، لم أكن أتلصّص بدافع الاستحواذ على شيءٍ، لكنّ تلك الحزمة زادتني رغبةً في فهم ما يحدث بين الرّجلين في مدّةٍ وجيزة، وإثر لقاءاتٍ خاطفة. تحوّلت الرغبة إلى هدفٍ، وحاولتُ مرارًا أن أكتشف ما في تلك الأوراق، حتّى إنّي سألت الغريب عنها مرّةً. يوْمَها لم أفتكّ منه غير سخرية طافحة: «هل تنوين تجليدها، يبدو أنّ أصابع الورّاق تربك صاحبَها كلّما تحسّس بأنفه رائحة الورق!» ربّما كانت خربشاتٍ فنّيّةً أو مقالات، ولكنْ لماذا لم يفصح عنها البروفيسور وتعمّد حجبها عنّي آنذاك؟

هل كنتُ أغار حقًّا من الغريب الذي بدأ يستولي على البروفيسور؟ وكيف للبروفيسور أن يثق بشخصٍ لم نتبيّن بعدُ حقيقة نواياه وسرّ غموضه؟ ألم يكن على البروفيسور أن يُعلمني بما سيفعل؟ وماذا لو كانت الأوراق تخصّ الجماعة؟ لا أنكر أنّ تلك الوساوس عادت بي إلى قول أبي محمّد: «الزّول أمانة»! تلك الوصيّة ألجمت وساوسي، لكنّي وجدتُ في لهفتي على كشف سرِّ الأوراق إحساسًا غريبًا يُخفي نبضًا

رقيقًا، يتّجه نحو الغريب نفسه.

وجدتُ نفسي وحيدَةً، أستعيد وجهَ ماجد وأتفحّص كآبَةُ اليتيم. لماذا أحنُّ إلى الماضي؟ وشوشات الطّلبة من حولنا في قسم الرّسم تعود من إشراقة السنوات الماضية إلى عتمة الحاضر، حتّى في أواخر أيّام الحرب العراقيّة الإيرانيّة كنّا ننعم بالطمأنينة. كنّا نشعر بأنّنا كتلةُ صبرٍ واحدة، نقرأ ما نريد ونتحاور في ما نريد. أمّا الآن فقد أكل الحصار طمأنينتنا في غداءٍ واحد، وتركنا جوعى ومفرّقين، لا نسمعُ غير أنين الأطفال في كلّ بيتٍ، بسبب الفاقة وسوء التغذية والحرمان. صرنا نلوذ ببيوتنا أكثر من بقائنا في الشّوارع حتّى لا نرى الوجوه الكالحة والنّدوب التي طالت الفتيان قبل الكهول.

ضاقت العراق في قلوبنا بعد امتدادها في الأفق. وصارت الوحدة قدرَ كلّ عراقيٍّ، وبعد أن كان الخلاص همًّا جماعيًّا، تحوّل إلى هدفٍ فرديٍّ، وكلّ واحدٍ منّا يخشى الجواسيس والعسس في وقتٍ واحد! ما أيسر إلقاء الاتّهامات، وما أسهل أن تتحرّك الأيادي العابثة إلى رقبة أيّ شخصٍ فتنهي أنفاسَه

وهو في الطريق إلى بيته. طبعًا، لا أحدَ يحقّ له أن يتكلّم، فمن أجل الوطن وصدّام يهون كلّ شيءٍ! كنتُ أحدّق إلى وجهي في المرآة، وكم كان مضحكًا أن أسخر من نفسي، وقد أدركتني شقوق زمنٍ قادم، ففسدت الفاكهة في شجرتها قبل أن تنضج!

وحدَه الغريبُ تفطّن إلى الشّقوق في وجهي، وربّما كان ذلك أمرًا منطقيًّا، فهو الوحيد الذي يراني وأراه كلَّ يومٍ. سألني: هل تلك الشّقوق وراثيّة؟ استغربت من جرأته، إذ لم يسبق لهُ أن عبّر عن ملاحظته لشيءٍ يَخصّني. ألهذا الحدّ صارَ وجهي مستفزًّا؟ وعندما لاحظ دهشتي، تذرّع بأنّه ينتبه تلقائيًّا إلى أيّ أثرٍ تقع عليه عيناه. وهكذا حوّلني بحجّته الآثمة إلى قطعةٍ أثريّةٍ مرّةً أخرى! ومع ذلك جعلني أبتسم، وصارت مشاعري مزيجًا من عَتْبي عليه ورغبتي في أن يزداد اهتمامًا بي حتّى لو كانت تلك الشّقوق هي الحبلَ الرّهيف الذي يجعله يتخطّى خجله وانقباضَه ليطرق بابي!

لم يخطر لي أنّ الغريب سيقتربُ منّي كموجةِ نهرٍ دافئةٍ بعد أيّامٍ من زيارة بيت البروفيسور. ازددت

ريبةً من حزمة الأوراق، وشككت أنّ فيها سرًّا يدفعُ المرء إلى الانعتاق من جموده. لعلّها طلاسمُ وقليلٌ من علم الجفر، وهل يستطيع الغريب أن يفهم شيئًا من ذلك العلم؟ انتباني مقدارٌ من النّشوة، حين تأكّدت أنّ الغريب بدأ يخرجُ عن صمته، مثل حلزونٍ يطلّ برأسه دونَ خوفٍ.

أصبحَ يطلُّ عليَّ بشكلٍ مستفزّ، ومن حينٍ إلى آخر يسحبُ الكرسيَّ ويجلسُ بين الكتب المترامية، يتحرَّكُ بينها ليرصّفها أو يتلقّف سطورًا من دفّة بعضها، يبتسم أحيانًا وينتابه الحزن أحيانًا أخرى، ولا يفوّتُ فُرصةَ استراقِ النّظر إليَّ كلّما غابَ المريدون عن البسطة. بدت عيناه عطوفتَين، فهل كان ينظر إليّ كما ينظر إلى غنمه في البلد؟ كانَ يشقّ ذلك الصّمت بدعابةٍ أو قراءة سطرٍ أعجبهُ، ثمّ يعود إلى الكرسيّ، قائلًا: «لَيتني جالسٌ الآن على الرّاكوبة، هذه الكراسي غير مريحة!».

سألته مرارًا عنْ سرّ تلك النّظرة، فقال لي دون تردّدٍ: «تذكّرينني بأيّام الثانويّة حينَ كنتُ بالمدرسة الداخليّة في مدينة كريمة. كنتُ أقضّي نهاية الأسبوع

في بيت خالي، وأستجمع جسارتي لأسترق النظر إلى بنتٍ هنديّة تقطن قبالة بيته. كانت أوّل بنت تستقرّ في مخيّلتي، وليس بيني وبينها شيءٌ، هي مجرّدُ طيفٍ فحسب. وحين أنظر إليك أتمالك نفسي عن الضّحك، كيفَ أراها فيكِ وأنتِ البغداديّة!».

لست متأكّدةً ممّا يتحدّث عنه. سمعته طويلًا يغمغم بحروفٍ لم أعقلها وهو ينظر إليَّ، خفتُ للمرّة الألف أنّه بدأ يحذق لغة الطلاسم، وصرتُ أكثر شراهةً إلى البحث في ما يقرأ بالغرفة التي أصبحت حكرًا عليه.

نقش

أما آن لك أنْ تتغيّر؟

أيّ سحرٍ عجيبٍ يسيطر على مرتادي المقاهي فيجعلهم شبه عبيدٍ لها؟ فكّرتُ أوّلَ الأمر في أنّ المقهى لا يحتضن غير العاطلين عن العمل إذ يتسمّرون على الكراسي فينسون أحيانًا مؤخّراتهم وهم في طريقهم إلى ديارهم. ثمّ قلت لعلّها ملاذ الطلّاب الذين لم يجدوا أنسهم وراحتهم في مكتبات الجامعة! ولكنّني حين سألت شول عن سرّ إفراط المصريّين في الإقبال على المقاهي فاجأني بقوله: «إنّ بلدًا دون مقهًى هو كتابٌ بلا كلمات!» عدتُ يومَها إلى التنقيب في تاريخ المقاهي، وفوجئت أكثرَ حين علمتُ أنّ المعارضين السياسيّين اتّخذوا منها ملجأً في عصر المماليك! ومن يومها أصبح ينتابني شعورٌ بأنّني مراقبٌ كلّما دخلتُ المقهى.

قبل سفري إلى السّودان بأيّامٍ صمّمتُ على لقاء هيرو مجدّدًا، والتقيته في مقهى البنّ البرازيليّ، قلت في نفسي عندها: «لا بدّ من وداع ذاك القبطان الساحر». كان المكان ضيّقًا، ولا صوتَ يعلو فوق

صوتِ مطحنة البنّ القديمة، ورائحة الكابتشينو تذيب أرنبةَ الأنف. يا إلهي كيفَ انتهى بي الحال إلى هذا المكان؟ كنتُ معاديًا للمقاهي وصرتُ أتولّه برائحة القهوة؟! لله درّك يا إسكندريّة! لا يبدّد استغرابي اللّذيذ غير ابتسامة العمّ محمود النّادل النّوبيّ، يجعلني أشعر بالزهو والخيلاء، وهو يلبس المريلة البيضاء و«البَابِيُّون». نوبيٌّ وأفتخر! كان يتحرّك في ضيق المكان برشاقةٍ وفنّ، وعينا الحاج صاحب المقهى الجالس حذو الباب وأمامَه ماكينة الحسابات، لا تفارقان حركتهُ، كمَن يراقبُ بندول ساعةٍ حائطيّةٍ ويتفرّسُ عقاربَها.

تأخّر هيرو قليلًا، ربّما وصلتُ قبل الموعد! ذعرتُ حقًّا حينَ انتابني ذلك الشعور بالزمن، ولم أكن من قبل أهتمّ بمن يتأخّر، فليس الزمن إلّا ماضيًا بعيدًا يزدادُ بُعدًا كلّ آن، أمّا الحاضر فما أهمّيّة أن نعيش دقائقَه أو ساعاتِه أو أيّامَه مادام سيتحوّل فجأةً وبقدرة قادرٍ إلى ماضٍ؟ بقيت أنتظر متلهّفًا هذه المرّة، سيأتي هيرو من القاهرة. كانت الوساوس تستبدُّ بي، ورأيتُ طيفَه وهو يعربد فيها مثل دونجوان نهمٍ! يسافر في الغالب حتّى يلتحق بالكاباريهات،

ففيها ما يُسيلُ لعابَ أيّ بحّارٍ مثلهُ، يا إلهي لم لا أُحسن الظنّ به؟! حمدًا لله، لقد أخطأت التقدير. اللّهم عفوك وغفرانك. لا أعرف كيف حصل ذلك، أَلأنّي بسيطٌ إلى درجة السّذاجة؟ أم لأنّي كنتُ أُسقط رغباتي على البحّار؟ قال لي هيرو حينَ التحق بي، وهو يبتسم ابتسامة العرّافين: «زيارتي إلى مصر تكسر جرّةَ أوهامك يا زول، هنَا نتزوّد بالمؤونة الكافية وهناكَ ينبغي أنْ نذهب لأخذ التّوجيه من صاحب التّوجيه». خفتُ لحظتها من هيرو، ومن نظراته الثاقبة، ألهذه الدرجة يمكنه أن يخترقني، هل إنّ سوادي الخفيفَ لا يستطيع أن يحجب عن عينيه عرائي؟

خفتُ أكثرَ أن تكونَ للأمرِ صلةٌ بالسياسة وبالإخوان المسلمين، وضحكتُ حتّى ظهرتْ أسناني، فكيفَ لهذا الرجل الذي اعتقدتُ أنّه زير نساءٍ أن يكون على صلةٍ بالـ«كيزان»! وسألته دونَ تردّدٍ ولساني يتلعثم: «ومن يكون صاحب التّوجيه؟»، أجابني بحسمٍ: «إنّه الفيتا، الفيتا الكبير، صاحب التّوجيه». ولم أفهم شيئًا ممّا قالهُ، ولا أعرف ما إذا كان يستخدمُ طلاسم تحتاجُ إلى فكٍّ وتفسير.

في تلك اللحظة بدوتُ عاجزًا عن الفهم، فبدا هيرُو أكثرَ حماسَةً لإخراجي من الوجوم والدهشة، حتّى إنه كرع قهوتَه دفعةً واحدةً ونادى النادلَ مرّةً أخرى ليَطلب قهوةً ثانية. وسارَع إلى القول: «السّفينة التي أقودها على ملك رجلٍ يهوديّ ندعوهُ الفيتا، وهو صاحب التوجيه، لا يُمكنُ أن أكون الكابتن إن عملتُ دون توجيهٍ، إنّه من كبار تجّار الإسكندريّة، لكنّهُ يفضّلُ الإقامة في القاهرة، وهو رجلٌ متعلّمٌ، معرفتُه بالبحر تشبه معرفتَه بأسرار الحياة والكتب والثقافات، إنّه يا زول غير أساتذة الجامعة الذين تعرفهم، يخبزون التاريخ في فرن الجامعة، هذا تاجرٌ يحرس التاريخ». صمتُّ قليلًا وأنا أقلّب كلماته المبهمة، ولا أدري ما علاقة التاجر بالتاريخ، وكيفَ يحرسُهُ، وما هذا الهراء؟

رفع هيرو وجهَه وأخذ يتفرّسني هازئًا: «في البداية، حسبت هذا الفيتا رجلًا كثير التديّن، فخشيتُ على نفسي من العمل معه، ثمّ قلتُ في قرارة نفسي «وما شأني به وبدينه؟»، لكنّ قلبي سرعان ما اطمأنّ له حين سمعتُه يُردّد جملته الخفيفةَ الساخرة

«الناس دينهم فلوس، لو كان الدين فلوسًا لدخلوا كلّهم الجنّة!» وبدأ تخوّفي يغرق في البحر كلّما قدتُ السفينة، ونظرتُ إلى المقود الذي تترفّق به أصابعي وقد حُفِر عليه اسمها اليهودي «مدموم» نسبةً إلى تاجرٍ يهوديٍّ مشهورٍ كانَ يُدير الملاحة من عدن إلى بلاد الهند. ومع ذلكَ فإنّ في السّفينة بَرَكَة، وصاحب التّوجيه رجلٌ مُبارك!»».

كدتُ أفقد السّؤال الذي رابط في ذهني وأنا أستمع إلى قصد اليهوديّ صاحب التوجيه. وفجأةً قفز السّؤال إلى لساني: «طيّب، وما علاقة كلّ هذا بحراسة التاريخ؟» كانَت كلمة «تاريخ» مثلَ ظلّي! وكرّرتُ سؤالي، فأمعن هيرو في الضّحك، وهذا ما جعلني مدهوشًا وعاجزًا عن تلقّف إجابته. لقد ألحّ عليّ من جديدٍ في السّفر معه إلى عدن. لم أكن صبورًا لحظتها، أردتُ معرفة كلّ شيءٍ عن هذا اليهوديّ القابع في القاهرة، فيما سفينتُه تعربد من البحر الأحمر إلى بحر العرب والمحيط الهنديّ. وفي لحظة بوحٍ اختلط فيها الزهو والانقباض اكتفى هيرو بالقول: «قبلَ أنْ تسأل فكِّر في عدن جنّةِ الله التي تكتنز بالعقيق والزمرّد والذّهب وكلّ حجرٍ كريم،

اذهب إلى قراءة العهد القديم لعلّك تفهم!» أخذ يمسح بأصابعه اليمنى الفصّ الأحمر المتلألئ في خاتمه الفضّيّ، وتراخت عيناه كأنّه غفا قليلًا أو استقرّ في برهةٍ زمنيّةٍ بعيدة.

مضى هيرُو. تركني في حيرَةٍ بسبب حديثه الخافت عن حاجته إليّ: «أحتاج إليك لمساعدتي في عملي هناك، كنْ واثقًا أنّنا لا ننسى فضلَ من يساعدنا!»، سألتُهُ باندهاشٍ حتّى فاحت من كلماتي رائحة الخوف «كيفَ أساعدك؟ ومنْ أنتم؟»، غمزني بينما داعب عينَيه شعاعُ شمسٍ: «نحتاج إليك في الشّبكة! ضع هذا الكلام في أعمق أعماقك». ثمَّ صمتَ. هل كانَ يختبرُ ردَّ فعلي؟ عن أيّ شبكةٍ تحدّثَ؟ هل هو مهرّب آثار، ويطلب منّي مساعدتَه في أعمال التهريب؟

هل تعلمين يا ثناء؟ شيئان قاداني إلى رائحة الكتب: هيرو والإسكندريّة، وقد اعتقدتُ سنواتٍ أنّ الحجر أَوْلى بالفحص، وأنّ ما يُكتب ليس سوى شيءٍ قليلٍ ممّا يمكن معرفته من الحجر! قد تكون سنواتي بالإسكندريّة أهمَّ ما عشته في صلتي بالحجارة، لكنّ تلك الأيّام الأخيرة فيها قلبت كياني، هذا ما أدركه

الآن! أخطّ هذه الأسطر بين الكتب وتحت قصف رائحتها في هذه الغرفة الشّبيهة بالكهف، وأنا أشعر بأنّي محاطٌ بأجيالٍ من البشر، ومحاطٌ بالإنس والجان في وقتٍ واحدٍ! هي الكتب شاهدةٌ عليَّ، تُلقي برأسها في ما أخطُّ، تراقبني دونَ أن تشيَ بي إلى أحد، تحثّني على الكتابة، وربّما تتعامل معي على أنّي حجرٌ قديمٌ يحتاجُ إلى استنطاقٍ قبلَ أن أوضع في متحف الماضي.

في طريق العودة من المقهى قرّرتُ التوجّهَ إلى شارع النبيّ دانيال، خطر لي أنْ ألقى شول، قد يساعدني في اقتفاء أثر بعض الكتب التي تعينني في تقصّي حكايات اليهود وصلتهم بالبحر واليمن. لكنّني عدلتُ عنْ ذلك، إذ تذكّرت فجأةً أيمن الشناوي صديقي الغامض والوَلُوع بما تحت القبور من حكايات. خمّنتُ أنّي إذا أردت الحفرَ في تلك الحكايات فعليّ الاستعانة به، فكم دعوتهُ بـ«نبّاش القبور». من يومها وأنا أترصّد الكتب، رغم أنّي أُبدي عكس ذلك كلّما تعرّضتُ إلى نِقاشٍ عن الكتب القديمة، كتب الماضي المليئة بالزيادة والنقصان! تعلّمتُ أن أُظهرَ ما لا أُضمر في أحيانٍ

كثيرةٍ. فَمَن سَترَ نفسَه أَمِنَ شرَّ غيره. وأنا مثل الحجارة الصّلبة، لا تكشفُ خباياها إلّا لنحّاتٍ يحذق الصّقلَ والتّكوين.

كيفَ أبرّر لـ«نبّاش القبور» اهتمامي بحكاياتٍ قديمةٍ عن اليهود وهو الذي تاهَ في آخر بحثه عن أسرار مقام النبيّ دانيال، وظلَّ يهذي في مدرّج الجامعة بالخاتم الضّائع، وبخرافات الأسدَين اللّذين حرسَا النبيّ دانيال من الشّرور. ذلك هو الشناوي الذي لا تعرفين من الضّائعين في أمعاء بغداد، مازال ينبشُ القبور، ولا يتوقّفُ عنْ اقتفاء الفرضيّات الّتي في رأسه بعنادٍ لا يلين. في ذلك اليوم وجدته قابعًا كعادته في مكتبة عمّ عوّاد، غارقًا في قراءة مجلّدٍ ضخم. تمتم حين رآني، ولا أدري هل شتمني لأنّي قطعتُ عنه حبل قراءته أم لهج بتعويذةٍ من تعويذاته! كانت أصابعه ترتعش، وهو يتأمّل قسمات وجهي: «ما الّذي أتى بك؟ ألم تُسافر؟!» أعلمته بأنّي أجّلتُ السّفرَ أيّامًا، فطلب منّي أن أجلس بجانبه وعيناه لا تكادان تفارقان الصفحة التي توقّف عند قراءتها، وشفتاه تقضمان سخرية مُرّةً. قال لي: «هذا كتابٌ عن الوحوش!»» وأخذ يقهقه، لكنّ رعبًا بدا

طافحًا من عينيه: «يا زول! لا تذهب بعيدًا، أقصد الوحوش التي في داخلنا وداخل تاريخنا. الإنسان يا زول، مثلما قال هوبز اللّعين، ذئبٌ للإنسان!» بدأ الدّم ينفر من وجهه، وتغضّنَ حتّى خشيتُ من تفجّر عروقه. ولمّا اقتعدت كرسيًّا إلى جانبه، أخذ يُحدّثني عن كتاب النويري «نهاية الأرب»، وعن حصار عبد الله السّفّاح لدمشق أربعين يومًا وقتله لبني أميّة ونبش قبورهم، حدّثني كيف ضرَب جثّة هشام بن عبد الملك بالسّياط، وأمر بصلبها ثمّ حرقها. إنّه تاريخٌ من الشّريا ثناء! أخذتُ نفسًا عميقًا لأتملّى وجه الشناوي، وسكتُّ قليلًا، ثمَّ قلتُ لهُ: «تاريخ الأمم كلّه لا يخلو من توحّشٍ، الإنسان يا نبّاش لا ينبش القبورَ فحسب، بلْ يأكل حتّى الأحياء!»، تململ كأنّه يريدُ مغادرة المكان، لكنّي حوّلتُ وجهة الحديث إلى ما أريد. حَسِبني جئتُ لأمرٍ جَلَلٍ، فهو يعرف أنّني من مريدي الشّارع. قلتُ لهُ بصوتٍ خافتٍ: «هل تعرف شيئًا عن كنيس عزرا؟» فبقي ساكتًا لحظاتٍ، ثمّ قال باستخفافٍ: «أخيرًا صرتَ مهتمًّا باليهود؟!» قلتُ له مستنفرًا: «القصّة لا تتعلّق باليهود تحديدًا، ولكن هل لك حقًّا معرفةٌ بهذا الأمر؟».

سألته وأنا على شبه يقينٍ من اطّلاعه على ذلك، فكثيرًا ما حدّثني دون أن أكترث، عن تاريخ اليهود في الإسكندريّة، وعنْ رغبته في معرفة أسرار المعبد اليهوديّ «الياهو هانبي»، لكنّ رغبته ظلّت معلّقةً ومنكسرة، كان يقول: «سيسقط المعبد ويبتلعُ الغبار عشرات الأسفار اليهوديّة!».

وضع الشّناوي الكتّاب تحت إبطه بعد أن دفع قروشًا قليلةً، وسلكنا الطريق في اتّجاه المنشيّة. «إذَن، تريد أن تعرفَ حكاية كنيس عزرا؟ لكنّ البحث فيها سيجرّك إلى الذّهاب هناك لا محالة، اسمع يا زول المعرفة لا تكتفي بالحكايات، المعرفة حياة، لا بدّ أن ترى بعينيك، وتحسّ بجوارحك، وتلمس بيديك، أنت على حقّ لمّا فضّلت الحجر على الكتب، كلّنا نقرأ ونبحث في الكتب وبعدها نهرول في اتّجاه الحجر!» أمام كلماته كاد صوتي يخرس، واختلطت عليّ الأفكار، فأسرعتُ أقول: «لا يهمّ الآن أيّهما أفضل، الكتّاب أم الحجر، الحكاية أم الأثر! المهمّ، أتعرف أم لا؟» قال لي: «لم يعد أمامك متّسعٌ من الوقت، دع الحكاية حتّى تعود إلى السّودان، هذا بالطبع إنْ عدتَ، فأنت مُقدمٌ على حكايات تُشيب

الرأس».

هززتُ رأسي دون أن أنطق بكلمةٍ، من المؤكّد أنّ الشناوي راح يتساءل عمّا إذا كنت جادًّا في استفساري. ماذا قال عنّي في نفسه، الزّول بدأ يتغيّر؟

مشينا صامتَين بينما العالم من حولنا منشغلٌ، انقلاب عمر البشير في السّودان، وأنباءٌ عن اعتقال حسن الترابي وقياداتٍ سياسيّة. الشّارع المزدحم بالرّجال والنساء لا يبالي بذلك، الناس يبحثون عن رزقهم، ولا يهمّهم إن وقعت السماء على الساسة، وأنا أفكّر في العودة وفي التقاط حقيبتي قبل أنْ يخيّم شبح إغلاق الحدود أو قطع العلاقات، فكلّ شيءٍ جائزٌ في هذه الدّنيا كلّ مَن يمشي على الأرض هو مشروعُ فوضى وجنون، أمّا ما كانَ ثابتًا كالحجر فهو في مأمنٍ من ذلك.

أحسستُ بأنّها الخطواتُ الأخيرة قبل الرّحيل، وشعرتُ بالعَبرة تخنقني في غمرة الصّمت الذي سيّجني مع أيمن الشنّاوي، لعلّه هو أيضًا يحمل المشاعر نفسها، ولو انسكبت دمعةٌ على الخدّ لكانَ أرحم من الغصّة التي عطّلت اللّغة وكادت تغتال

الأنفاس. خشيتُ الرّحيلَ دون عودة! أنتِ لا تعرفين معنى الرّحيل. إنّ أقوى البشر يفقدون توازنهم لحظةَ يفكّرون بأنّ استقرارهم في مهبّ الريح، وأنّ أقدامهم ملزمةٌ بالتحرّك صوبَ وجهةٍ أخرى حتّى لو كانت وطنهم الأصليّ! مع ذلك كان عليَّ أنْ أودّع أيمن، وهو يربّت على كتفي قائلًا: «أين همتَ يا زول؟ بدأتَ من الآن تغرق في مزاج السّفر، لا عليك، الحياة كلّها سفر، حتّى ونحن في مكاننا، نسافرُ إلى حياةٍ نتمنّاها أو نغيبُ في ماضٍ سحيق!».

تلاشت كلماته في الهواء دون أن تفارق ذاكرتي.

لم أشكّ في أنّي سألقاه بعْدها، حتّى إن كان مسافرًا في تلك الحياة التي يتمنّاها أو غائبًا في قبور المنسيّين. وبالفعل، التقينا مرّاتٍ وكانَ سعْدي بيْنَنا، لكنّ الشّعور بوداعٍ مؤقّتٍ أشبه بموتٍ متقطّع!

«الإسكندريّة لا تخونُ أحدًا»، كانت تلك جملةً غريبةً ردّدها شول ولم أفهمها إلّا عندما اقترب موعد الوداع! ظللتُ أتردّد على حيّ العطّارين القريب من محطّة الرّمل، أستجمع طاقتي لأشتمّ رائحة النّوبيّين الّذين مرّوا من هنا، واستقرّ أحفادهم فيه،

حتّى أضحوا مصريّين تمامًا. لا أحدَ منهم يذكر أسوان إلّا في حكايات الجدّات، وقلّما ينبس أحدهم بكلمة نُوبيَّةٍ، لكنّ الوجوه جمدت فيها تعبيرات الجدود، السّحنة نفسها والقامة نفسها وكذا بقايا الأكلات الشهيرة تُطلّ رائحتها من شبابيك البيوت. كم كنتُ أشتهي «الكابد»، ذلك «العِيش» النّوبيّ الذي يكبرُ حجمه لاتّساع قلب النوبيّ الطيّب. كيفَ لي أن أغادر الإسكندريّة! تبًّا لهذه الحياة التي تجعلنا سجناء محطّاتٍ وجرحى تحوّلاتٍ وضحايا انقلاباتٍ حتّى إن لم نشارك فيها!

«أينَ أنت يا شول!».

ما نسيتك حقًّا، لعلّك ما تزالُ هائمًا في كلمات كفافيس التي سحرتَني بها:

«ودّع الإسكندريّة التي تَرحل

وحَاذِر

أن تخدع نفْسك

ولا تقلْ أبدًا:

لقَد كَان الأمر كلّه حلمًا».

في تلك الآونة فضّل أغلبُ السّودانيّين العودةَ، لأنّ الجامعات السودانيّة فتحت أبوابها للطلبة العائدين، كنّا نخشى من توتّر الأوضاع رغم أنّ المصريّين رحّبوا في البداية بالانقلاب. في منتصف يوليو، لم يعد هناك متّسعٌ للتفكير أو لتأخير الرّحيل، قرّرتُ قطع التّذكرة على عجلٍ للسفر جوًّا، بينما قرّر أغلب الطلبة السّفر برًّا. لم أكن أحبّ طول تلك الرحلة البرّيّة وعناءها، ركوب القطار الإسبانيّ من الإسكندريّة إلى أسوان بعد أن يتوقّف في طنطا ثمّ القاهرة، ومن أسوان بالأوتوبيس إلى وادي الحلفا، ومنها إلى الخرطوم، كلّ هذه المحطّات على مدى يومين من العذاب مع احتمال قضاء ليلةٍ في بيت شباب أسوان، كانت تمثّل لي نوعًا من الرّحيل المتقطّع. لا يُمكن أن يواجه الإنسانُ رحيلًا يشتّت أوصالَه وفكرَه وأحاسيسَه، فهذا النوع من الرحيل يحوّلكِ إلى كائنٍ مريض، تتجرّعين الدّواء جرعةً جرعة، وفي الآن نفسه تستحضرين الألم أكثر من مرّةٍ واحدة. ولم أكن أميلُ إلى السّفر عبر البحر، فالبحر لا يؤمن جانبهُ! وكذا البواخر، ما تزال صور احتراق باخرة «العاشر من رمضان» قربَ أبو سمبل عالقةً في

ذاكرتي. لا أريدُ أن أموتَ غريقًا، كلّ واحدٍ منّا يبحث عن موتٍ أفضل من الغرق. منذ طفولتي وأنا أرى الموت على هيئة تمساحٍ، فلا أستطيع أن أنسى كيف الْتَهَم التّمساحُ صديقَ صباي حين فاض النيلُ على المَزارِع، وكان على حافّته يستلذّ بمشهد ارتفاع منسوبه دون أن يفكّر لحظةً في خروج ذلك التّمساح من النّهر، حتّى أكله مثلما يلتهم وجبتَه، وعادَ يسبحُ ببطءٍ. كانت التماسيح تسبح في النيل بحرّيّةٍ، وتستريح بعد أنْ تزحفَ بقوائمها وتتهادى بحراشفها، على حافة النّهر. بعد تلك الحادثة غيّرتُ جلدي وصرتُ أخاف الاقتراب من النيل!

لم أنم طوال تلك اللّيلة الأخيرة في وداع الإسكندريّة، ارتجفتُ وأنا أفكّر في السّودان بعد الانقلاب، كانت الوساوسُ منْ سيطرة الإسلاميّين على الحكم تُفزعني. أنا مؤمنٌ مثل غيري من المؤمنين، لكنّي أخاف ممّن يتحدّثون في كلّ مكانٍ باسم الدين، إذا ذهبت إلى الحمّام يقولون لك ادخل بالرجل اليمنى، وإذا جامعتَ زوجتك يحذّرونك من نسيان البسملة، ويبشّرونك بولدٍ أعور. لا علاقة لي بالسياسة، ومع ذلك أعتزّ بكلمات سعد زغلول:

«الدّين لله، والوطن للجميع».

يضيق نفَسي حينَ أذكرُ ما حدث باسم الدين. كنتُ أفضّلُ ما عليه أهلُ البلد من تديّنٍ شعبيٍّ على تلك المظاهر التي هيمنت بالقوّة في كلّ مكان. قلتُ مرارًا في دخيلتي: زيارة الجدّ المدفون بجوار النيل وسط المزارع، شيخنا ود إبراهيم الابكراوي، شيخ الأراك، أفضلُ منْ اتّباع الكيزان. لا أنسى كيفَ كنّا نمشي أكثر من عشرين ميلًا على متن الباص، وكلّ واحدٍ منّا يلوك أمنيته بين شفتيه، كي يُلقيها في الضّريح. وعند الوصول تلتقي الباصات المكتظّة بما فيها، أُسرٌ من كلّ مكانٍ بالبلد، جماعاتٌ تتّجه صوبَ الضّريح بين النّخيل، وآخرون يتّجهون نحو بيوت أحفادهم محمّلين بما لذّ وطاب، وبَعضهم يجرّ شاةً لذبحها قربانَ تبرّكٍ. كانت البيوت الطينيّة الجرداء من كلّ شيءٍ، لا أبواب، ولا شبابيك خشبيّة، ولا صور على الحيطان ولا كتابات، تستقبلُ الزوّارَ المتعطّشين إلى بركات الشيخ ود إبراهيم سليل الطريقة الختميّة. أمام الضريح المغطّى بالقماش الأخضر، يقف الناس في طابور، ثمّ يلتفّون حوله، فتتبخّر الجمل الواضحة في تقطّع الدّعوات وتنسابُ الآمال مع رائحة البخور.

الجميع يُعلّقون عيونَهم على خضرة الضّريح، ويَشردُون في نشوةِ الوهم بتحقيق الرغبات والأحلام، وبعض الزوّار يأخذون حفنةً من التراب، يستخرجونها من تحت الضّريح بشعور المنتصر الذي غَمَّس أصابعهُ في البركة، أمّا بعضهم الآخر فلا يتركون المكانَ إلّا بعد أن يلتقطوا فرصة التمدّد على أقرب عنقريب(2) لطلب البركة.

كنتُ أستظلُّ منْ لظى الشّمس الحارقة بسَعَف الجريد، وأنعمُ بالتقاط التمر المتساقط على الأرضِ، مثلي مثل عشرات الأطفال الذينَ قادتهم أحلامُ آبائهم إلى أجواء التّسليم بكرامات الأولياء والصّالحين. بعض الشباب يتناولون جريد النخيل فيعقدونه، ظنًّا منهم أنّه طريقهم إلى الزّواج، وهكذا يعقدون النيّة في الاقتران بفتاة تُخاتلُ أحلامهم، أنا أيضًا عقدتُ الجريدَ حين كنتُ مراهقًا وعقدتُ النيَّة في الزواج، ورأيتُ في تلك اللحظات «أماني» بنتَ الجيرانِ المزركشة الثياب، والعذبة الصّوتِ تتّجهُ نحوي كملاكٍ تميلُ سحنته إلى السّواد، وأنا أفتح ذراعيَّ لأشبك يديَّ بيديها، لكنّي ما شبكتُ غير السّراب، واكتشفتُ أنَّ الكثير من هذا أوهامٌ

وضمّاداتٌ للصَّبر من عذاب الحياة.

كَمْ حمدتُ الله لاحقًا لتبخّر تلك الأمنية، فلو تزوّجتُ أماني لما احتملتُ الحياة، النساءُ الشّايقيّات شديدات البأسِ، محنّكاتٍ، محارباتٍ في الحياة، ولهنَّ على أفئدة الرّجال سلطانٌ رهيبٌ، وكنتُ طريًّا كصلصال!

صادفتها أمام بيتنا بعد عودتي بأيّامٍ، قالتْ لي بحدّةٍ:

- أخيرًا عُدتَ!

- ليسَ لنا منْ مصيرٍ غير العودة إلى الأهل.

- تريد الوظيفة أم المزرعة؟

- لم أدرس كلّ هذه السنوات لينتهي بي الأمر إلى «الطوريّة»..

- وما قيمة الشهادة وأنت من غير جنيهات؟

- الحياة ليست فلوسًا...

- هل تسمّي راتب الحكومة جنيهات...! ستضيّع بقيّة عمرك في جبل البركل؟!

- «لماذا تقولين ذلك؟»، سألتُ بتلعثمٍ.

- من غير «الطُّورية» لن تكون ملكًا نوبيًّا، ستكون جنديًّا تائهًا في حربٍ أكبر منك...

كانت المرّة الأولى التي أنتبه فيها إلى غياب لباسها المزركش، رأيت ثوبها متّشحًا بالسّواد! هل انقلبت هي أيضًا؟! ومع ذلك لا أنكر أنّ رغبَةً ماكرةً احتلّتْ عينيّ فقادتني إلى اللّحاق بها، أراقبُ تثنّيَ قوامهَا، مشيتها الحافية على التراب الرّطب، انفلاتها بين النخيل كتدفّق ماء. كانت تشعرُ بنظراتي، وبظلّي يبلغُ السّماء، فتوقّفتْ فجأةً، حوّلتْ نظرتها صوبي، وقالتْ: «انت مندلي؟». أجبت: «كلّا!». لا يُمكن أن يكون إلغاء سنوات الدراسة وتمزيق الشهادةِ عربونَ الاقتراب منها أو حتّى الزّواج. كانَ بإمكاني أنْ أقبلَ بها زوجةً دون هذا الهراء، ولكنّها عنيدةٌ وقاسية، ولا تقبلُ برجلٍ لا يشاركها الزراعةَ التي أمضت سنواتٍ من عمرها فيها. قالت لي بألمٍ طافحٍ: «بين الأرْض الحيّة والحجر الميّت، عليك أنْ تختار». تسمّرتُ في مكاني، تبدّدت في قاع الأرْضِ تلك القُبلة التي حلمت آلاف المرّات برسمها على جبينها

فحسب.

وضعت أماني الطوريّة جانبًا، كانت عيناها شبهَ بنّيتَينِ كحبّتَي تمرٍ.

«هل تظنّ أنّي سأنتظر إجابتك طويلًا؟».

طالها العبوس، وأنا مسمّرٌ في مكاني ولا سبيل إلى صوتي! عجزتُ حتّى عن مواجهتها. تنهّدتْ. يُمكنها التّنبّؤ بردّ فعلي. لم يكن بيني وبينها حُبٌّ. هو مجرّد ميلٍ مشترك. الحبّ عاصفةٌ ترابيّةٌ لم أعرفها مع أماني. الغالب أنّه ميلٌ ممزوجٌ برغبة، والرغبة قد تكون نواة الجنس! لا أعرف! كيفَ أفرّق بين هذا الثالوث؟ في ذلك الوقت ما استطعتُ التمييز. كنتُ ما أزالُ طريًّا.

لم تُكمل أماني دراستَها الثانويّة، وكنّا نناديها «أمانجي». كانت مستعجلةً دائمًا، تحملُ الطّوريّة بعنجهيّة. لماذا كلّمتني بتلك اللّهجة؟ ألم تَعُدْ تهتمّ بوجودي؟ مضتْ تمايلُ مشاكسَةً، تدكّ التراب بقدمَيها، وتقطعُ دربَ الجمل، برغبةِ من سيقتلعُ نخلةً ميّتة، بينما كنتُ ألمحُ طيفَ أمّي وهي تتسلّل من فتحة البابِ تنفث نظراتها الشّرسة إلى ظلّ أماني.لم

تكن أمّي تريدني أن أتزوّج من امرأةٍ شايقيّة، بل كانت تجلد طبلةَ أذني وهي تقول: «الشايقيّة قويّة، وأنت مثل عود الجريد!» وكم قلت في نفسي: المرأة عدوٌّ للمرأة. وازددتُ فرحًا حينَ سقطت عنّي البرَكةُ، وتلاشت عُقدة الجريد مع الأيّام، إيه يا ضريح الشيخ!

استمرّ النّاس في الذّهاب إلى الأضرحة، حتّى بُعيد الانقلاب. في قلبِ السّودانيّ دمٌ صوفيٌّ لا تُجمّدهُ الانقلابات وما تحملهُ منْ أوهام.

عالَمٌ آخر هو عالم الناس في الأضرحة. في الخارج، لم يفهم النّاس ما يحدثُ، سوى أنَّ وجيبَ قلوبهم ظلّ ينتشرُ بين النخيلِ وفي المزارع، إلّا أنّ الأشهر التي أعقبت وصولي إلى البلد تكفّلت بجرّي إلى التّفكيرِ في الهرب، والعودة إلى الإسكندريّة، لكنّي عجزت عن ترْكِ البلد. ثمّةَ شيءٌ يولدُ مع الإنسان، إنّه العجز! كيفَ لي أن أتركَ أمّي بعد سنواتٍ من الغياب المتقطّع، وأتركَ أبي الذي ما عادَ قادرًا على أعمال الزراعة، وإخوتي المنتشرين في تلك المزرعة الصّغيرة، انتظروني كي أعودَ إليهم فأعملَ في

الوظيفة، وأُغطّي قليلًا من نفقاتهم على المزرعة! ذلك ما كانَ يُشتّت تفكيري، هل أسلُكَ طريقًا لنفسي أم أكون جزءًا منْ طريقهم؟!

بدأتُ أقلقُ في تلك الأشهر التي سبقت خروج حسن الترابي من السّجن، العسكر في كلّ مكانٍ، و«الكيزان» يتسلّلون إلى كلّ بيتٍ، قلتُ لنفسي: البقاء في البلد أهون من الاستقرار في الخرطوم، قد لا تدرك أياديهم بيوتَنا الطينيّة، وإنْ دخلوهَا فلنْ يجدوا عنقريبًا واحدًا يقبلُ بأجسادهمْ، حتّى روث البهائم الذي يُغطّي أسقف البيوت لنْ يقبَلَ برائحتهمْ! لم يكن الوقت حليفي لأتقدّم بأوراقي فأحصل على وظيفَةٍ. كلّ شيءٍ باتَ معلّقًا. وكلّ شيءٍ بدا قابلًا للتغيير. صوت المؤذّن، تسلُّلُ أمِّي من فتحةِ الباب، جُلوس المزارعين في مقهى البلد اليتيم عند وقت الزّراعة، مرحُ الأطفال وانطلاقهم صوبَ كلّ البيوت، الحرّ الجاثم على صدور البهائم قبل صدورنا، العنقريب الذي يتوسّطُ الزّريبة بين الغنم، رائحة الرَّوث، تسرّب البولِ منْ ماسورة الحمّام على ناصية الطريق، رائحة الشّاي التي تنبعث من الأكواب العتيقة... كلّ هذه العلامات جعلتني أُدرك أنّ البلد

بخير، وأنّه بعيدٌ عن يد الانقلاب مهما يكُن طولُها، ولكنّ ما حيّرني هو انقلاب أماني، لذلك خفتُ من تبدّد هذا المشهد فجأةً.

للأسف! في كلّ ركنٍ من الأرض، وبعد أشهرٍ قليلةٍ صار الحديث عن المشروعِ الحضاريّ رائحةَ الوطن الجديدة، «الكيزان» في كلّ مكان، «الدّين زيّ الزّير أو النّيل، ونحن كالكيزان نغرف منه ما نقدر». تبًّا لهذه الرّائحة! هل كانَ عليَّ أن أتركَ البلد حينها، أم أستسلم لمصيرٍ مجهول؟

***

تبًّا! لقد بدأ التّمكين. حين نزلتُ إلى الخرطوم بدا لي المشهد أكثر وضوحًا، أقصد أكثرَ قبْحًا! بدأ الموظّفون يطلقون اللّحى، وتغيّر قانون الشّرطة فصار كلّ شرطيٍّ يُطيل لحيتَه ينال علاوة، وفي الحفلات مُنع الاختلاط، كما تغيّر مشهد المواصلات العامّة فصارت المقاعد الأماميّة للنِّساء. وسَرَت التّحوّلات في مظاهر كثيرةٍ بالخرطوم. الخدمة العسكريّة إجباريّة، عمليّات اقتيادٍ إلى المعسكرات، اختطافٌ متواصلٌ، والناس يسألون عن أبنائهم في كلّ مكان.

لو كنت أعلم بما سيقع لما غادرتُ مصر! البَقاء في الإسكندريّة دونَ مالٍ أو قوتٍ أفضل من مواجهة مصيرٍ مجهول. لم يعلم والدي أنّ عودتي تعني تقديمي قربانًا للكيزان.

دخلت مباشرةً إلى الخدمة العسكريّة، فضّلتُ الاستسلام على أن أُختَطفَ بطريقةٍ ساخرة، ودبّرت طريقةً ماكرة لتخفيف تجنيدي. من المجازفة أن ندّعي هويّةً أخرى غير هويّتنا، ولا أعلم كيف استطعتُ المجازفة، فوجئت بما في داخلي منْ مكرٍ، برّرته لنفسي مرارًا: «المكرُ أفضل من التهلكة!». قالت لي المرأة التي تسجّل أسماء المجنَّدين، وتوزّعُهم بحسب اختصاصاتهم، وقد رأت فيَّ ما لم أرهُ من الشّبه مع الأطبّاء:

- يمكن نلحقك مع الأطبّاء، أنت جامعي أليسَ كذلك؟

- بلى، أنهيتُ الباكالوريوس منذ مدّة قريبَة..

ثمّ استدركتْ بلطفٍ، وهي تحدّق منْ جديدٍ في هيئتي، وسألتني عن تخصّصي، فاحترتُ ماذا أقول، ثمّ أجبتُ: «أشرّح الآثار»، فتبسّمت وقالت: «أنت

تابع لقسم التشريح!»، فكدت أغصّ، ولكنّي قضمتُ لساني، وطأطأتُ رأسي! وما همَّني إلّا أنْ أُعفى من الالتحاق بسائر المجنّدين، فيشرّحني العساكر.

كانت فكرة التحاقي بالأطبّاء جيّدة. ومع ذلكَ لم يكن التدريبُ بسيطًا، الجنديّة هي الجنديّة: أطبّاء، عمّال، مزارعون، عاطلون عن العمل، كلّهم سواسية! الجميع يحلقون رؤوسهم، مثل البوذيّين.

غادرنا الخرطوم على متن السيّارة العسكريّة الدفّار، جلسنا فوق المؤونة، زيت وخضار ودقيق وسكّر وطماطم. وصلنا معسكرًا غرب الخرطوم يقع في الصّحراء ولا يستطيع المجنّدون الهروب منه. كنّا في شهر رمضان، وكان لهُم بعد التراويح تقليدٌ اسمه الإدارة الداخليّة: نقف كلّنا في طوابير وسط السّاحة، فيأتي الضّباط ليثرثروا إلى الصّباح، ونحن وقوفٌ، ومن ينام منّا ينادونه، ويرشّونه بالماء البارد. كانت الليالي الأولى مقمرةً. المعسكر عبارة عن مسطّحٍ رمليّ، غرف الضبّاط في شكل مربّعاتٍ تُطلُّ على الساحة. أذكر جيّدًا تلك اللّيلة الأولى، فقد وصلنا بعد ساعات انتظارٍ وتنقّلٍ، وفاتنا

موعد الإفطار، اكتفينا بأكلِ التّمرِ، ودخلنا المعسكر بعد صلاة التّراويح، وجدنا أنّ الإداريّين والجنود قد أعدّوا فولًا سودانيًّا وطحينة وسلطة لاركوة تغمس بالخبز، فأخذنا نأكل من فرط الجوع، وإذا الضّباطُ يأتون من كلّ صوبٍ، خلتهم غرباناً تنوي الانقضاض على جثثٍ هامدة، فاغتاظ أحدهم وصاح فينا: «كيف تأكلون في «ميز» الضباط؟» وأخذ الرَّمل وألقاه في الأكل، وصاح من جديدٍ: «كلوا الآن!» فارتعدنا وظللنا نوهمهم بأنّنا نأكل بينما رفض صديقنا طلحة الأكلَ واستمات في الامتناع، فنادى ضابطٌ آخر أحدَ المجنّدين القدامى: «جيبوا الموس وحلقوا شعره!».

لم يكتفوا بحلاقة شعر رأس طلحة، فكلّنا عشنا مصيرَه ليلتها، صرنا مثل البوذيّين، قال بونابرت: «إنّ الرّجلَ يكون مكتسباً العزّة بفضلِ الشّعر، ومجرّد قصّ الشّعر يؤدّي به إلى الاستسلام»، ونحن استسلمنا لكلّ شيءٍ. وبدأت رحلة التدريبات والآلام. ورغم ذلك لم أفكّر في الهروب أو التقاعس عن فعل شيءٍ من الأوامر العسكريّة. تدرّبت على الرّمي وحملتُ السّلاح في دورة الرّصاص الحيّ،

استخدمت الكلاشنكوف أيضًا! شعرتُ بأنّ لي طاقةً غريبَةً تشتهي الانطلاق، سمعتُ صوتًا داخليًا لم أسمعه من قبلُ، الوحدة والقلق وتطبيق الأوامر، والخضوع للزجر والعيش في دوّامة الخوف من العقاب، أشياء لم أكن أتوقّعها يومًا، هي التي عرّفتني بوجود قلاع خفيّة في صحراء نفسي.

بعد الجنديّة قرّرتُ السّفر! نعم، الهروب منَ البلد، والالتحاق برغبتي المعلّقة في العبور إلى اليمن. انتابني شعورٌ بالضّيق والوحدة، استعدتُ نصيحة هيرو: «إذا أردت الخلاصَ فعليك الالتحاق بالشبكة، وحدَك لنْ تستطيعَ العيش دونَ معنى، تعالَ معنا، نقِّب معنا عن جواهر الزمن الماضي، لنْ يُغنيكَ الرّاتب، ولا الزّواج، ولا الأطفال عنِ البحثِ في نفسك!» في الصّحراء خطف عينيّ امتدادُ الليلِ، كنتُ أنتظر اختفاء قرص الشّمس في كلّ يومٍ، وظللتُ أنزوي بعيدًا عن المجنّدين الذين كانوا يَغِطُّون في النَّوم العميق في غرفٍ تشبه سراديبَ الموتى. أشرع أوّلَ الأمر في إحصاء عددِهم، وأتحسّس جسدي الذي باتَ يَضمُر يومًا بعد آخر. خشيتُ في تلك الليالي أنْ ينقضّ عليَّ الظّلام، فلا ضوء يبرقُ من أيّ صوبٍ،

ولاَ منجاةَ منْ أيِّ مفاجأةٍ تربكُ النائمينَ وتنتشلني من حالة اليقظة والنّوم على السّواءِ. كنّا جميعًا في قبضة الضّباطِ، ما الفرق بيننا وبين حيوانات السيرك؟! قالتْ لي «أماني» يومًا: «أنت تخفي تحت ثوبك جناحين»، ولكن من يقدر على الخروج من أقفاص السيرك؟

كانَ عليّ أن أصبر. فالتبرّم ممّا أنا فيه ضربٌ من الفأل السيّئ، لذلك أقولُ لنفسي وأنا هنا في هذه الغرفة الغريبَة التي تشبه ذلك السِّرداب: «صبرْاً!». أحسُّ على نحوٍ متزايدٍ بأنّ الشّوارع المحيطة شبيهةٌ بتلك الصّحراء. هنا عسسٌ على مشارِفِ كلّ شارعٍ مدجّجين بالسّلاح، يرزحونَ تحتَ الجوع إلى دفءِ زوجاتهم وأمّهاتهم، ويتأوّهونَ لأنّهم لن يستطيعوا سدّ حاجاتٍ بسيطةٍ يحتاج إليها أبناؤهم أو إخوانهم، وهناكَ، كانَ جنود الليلِ يحرسون المعسكرَ دونَ أنْ يُدركوا أسماءَ الأيّام، فقد تعلّموا من اللّيل معنى فناء اليوم. تحوّلوا إلى كائناتٍ ليليّة، وها إنّي ليليٌّ مثلهم. لماذا أستيقظ في الصّباح، إنْ كانَ البقاء هنا قدرًا محتومًا؟ وماذا يعني النّهار، أليسَ هو تكرار للأمس!

استحلفتني أمّي برحمة جدّتي ألّا أعود إلى مصر، ثمّ تحدّثت مع أبي في أمر تزويجي. لا حلّ لبقائي غير الزّواج. أردتُ أن أُعطّل تلك الفكرة الغريبة التي سيطرت عليها، فأنا أرتعبُ من مجرّد التّفكير في الالتحاق بركب المتزوّجينَ، حتّى إنّي فكّرتُ في الذّهاب إلى ضريح الشّيخ من فرط شعوري بأنّ أبي لن يرضى بتعكير صفو أمّي ولن يستطيعَ طرد ذلك الهاجس من ذهن شايقيّة أصيلَة.

ظلّت أمّي تلازم الفراش أيّامًا بدعوى المرض. لم يكن في باب الغرفةِ ثقبٌ أسترق منه النظر إليها. وكم مررتُ من أمامها وهي شبه نائمة، أو شاردة، لا تجيبني بشيءٍ حينَ أكلّمها. اقتربتُ يومًا من الغرفة فما وجدت لها أثرًا، خلتُ أنّها في المطبخ أو في الزّريبة، ولكنّني فوجئت حين علمتُ أنّها استقلّت عند الفجر أوّلَ باص متّجهٍ نحو الضّريح، ومتُّ ضحكًا وجزَعًا في الوقت نفسه.

منْ لا يستسلمُ لقرار شايقيّة؟! استسلمتُ بعد فترة استكمال الجنديّة، قلتُ لنفسي: «ادفن صوتك تحت الأرض يا ابن الحجر!»، وتذكّرتُ أنّ صوت الرّصاص

الحيّ الذي كنتُ أطلقهُ في ساحة الرّمي صادَرَ أنفاسي، وأنّ من واجبي طاعة الأمّ والأب والإخوة للفوز بالنّعيم! لا فرق بين أن أُدفن اليوم أو غدًا في مصيرٍ أجهلهُ. الزّواج بعد التخرّج فكرةٌ مثيرة، نصفُ الدِّين مع نصفِ الطريقِ إلى الوظيفة، انتصارٌ! لكنّني طلبتُ تأجيلهُ أشْهرًا. قلتُ في نفسي: أسافر إلى اليمن وبعْدها أَسْتسلم! في ذلك الوقت لم أكن أفكّرُ مليًّا في كلّ شيءٍ، كنتُ أشعر بأنّ لي نوعًا من الفطنة الغريبة في التقاط الأشياء، وردَدْتُ ذلك إلى تأثير الحيوانات من حولي! أمّا أن يكون لي طريقٌ، فذاك شيءٌ لم أحصل عليه إلّا بعد سنوات، ومع ذلك أجدُني اليوم في غرفةٍ أخرى من غُرف التّجنيدِ، بلا نافذة! غرفَةٍ أشبه بمدفنٍ ينبتُ فيه الموتُ الفجئيّ، وأخشى ما أخشاه أن أُدفَن هنا، ويطلّ أحفادُ الحنابلة من أمام البستان فيطوّقوا المكانَ، ويمنعوكِ من دفني في قبْرٍ يليقُ بمحنتي!

(6)

تلعثمتُ حينَ لدغتني عينا هولنديٍّ عجوزٍ وهو يرشق صدري بمُقلتيَه! كانَ الطابور طويلًا أمام بوَّابة متحف «فان غوخ»، والزّوارُ متلاصقين الواحد خلف الآخر. ذاك الهولنديُّ الجريءُ لم يترك سنتيمترا واحدًا في جسدي إلاّ أصابهُ بعينْيه. استدرتُ يمينًا وشمالًا، راوغتُ نظراته، لكنّه تفنَّن في حصاري! هربتُ داخلَ قاعات المتحفِ، هرولتُ فالتفتَتْ إليّ الأعين مستغربةً من الضجّة الّتي أثارها نعلايَ، يبدو أنّهما أيقظَا آكلي البطاطا، الفقراءَ المحبوسين في لوحةٍ منذ أكثر من قرنٍ، فصارت نظراتُهم تستهدفني هم أيضًا، وبدأت كآبتُهم تنهمر على كآبتي، وعزلتُهم تطوّق عزلتي.

احتجت إلى قرابة نصف ساعةٍ حتّى أبلغ القاعة المخصّصة لعرض أغراض «فان غوخ»، أطلتُ النظر إلى الطّاولة التي كان يكتب عليها، وشدّني دفترهُ العجيب، وخيِّل لي أنّي أستمع إليه وهو يقول لأخيه تيو: «إنّ الحزن سيبقى إلى الأبد»، وتهيّأتْ لي «أورسولا»، تلك المرأة المعذّبة التي حفرت في

قلبه جرحَ الهاوية، ورأيته يتدحرج إلى طلبِ الرّحيلِ. دقائق عميقة أمام خلوة «فان غوخ». عاد صوتُه يدغدغ أذنيّ وهو ينصحُ «تيو» بأن يُدمّر جميع كتبه فيرتاح، وسمعتُه يسعلُ ويتلوّى من أثر نوباتٍ عصبيّةٍ جعلتهُ يفقد معنى الحياة ويبحث عن الهروب من دوّامتها. كنتُ أشاركه الألم! داهمتني في تلك اللحظة وساوسُ أنْ تكون روحهُ مبعثرةً في القاعات، حبيسةَ لوحاته في هذا المتحف الذي أضحى قبرَه الثاني، ضريحًا رمزيًّا يتبرّك به محبّوه في مختلف العقود. ظللتُ أجول بعينيّ في أعماله الفنية السّاحرة، ألمس فيها الهدوء والصّخب في آنٍ واحد، وأتذكّر الزّول وهو يسألُ البروفيسور عبد القادر: «أنت ترسمُ الدّوائر لتقول إنّنا لن نغادر مصيرنا؟»، والبروفيسور يلتقط سؤالهُ: «لا تنظر إلى الدّوائر، انظر إلى ما وراءها». فرماه الزّول بنظرةٍ واهنة، ووقف يتفحّص خلفيّة اللّوحة وهي مُسندَة الحامل، وصاح من الخلف مرتبكًا: «يا إلهي! العنكبوت احتلَّ الماوراء!» وأخذ يضحك بمرارة.

خشيتُ لحظتها أن تتعالى ضحكاتي المكتومة، ومع ذلك لم أستطع كبح ضحكةٍ مبحوحة! رشقتني

النظرات المستهجَنة، وأرغمتني على الاتّجاه نحو قاعةٍ أخرى، صادفتُ حينها لوحة «أغوستينا سيجاتوري»، يا لها من صدفةٍ قاسية! لا أدري لماذا رأيتُ فيها نفسي، وخلتُ اللوحة مرآةً محدَّبةً. أحقًّا تشبهني؟ امرأةٌ في الأربعين، تتجاوز عمري ببضع سنين، تجلسُ على طاولةٍ صغيرةٍ، تُدخّن سيجارَةً، وتكرع كأسًا من البيرة، كانت ترتدي قبّعةً بديعةً وفستانا أنيقًا، وشعرها المنسدلُ في غايَة الجمال بتسريحةٍ جذّابَة، «أغوستينا» عارضة الأزياء الشهيرة، وصاحبة مقهى «تمبورين» الذي كان قِبلَة الفنّانين، تُشبهني حقًّا! ما الذي يُباعد بينَ أخت الصفّا وأغوستينا؟ الزمن؟ المكانُ؟ نتناسخ في كلّ زمنٍ ومكان، نحملُ الجيناتِ نفسَها التي تجعلُ من الإنسانِ طائرًا لا يستطيعُ أن يقيّدَ أجنحته دود القبر! وذلك المقهى أليس شبيهًا بالبستان، أليسَ هناك بستان في كلّ زمانٍ ومكان؟ أليس في كلّ زمانٍ أعوانٌ يبحثونَ عن الخروج من شباك السلطان والأشرار والجهّال، من أجلِ تحقيق الكمال، هولنديّين كانوا أو عراقيّين أو هنودًا أو فرْسًا..؟ كلّنا سواسيةٌ في البحثِ، قد تختلف أمكنتنا ولغاتنا ولكنّ الأنفاس هي نفسها، الأرواح

تتقاربُ، والآلام تتشابهُ.

إيهٍ يا «أغوستينا»! أنت أيضًا انهزمتِ، واضطررت إلى ترك المقهى، لكنّك الآنَ حيّةٌ تمنحينني أنفاسًا جديدةً للاستمرار، حتّى إن كنت مدفونةً في هذه القماشة، وموثوقة إلى الجدار، وتنامين وحيدة في ليل المتحف، وغيرَ قادرةٍ على محاورة الزّوار! ما عدتُ أسيرُ صوبَ البستان، بل شعرتُ بأنّني حملته معي مثل بيضةٍ ستَفَقس يومًا مّا. لا يُمكن لذلك المدفن أن يظلَّ منسيًّا إلى الأبد، سيأتي أعوانٌ آخرون وينقّبون عنه ويفتحونَه، ثمّ يحلمون بأنْ يُغيّروا أنفسهم قبل تغيير العالم. لكنّ العالم ثابت لا يتغيّر، إنّما تتغيّر الأدوات التي ندركه بها وتتغيّر المواقع وزوايا النظر.

هل كنتِ يومًا مّا مُلهِمَة؟ وأنا هل كنتُ ملهمة؟ قَدَركِ أن تظلّي ملهمةً حتّى وأنتِ في هذه الزنزانة الانفراديّة التي لا تتلقّف الضّوء إلّا بصعوبة، المعتمة أمام كأسٍ لم تتحرّك منذ عقودٍ، عالمك ضيّق في اللّوحة واسعٌ في العيون، مثلَ عالَم الزّول تمامًا، ضيّقٌ في غرفة البستان واسعٌ في عينيَّ. ابتلعتُ ريقي حينَ تذكّرت طهَ، حوّلتُ نظري من «أوغستينا» إلى

المقاعد التي تتوسّط القاعة، وودِدت أنْ أرتاح قليلًا، ثمّ عدلتُ عنْ ذلك واتّجهتُ نحو الكافيتيريا. اللّعنة، هذه المقاهي تحيط بنا من كلّ جانبٍ، ولا مفرَّ منْ القهوة الهولنديّة لإنعاش الذاكرة!

يحزنني الاعترافُ بأنّني مازلتُ أسيرَةَ غموضه. خلتُ فترةً أنّهُ منّا، فلا يُمكنُ أنْ يدخلَ البستان منْ لم يكنْ واحدًا من الأعوان! وما زاد في تأكيدِ تخميناتي هو تكرار زيارة البروفيسور له، بماذا كانا يتهامسان؟ ما الذي أصبح يجمعهما؟ تمشّيتُ قليلًا من جديد، رحتُ أقلّبُ حركةَ عاشقَين متلاصقَين أمام لوحةِ «غرفة النّوم»، غَبطتهما على خلوتهما باللوحة، واتّحادهما بلحظة التصاقٍ جبّارةٍ لا تأبهُ بعين أحد، لا أعرف كيفَ انسلّت منّي دندنة: «هذا مو إنصاف منك، غيبتك هلكد تطول، الناس لو تسألني عنك..» ثمّ ابتلعت الحروف، نظراتهما النّاهرة في أوّلَ الأمر تحوَّلت إلى ينبوع حنان، لم يفهما شيئًا، لكنَّهما أحسّا بأنّ تلك الدّندنة لنْ تكسر ألفتهما.

عدتُ أتذكّرُ جولاتي بقاعات بغداد للفنون، لا يمكن أنْ تجفّ ذاكرتي، رغم الأسى والاشتياق.

مازالت أعمال الفنان عادل كامل التي عرضت في قاعة «حوار» تأسرني، لا أدري لماذا أميلُ إلى الفنّانين الذين يجمعون بين الرّسم والنقد وكتابة القصّة والرّواية. لم أفكّر يوْمًا في الكتابة عن الفنّ، لكنّني كنتُ أتابع المحترفَ العراقيّ بشغفٍ. علّمني البروفيسور كيف أقرأ الأعمال الفنّيّة وأصنّفها بحسب مدارسها واتّجاهاتها، وأعكف على فهم رؤى الفنّانين، ومع ذلك لم أكتب شيئًا، ولم أكن أميلُ إلى الرّسم مَيلي إلى فنّ الوراقة. قال لي البروفيسور منذ زمن: «قَدَرُكِ أنْ تنسخي المخطوطات وتجلّدي الكتب!».

لا أعرفُ كيفَ تجرّأْتُ على أبي محمّد حين قال: «وحدَها الكتب ستدفن، أمّا اللوحات والمنحوتات، فاتركوها للزّمن!».

قلتُ له:

- يمكننا أن نجمعَ بعض الأعمال الفنّيّة لأصدقائنا دونَ أن ننفقَ شيئًا.

- لا وقت لدينا، لا مكان ولا مال لدفن الأعمال، إنّنا مَعنِيّونَ بدفن الكتب، الكتب فحسب!

ضاعت ارتسامات شخصيّات جواد سليم في ذاكرتي تحت قصف كلمات أبي محمّد، بكى «البستانيّ» الذي كان يبيع أشجاره النديّة على ناصية الطرقات، وسالَ الماء الزلال من كاسات «بائع السّوس» أمام حيرة العابرين في حارات بغداد، وتشقّقت التّماثيل الجبسيّة في يد «بائع التّماثيل». آه لو أستطيع تهريبَ عملٍ واحدٍ لجواد سليم! ولو كانَ المدفنُ يَسع حقًّا بعض اللوحات الفنّيّة لتشبّثتُ بفكرة دفنها مع الكتب.

كانت اللّوحات الفنيّة تباع بأثمانٍ زهيدة، حفنة دولاراتٍ تكفي لاقتناء لوحةٍ لشاكر حسن آل سعيد، ولكنّ حفنة الدولارات تلك تساوي راتب أستاذ، فالدينار العراقيّ لم يعد له غير البكاء على أطلاله.

***

يوْم طلبتُ من الغريبِ أن يُرافقني إلى مركز صدّام للفنون، أخذته الريبة. سألني بلا مُقدّمات:

«هل أنتِ جادّة؟ أتريدين منّي الذهاب إلى حيثُ يحكم صدّام!».

نظرتُ إليه بإشفاقٍ: «يبدو أنّك لا تعرفُ شيئًا عن الرّسم وأهله، فما بالك بقاعاته!»،

ضحك قليلًا، وغمغم: «كيف لا أعرف الرّسم؟ ما يعنيني هو الرّسم على الحجر، أتحسَبين الرّسم الآن أعظم شأنًا من ذي قبل؟ رأيتُ ما يرسمه البروفيسور، وقد راعني أنّ ما رأيتُه على تلك القُماشة، وفي اللوحات المركُونة تحت الجدار، يسمّى رسْمًا. تطلبين منّي الذهاب إلى قاعة عرض، وأنت لا تعرفين قاعات العرض الكبرى في التاريخ حين كانت المعابد تحتضن رسوم الإنسان؟ تلك التي عبّرت عن حياته وشعائره ودنياه ومصيره. أمام الجدار، لا تستخدمي عينيك بل أذنيك كي تنصتي إلى الصور المنقوشة وهي تتكلّم!»،

أدركتُ على الفور أنّه يهذي! ودونَ أن ينطق بكلمةٍ أخرى وقفتُ في مكاني. خشيَ أن أكون غضبتُ فبرقت عيناهُ، ومرّر يده اليسرى على جبهته كأنّه يمسح عَرَقا خفيفًا، فيما كانت أصابع يده اليُمنى تتحسّس حبّات الأرز.

في القديم كانت المعابد المقدّسة مفتوحةً للغرباء،

تهبُ فيها المرأة جسدَها للغريبِ عملًا بتقليدٍ بابليّ حوّل الدّعارة إلى شيءٍ مقدّس، لكنّي لست من دُعاة وهب الجسد تحتَ أيّ مُسَوّغ، الجسدُ ملكٌ للمرأة وحدَها، غير أنّ شيئًا مّا كانَ يُداعبُ جسدي، ويجعلني أرتجفُ. هل كان عرقه البارد الذي برَقَ على حافّةِ جبهته أشبه بالأصابع التي تتسلّل إليَّ؟ ما كنتُ أخشاهُ وقتَها هو أن يرتجفَ قلبي. كان صمتهُ الجبليُّ أعتى من سيلٍ يُدمّرُ الشُّجيرات الصّغيرة التي تئنُّ سنواتٍ في سهلِ قلبي.

حين قَطَعَ شرودي بوقوفه المفاجئ، ظننتهُ عزمَ على المُضيّ معي إلى مركز صدّام للفنون، لكنّه أشار بيده إلى جهةٍ تتهاوى منها أصواتٌ تشبه العويل والصراخ والهتافات. قال لي وهو مرتعب: «هل عادت الحرب؟»، وبدا عليه ذعر الأطفالِ. في تلك اللحظة شَعرتُ بالفارق بين منْ عاشَ تحتَ سياط القنابل، وفي الملاجئ ورأى الدم يسيلُ في الشّوارع، ومَن عاش في روابي القرى بين الطّبيعة الصّافية، وتحت سماءٍ لم تكن تهبُ غير المطر.

ازدادَ ذعرًا: «الأصوات تقترب منّا، هل سقط

النّظام؟!» ضحكتُ وأنا أتفحّصُ عينيْهِ المثبّتتينِ جهة الهتافات، وشعرتُ به يرغبُ في الاتّجاه نحوها. وجدتها فرْصة ليخرج عنوةً من البستان، فخروج الحلزون من صدفته أمرٌ ضروريّ. دعوتهُ للذهاب صوب الهتافات، فنظرَ إلى البستان بالتفاتةٍ غامضة، وأسرع إلى إغلاق باب الغرفة. تلك النظرة حرّكت فيّ مجَدّدًا الرغبة في استكشاف ما بحزمة الأوراق التي استلمها من البروفيسور، وصمَّمت أكثَرَ على العثور عليها. انطلقنا إلى تلك الوجهة، ووجدتُه أقربَ إليّ من أيّ وقتٍ مضى. اقتربنا من شارع الرّشيد، كانَ المشهدُ أقربَ إلى صورةٍ مصغّرةٍ من قيامةٍ بشريّة، طوفانٌ من الرّجال والنّساء والأطفال، والأصوات تهتف بالتكبير، والتنديد بأمريكا. كانت النعوش الخشبيّة تُرفَع إلى السّماء من فوق السّيارات، نعوش لأطفالٍ ماتوا من سوء التّغذية! ها هي جنازةُ أطفالِ بغداد تصبح لوحةً في شارعٍ لم يعد يسع الغضب الصّاعد، وقد صارت الحناجرُ المجروحة والمختنقة بالعبرات أعلى من مكبّرات الصّوت.

وقف ذاهلًا أمام مرآى الحشود في كآبةٍ وصمتٍ قاتلَيْن. أحياءٌ في حكم الموتى يودّعون موتى في حكم

الأحياء الخالدين! حمدتُ الله أنّي لم أرزق بذلك الطفل، فأن تموت البذرة وهي في تربتها أهونُ من رؤية عود الشّجرة أخضر ثمّ تقصفه فجأةً ريحٌ عاتية.

الجميع سائرون نحو الموت، قلتُ للغريبِ: «هوّن عليك، هذا خبزنا اليومي!»، قال: «وهل في مركز صدّام للفنون لوحةٌ عن المأساة أبلغ ممّا نرى؟!» ثمَّ ألقى عليَّ نظرةَ عتاب، وسأل: «أليس في دار السّلام ما يشفي النفوسَ منَ الآلام؟». حلّ بيننا صمتٌ وجيزٌ، نظرتُ إلى سحنته وقد ازدادت سوادًا، وفجأةً حدّقتُ في عينيه فوجدتهما تتلألآن، وتفيضان نورًا على وجههِ حتّى إنّي خِلتُ إطراقتهُ ونظراته الكئيبةَ تقتربان منْ ملامحِ صوفيٍّ هجرَ العالَمَ. وممّا زادَني هَلوَسَةً واضطرابًا ما ألقاه عليَّ من كلماتٍ في هيئة ريح: «ألم يحن وقت الذّهابِ إلى ضريح سيدي عبد القادر الجيلاني؟!» لم أدرك لحظتَها ما الذي أيقظ فيهِ فكرةَ زيارة مرقد الشّيخ الباز؟ وهل كان صمته وغيابهُ المطوّلُ في البستان، وانفراده بنفسه، ضربًا منْ سلوك الطريقة؟!

كنّا نتابع سيرَ الحشود حتّى غاب الصّوت. طرقاتُ

بغداد تلتهم الوجع والنّاسَ، أطفالًا وشيوخًا. تلوّى وجهي حين استعدتُ الموتى والرّاحلينَ، أبي وأمّي وزوجي وجنيني، ولم أصدّق في تلك اللّحظة الواجفة أنّ في الوقوف على ذكر الموت نوعًا من الحياة. ولم أستفق من غفوة يقظتي إلّا وهو يهمسُ لي: «أشتمّ رائحةَ بحرِ الفضائل!» وغمغم بحروفٍ لم أتبيّنهَا حتّى خلتُه انقطعَ عن اليقظة وخطفه شيءٌ مجهولٍ.

قال لي: دلِّيني على ضريح الشّيخ الجيلاني!

هل كان ذلك أمرًا؟ لم أشعر بشيءٍ سوى أنّي تقدّمتُ في الشّارع قليلًا واستوقفتُ تاكسي، وما هي إلّا دقائق حتّى بلغنا منطقة باب الشّيخ في الرّصافة. تصاعدَ وجيبُ قلبي، فأنا لم أزر المرقد منذ أيّام انشغالي بمحتويات المكتبة القادريّة. سمعتُ هاتف أبي محمّد وهو يردّد: «لنْ نبلغ دار السّلام إلّا بصفاء النّفس واستقامة الطّريقَة». كان المرقد شبه خالٍ من الزوّار، زُرْقةُ أبوابه وشبابيكه تناجي السّماء، والحمام يطوفُ في أرجاء الرّواق، وقد تحوّل سجعه إلى ما يشبهُ نعيق الغراب.

سألتُ الغريبَ، ونحن على مشارف الباب: «هل

أنتَ من أهلِ الطّريقة؟»».

أجابني: «الطريقة! أنتِ تخبطين!» أزعجني ردُّه، فقلتُ باندفاع: «لا أفهم لماذا جئنا؟ أَلَمْ يكن الأنسب أن نذهبَ حيثُ الأحياء، بدلًا من زيارة الأموات؟»، وددتُ أن يتوقّف ونرجع على أعقابنا. كنتُ متحاملةً عليه لحظتها: «أَمَازِلتَ مُصرًّا على الحياة مع الحجر؟!» ارتسم على فمه غيظٌ مكتوم، وقال: «كُفّي عن الهراء! جئت أطلبُ البركة مَنْ عزم على الهروب يحتاج إلى بركة! إذا كان الشيخ يُبرئ الأبرص فسوف يبرئنا مِن هذا الوضع بلا شك! ألا ترين أنّي جئت أطلبُ الغوث؟!»».

أحسستُ بشيءٍ يشبهُ انقيادَ طفلَةٍ إلى هوى أبيها. أشفقتُ على نفسي بسبب اضطراري إلى فهم غموضه. لا بأسَ من المحاولَة في فهم الآخرينَ. إذا كُنت عونًا صافيًا فعليَّ أنْ أصبرَ. تلك حالُ النّفس تتدنّسُ بالظاهر، ومشقّتها أن تدرك الجوهر. أعترفُ بأنّ الأمر أزعجني، لم أجد في قصّة البركة والغوث معنًى، وقلت في نفسي: يأسٌ يُشبه مرض الجذام، يقود صاحبه إلى أملٍ خائب. بقيتُ أتفحّص خطاه

وهو يتعجّلُ الدخولَ إلى صحن المرقد متّجهًا نحو بابه في انخطافٍ غريبٍ حتّى ظننته الشيخ الجيلاني مقبلًا على شيخه أبي سعد المخرمي، وهو يخطو في استقامةٍ غريبَة، وصوت أبي محمّد يخترقني مرّة أخرى: «أقربُ الطّرقات ما كان على خطٍّ مستقيم».

تركني واقفَةً، كأنّه جاء منفردًا. ظلّ يتفحّصُ المنارةَ، يجيلُ بصرَه إلى أعْلى كمَن يستمعُ إلى حفيف كلماتٍ تنزلُ صافيةً منها. اتّجهتُ نحو صنبور الماء كي أرتويَ، وخطر لي أن يصير الماء عسلًا كشأنِ أواني الخمر تصير خلًّا إذ حُمِّلت إلى السّلطان في مكرمة للشّيخ. لسببٍ مّا، شعرتُ بأنّني مجرّدُ مرافقةٍ ساذجة لغريبٍ يبحث عن شيءٍ غير معلوم، وفكّرتُ سريعًا في أن أضع حدًّا لذلك. لا يُعقل أن أستمرَّ في التعامل معه كما يتعامل المرء مع شخصٍ عابرٍ. أعلم أنّ مَن يدخل هذه الديار يصعب أن يخرج منها إلّا ملدوغًا بروح الأصفياء. العراقُ ليس مجرّد مكان، إنّه نفَسٌ مكلومٌ للحكماء والشّعراء والفنّانين، وحتّى المتصوّفة والفقهاء، نَفَسٌ ينبعُ من أسرارِ الحكمة.

أخذ يُحلقُ في برج الساعة، يقلّبُ ما دُوّن على

واجهتها الشّماليّة بالكاشاني الأزرق، ويتأمّلُ نقوش طُغراء السّلطان عبد الحميد الثاني. ثمَّ أطلَّ مقتربًا من الباب الصّغير الذي ينفتح على السّلالم الخشبيّة في اتّجاه السّاعة من الدّاخل، اقتربَ أكثرَ ليلامس بيدَيه المرمر الإيطاليّ المحيط بقاعدة البرجِ الأرضيّة. ازدادت عيناهُ جحوظا والتماعًا، وقال:

- «أليست هذه ساعة القشلة؟».

- «لا عليكَ، إنّها تشبهها، الساعات تتشابه».

- «إطلاقًا! ساعات الأجداد غير هذه الساعات، للماضي ساعاته، ساعات الظلّ والساعات الرمليّة والمائيّة، ومع ذلك هل يمكننا أن نتحدّث عنْ أزمنةٍ متغيّرةٍ بتغيّر الساعات؟».

- «بدأتَ تتفلسف! ونحن هنا في مرقدٍ بعيد عن الفلسفة».

- «من يغِبْ عنِ الواقع لنْ يعترفَ بالسّاعة، فلماذا بُنِيت هذه السّاعة في مكانٍ لا يؤمن بالسّاعات، ألا ترينَها غريبةً عنْه؟!».

لم أفكّر يومْا في هذا التعارض الممكن بين الساعة

والزمن الصوفيّ، بين ميقات النّاس ومواقيت العارفين، وشعرتُ بأنّ تلك السّنوات التي قضّاها «غلام دستكير» في تنظيف السّاعة ومسْحها وطلائها بالدّهن متى استوجب ذلك، كانت بلا جدوى! الحمد لله أنّه رحل قبل حوالي عشر سنواتٍ ولم يُنصت إلى تخاريف الغريب! سرتُ قليلًا إلى الوراء. لا أذكر أنّي زرت المرقد منذ سنواتٍ. سارَ الغريب في اتّجاه الأبواب الزرقاء المغلقة، ودّ أنْ يدخلَ ليكتشفَ المكان. استمرَّ يُتمتم. ويداهُ تمسكان بالقضبان الحديديّة، وعيناه على القفلِ. شعرتُ لحظتها بأننا جميعًا خلفَ تلك القضبان، والقفلُ محكم. في داخلي ألم الوحدة والرّغبة في الرّحيلِ. لا أعرفُ سرّ تلكَ الأنفاس التي حلَّت فيّ فأخذت تصعد وتنزلُ، بدت كأنّها انعكاسٌ للصّمت الذي خيّم على المرقدِ. إنّه إحساسٌ فظيعٌ بالانكماش. فهل شعر الغريب بالإحساس نفسِه؟

التفت إليّ ثمَّ تحرّك نحوي بتثاقلٍ: «علينا الرّحيل». طأطأتُ رأسي، فأضاف: «ليس الرّحيلُ من هنا، بل من العراق!»».

لا طاقة لي على الرّحيل. لا أستطيع أن أترك

أبا محمّد في السّجن قبلَ أن أعرفَ مصيره، ولا يستطيعُ الغريبُ الرّحيلَ أيضًا. وكيفَ أتركُ العراق؟! والأعوان؟ والبروفيسور؟ وعارف؟ والبستان! طلبتُ من الغريب أنْ نجلسَ قليلًا، فباحت لي عيناه بأنّه يحسبني أصدُّ رغبته. قال لي وهو يرتعش: «هل تعرفين أنّي مكثتُ طويلًا الآن؟ ألم يحنْ وقتُ الرّحيل؟ ألا ترين أنّ أبواب المرقد المغلقة نذير شُؤم، وعلينا تركُ هذا المكان والبلاد؟!». تحاشيتُ النّظر إليه مباشَرَةً وجلستُ على الأرض، شعرتُ برعشة في جسدي، كانت الأرضيّة باردةً تمامًا. ولم يجد بدًّا من الجلوس، كان المكان شبه خاوٍ، فصوّب بعض الزوّار سهام عيونهم تجاهنا، فقد بدونا وحيدينْ في ذلك الاتّساع السّاكن.

بقينا جامدينْ لحظاتٍ. فأعمالُ الصّيانة حالت دونَ أن يدخلَ إلى المرقَدِ. بدا غارقًا في الحزنِ هذه المرّة، وهو جالسٌ غيرَ بعيدٍ عنّي، انتبهتُ إلى القبّعة التي يضعها على رأسه، إنّها طاقيةُ أبي محمّد! ثمّ انتبهتُ إلى لباسهِ، بنطلون أبي محمّد البيج، سترته الكاكي! كيفَ ذهلتُ عن ذلك ونحن في طريقنا إلى هنا؟ هل كنتُ عمياء أم شاردةً إلى درجة العماء؟!

سألتُهُ محاولَةَ إخراجه من بئر صمته:

«هل تؤمن بكرامات الصّوفيّة؟»،

تظاهرَ بالشّرود، ثمَّ قال:

- تمسّكي أنت بالقشور، كرامات، وخوارق، ودعي الجوهر،

- وما هو هذا الجوهر، ألم تقل إنّك هنا للبحث عن الغوث؟!

- أنا هنا لأنّي أبحث عن السّكينة، جئت لأنّي أحتاج إلى هواءٍ يشبهُ الهواء الذي كنت أتنفّسه في قريتي، واعتقدتُ أنّني سأجد وجوهًا تحملُ ملامح القرويّين نفْسَها، وهم ينقادون مستسلمين إلى ضريح الصّوفي، أنت لا تعلمين شيئًا عنّا، وحتّى عنّي!

بماذا أردُّ عليه؟ أنا فعلًا لا أعرفهُ! لو كانَ أثرًا باليًا فلن أستطيعَ نفض التراب عنه.

مال إليّ قليلًا، كأنّهُ لام نفسه على لهجته الحانقة. قال لي: «السّودانيّون صوفيّون بالفطرة! رائحة المراقد لا تزكم أنوفنا، منذ دولة الفونج في القرن العاشر

والتصوّف يسري في نفوسنا أبًا عن جدّ. «تاج الدين البهاري» القطب الربّاني جاء إلى السّودان بإذنٍ من رسول الله ﷺ، والشيخ عبد القادر الجيلاني. جئتُ إلى هنا لشكر القطب رغم أنّي لست من أتباع الطريقة، ولست صوفيًّا. ولكنّ الصّفاء الذي تنعم به أرواحنا هناك من نسيمِ دعائه وبهجة عطائه، وكَمْ كنتُ أذكرُ ما حفظتهُ عن أبي وهو لا يكفُّ عنْ ترديد ما قالهُ الجيلاني: «مُرادي أنت لا أنا، أن تتغيَّرَ أنتَ لا أنا».

حينَ ابتسم، تفطّنتُ إلى بياض أسنانه من جديدٍ، كأنّها من عاج الفيلة، قال لي: «كَمْ مرّةً زرتِ هذا المكان؟»، نسيتُ حقًّا رتلَ المرّات الّتي جئتُ فيها إلى الحضرة القادريّة، ولّى زمانٌ طويل. فقلتُ لهُ: «ليسَ المهمّ العدد بل معنى المكان عندك»، قال:

- حقًّا! آه، وما معنى هذا المكان عندك؟

في الحقيقة حاولتُ أنْ ألتزمَ التقيّة. لم أكن أبحث في تلك اللحظة عن إثارة شغفه. فقلت له العكس:

- لا يعني لي المكان شيئًا دينيًّا في نهاية المطاف. كنتُ أزورهُ لأداء عملٍ في المكتبة.

- أوه، حياتك كلّها كتب!

سكتُّ، ثمّ شاكسته:

- «ألست منْ أنصار الكُتب؟»،

كانَ يُتابعُ مجرى أفكاري:

- «منذ طفولتي ومع بداية شبابي وحتّى آخر سنة التخرّج، ظللتُ تائهًا عن الكتب، منذ بضع سنين صرتُ مهتمًّا بها، وكيف لا أهتمّ الآن بالكتب؟! الآن أنا هنا بسبب لعنة الكتب؟! ممنوعٌ من مغادرة البلاد بسبب مخطوط كتاب، وأعيشُ لاجئًا بين الكتب، ومنْ يرشدني في هذه المدينة مثلَ بصيرٍ لا حياةَ لهُ غيرَ الكتب!»،

- «قضّيت حياتي بينَ الكتب، لكنّي اكتشفتُ أنّ الإنسان أكبرُ كتابٍ لا يُمكنُك أن تدّعي انتهاءك من قراءته تمامًا، اكتشفتُ أنَّ الكتبَ كلّها تحاول ترجمةَ ذاك الكتاب، ليس لأنّ الإنسان متعدّد اللّغات والثّقافات والأعراق والأديان، بل لأنّه مركّبٌ منْ كلّ ذلك وفيه السرّ الأعظم»،

لم يحدث أن رأيْتُ التماعًا في عينيه مثلَ تلك اللّحظة!

قال لي بانتباهٍ:

- «صرتِ تتحدّثين مثل المتصوّفة، أهلُ الباطن يدّعون معرفة الإنسان والله في آنٍ واحد. في السّنوات الأخيرة حاولتُ أن أبحثَ عن ذلك الباطن في الحجارة نفسِها، قلتُ إنّ ظاهر الحجارة أشبه بالحاضر، لكنّ لها ماضيًا يختفي بداخلها. الحجر قشرةُ السرّ الدفين، جسمُ الحضارة، علامةٌ على معنى غائب».

- «تبًّا! فلتذهب الحجارة إلى الجحيم!».

- «لماذا تقولين ذلك؟».

- «الحجارة لا تعني غيرَ تكلّس المعاني، كلّ مادّةٍ غطاء، ألا ترى أنّنا نعيش منْ أجلِ فهم الباطن، وكلّما اقتربنا منه صرنا أكثر إنسانيّةً، وأكثرَ محبّةً للحياة؟».

- «لست أدري، حاولتُ أن أتبع الحجارة في أكثر من مكانٍ، وآخرُ ما اكتشفتُ أنّني لا أستطيعُ الذهاب في هذه الطريق وحدي..».

- «الحقيقة.. الطريقُ لا يسلكها أحدٌ بمفرده.. من

سلكها وحيدًا في أوّل الأمرِ مآلهُ الضياع!».

- «وهل تعتقدينَ أنَّنا نحتاج إلى قطب زمانٍ كي لا نضيع؟ وإلى خارطةٍ كي نعبرَ من مكانٍ إلى آخر؟ وإلى دليلٍ؟ لو تركتني وحدي في هذا الضّريح، وانصرفتِ إلى البستان وحدك، هل تعتقدينَ أنّني سأضيع في شوارع بغداد؟ لنفترضْ أنّي ضعتُ، أليسَ الضّياع جزءًا منْ عقبات الطريق؟ هل تعتقدينَ أنَّ عبد القادر الجيلاني نفسه كانَ سيضيع عن الطريق لو لم يلتقِ بمعلّمه المخرمي؟».

- «لا أشكُّ في ذلك!».

أخذ يضحك بلطفٍ، يحرص على عدم إيقاظ ربكة بعض المريدين التائهة عيونهم بيننا وبين الأركان، ثّم قال:

- «إذن كوني دليلي! لعلّك محقّة! فالحجارة أيضًا دليل!».

- «تبًّا! الحجارةُ مرّةً أخرى؟».

كانَ راغبًا حقًّا في الاقتراب منّي. حدّثني بنعومةٍ بالغةٍ، وشعرتُ بنظراته تكادُ تثقب جسمي، هل

كانَ ينظر إليّ نظرته إلى الحجر؟ هل احتفظ بالقليل منْ دربة الآثاريّ كي يجسَّ بأناملهِ جسم الحجر؟ المرقدُ لا يزالُ غارقًا في الكآبة، كلّ شيءٍ فيه شبه معطّل، لكنَّ ما حدثَ بيْنَنا أشبهُ باختناقِ صوتٍ في حنجرةٍ تبحثُ عن إطلاقِ آهةٍ مكتومة. يا الله! كم آهاتٍ دوّت بها الصّدور في هذا المكان؟!

أعادني حديثُهُ إلى تلكَ الحالات التي داهمتني، بينما كنتُ أجلّد عددًا منْ كتب الشيخ عبد القادر الجيلاني، لا أذكر منها غير «الفتح الربّاني». منذ تلك اللحظة، بدأتُ أفكّرُ في خطوةٍ غريبَةٍ ولكنّها ضروريّة. لا يُمكن أن يستمرَّ الوضعُ على ما هو عليه. إذا كان الغريبُ محلَّ ثقة أبي محمّد، فينبغي أن أثق به. ومع أنّ في كلامه شيئًا من الريبةِ، فإنّها ريبَةٌ تشبه ريبَتنا، وتحوُّط يشبه تحوّطنا. أحسستُ بالدم يكاد يندلق من وجنتيَّ لمجرّد أنّي قلتُ في نفسي: «ليكنْ عونًا من الأعوان! لِمَ لا يَكونُ حقًّا كذلك؟!».

***

بعد يومٍ أو يومين، طلبتُ من الغريب أنْ يساعدني

في تنظيم الكتب. لعلَّ إحساسهُ بالفراغ دفعهُ إلى ذلك، قال لي: «لا أريد أنْ أتحوّلَ إلى حجارة!» وأخذ يرصّف الكتبَ بعجلةٍ في أوّل الأمر ثمّ راح يتأنّى فيتصفّح بعضَها قبل ترتيبها. ظللتُ أتابع حركة يديه وانحناءة جسده، لم أعهد أن يساعدني في ذلك غير عارف، فكثيرًا ما يأتي لينتقي كتابًا، ثمَّ يتّخذ جلسته على المقعد الخشبيّ المقابل للشّارع، ويشرع في القراءة، وحين أنبّهه إلى أنّ العلم سيتبخّر بينما تبدأ حركة الشارع في الازدحام، ويُقبلُ المريدون على البستان، لا يأبه لذلك، ويزجرني بنظراته قائلًا: «تعلّمي يومًا أن تقرئي تحت قصفِ الطّائرات، لا تحت غوغاء الناس».

أومأتُ إلى الغريب بأن يضعَ الدوريّات في مكانٍ متقدّمٍ على الكتب، يجبُ أن تكون على أطراف البسطة لأنّها تجلبُ القرّاء وأثمانها زهيدة. إنّه يتفنّن في وضع الكتبِ، ويُطيلُ تفحّصَ الصّور الفوتوغرافيّة القديمة التي تزدانُ بها واجهة البستان. كأنّهُ يسافر بأسئلته عنها في قطار ذكرياته. تُرى أيّ ذكرياتٍ يمكنُ أن يستعيدها وهوَ يتأمّل صور البيوت البغداديّة القديمة، ومشاهد الباعة في دكاكين أسواق

رصافة بغداد كسوق الشّورجة المجاور للمدرسة المرجانيّة وسوق البزازين وسوق الصفافير. ربّما كانَ يفكّرُ في العودة إلى بلده منْ جديد، أو في زيارة بعض هذه الأسواق، فهو الآن كمولودٍ جديدٍ يريد أن يتعرّف ما حولهُ فتلفح عينَيه الشّمسُ النّاعسة. لقد خرج منْ صمتهِ وجموده واعتكافه داخلَ البستان!

سألني بنوعٍ من الحياء، كأنّه يسأل عنْ شيءٍ غير مرغوبٍ فيه:

- هل تنصحينني بالذّهاب إلى إحدى الأسواق؟

قلت له: «بالتأكيد! أنت لا تحتاج إلى دليلٍ في هذا الأمر، منْ سارَ في بغداد لا خوف عليه!».

ضحكت عيناه، وأخذ يردّد بإنكار: «لا خَوف عليه! لا خوف عليه!» ثمّ قال: «طيّب، هل تنصحينني بسوقٍ أرتادها؟ أبحثُ عن رائحة الماضي، هل توجد سوق للماضي؟!».

- «اشرب استكانة الشاي ثمّ ستقودك الرّائحة إلى سوق الصّفافير، إنّها على الجانب الأيمن من شارع الرّشيد، افتح عندها أذنيك، ستسمع أصواتَ الطَّرق

على النّحاس، وستتمتّع برؤية الحرفيّين وهم يبدعون أشكالًا وزخرفاتٍ عربيّةً إسلاميّة، قدْ يُلهِمكَ ذلك أو يشبعُ حنينك إلى الماضي، الإنسان يحتاج إلى الطَّرْقِ أيضًا، لا تنسَ ذلك!».

- الراجح أنّ الإنسان مطروق!

قبل أن يندفع صوب شارع الرّشيد، ناولتُه ثلاثَ ورقاتٍ من فئة المائة دينارٍ، فارتبك وهو ينظر إلى يدي الممدودة نحوه، وقال بزفرةٍ غريبة: «لا حاجة بي إلى المال!». كانت زفرةً شرقيّةً لرجلٍ لا يقبل درهمًا من امرأة. لكنّني أقنعته بأن يستلم حزمة الدنانير، قد يحتاج إلى ابتياع شيءٍ يهمّه. تردّدتُ في تركه يسير وحيدًا، ثمّ أحْجمتُ عن التّفكير في ذلك، هل كنتُ أخشى عليه الضّياع أمْ أن يرْحلَ ويتركني؟ لا أعرفُ، مجرّد هلوساتٍ سيطرتْ عليَّ. مازالت صورة اندفاع ماجد في اتّجاه البصرَة، تُدمي ذاكرتي.

في اليوم التالي لم يخرج إلى العمل! هل انسحبَ سرًّا إلى مكانٍ آخر؟ كانَ يصعب عليَّ الجزم. لم يعتد مغادرةَ البستان وحدَه إلَّا لمامًا. لكنّه في ذلك

اليوم غاب النهار بطوله. وفي المساء اضطررت إلى البقاء متأخّرةً كي أطمئنَّ عليه. خمَّنتُ أنّه تاه حقًّا، أوْ اختلى بنفسه أمام نهر دجلة، يستلذّ بمنظر النخيل وهو يترامى على أطرافهِ. وفي النهاية عادَ وفي عيْنيه نَعَسَ الكَلامُ. هل كانَ يشعرُ بأنّ الوحدة مرهقة؟ وهل قضّى اليومَ بمفْرده. مستحيلٌ أن تهدأ فيه رغبة الرحيل، هذه الرّغبة تحتاج إلى تخطيط، والتّخطيط لا يُصمَّم بشكلٍ منفرد. لكن لو أنّه التقى شخصًا مّا، فهل يكون البروفيسور؟ أنَّبتُ نفسي لأنّي لم أنتبه إلى هذا الاحتمال، طه لا يعرفُ غيرَ بيت البروفيسور ولا شكّ أنّه قضّى اليوم معه. استَعَرتْ نارُ الفضول في نفسي منْ جديدٍ. غيابُ يومٍ، واحتمالُ لقاء البروفيسور، ولغز حزمة الأوراق، كلّها شراراتٌ تَطرقُ رأسي.

لم يدْعُني إلى دخولِ غرفته، اكتفى بالقول إنّه متعبٌ وسيلوذ بالنوم. لكنّني سألتهُ:

- «هل بكَ شيْء؟».

- «لا، لاشيْء! غدًا نتحدّث».

غرقتُ في الوساوس، قبلَ أنْ تتوارى قامتهُ الملتفّة

بمعطفٍ خفيف. كانَ الطقسُ يجنحُ إلى البرودةِ، لا رذاذ، رغم أنّ الأُفق أَسْود. فأشعلتُ سيجارَةً، ثمَّ تنشّقتُ نفسًا فاترًا، زفرتُه بصعوبة، ولاحت لي صورة أبي محمّد فدمعت عيناي. لمنْ تركتني يا أخي وسيّدي ومولاي؟

***

في الطريق إلى مديريّة الأمن، كانت الحيرة تستبدُّ بي. ومع كلّ خطوةٍ كانَت الريح تنفخ في عباءتي من الأسفل. وعند مدخل المديريّة تساءلتُ: كيْف أداري قلقي؟ كانَ سائق التاكسي يتابعُ تباطئي في الدخول ويدخّن سيجارتهُ بعجلةٍ، كأنّه على قلقٍ أكثرَ منّي. سألتُ الضّابط الجالس خلف مكتبٍ حديديٍّ رثٍّ عن أبي محمّد، فطلبَ منّي أنْ أعطيه الاسم الثلاثيّ وسألني: متى قُبِض عليه؟ وما تهمتهُ؟ ولماذا جئتِ للسّؤال عنه؟ اندهشتُ من أسئلته، فتلك كانت أسئلتي التي تلدغ جسدي كبراغيث شرهة. كنتُ أسمعُ في الدّاخل أصوات جلبَةٍ ما انفكّت تعلو من غرفةٍ مجاورةٍ، اختلاط صياحٍ ببكاء، فازددتُ قلقًا، عجّلت بالإجابة على أسئلة الضابط. عليَّ أن

أعرف مصير أبي محمّد قبل أن ينفتح باب تلك الغرفة. بدا الضّابط مُرتبكًا، وقال لي وهو يتصفّح السّجلّ الذي أمامه: «الواسطيّ، آه هذا المتّهم بتهريب الكتب تمّ نقله!» أردت استيضاح الأمر: لماذا؟ وكيفَ؟ وأين؟ لماذا اقتادوه بعد كلّ هذه الأشهر إلى مكانٍ مجهول؟ قالوا لي عند زيارتي له آخرَ مرّةٍ إنّهم يُبقونه تحت المراقبة، ولا داعي إلى تكليف محامٍ، فالقضيّة لا تتعلّق بجنايةٍ مخصوصة تستوجب الدفاع، ثمّة شكوك في أمره! ما هي الشكوك؟ سألت الضابط ألف مرّةٍ، وهو يردّد: «لا أعرف، تعليماتٌ من فوق بأن يبقى ضيفًا عندنا. فهذا النوع من القضايا مختوم بالشّمع الأحمر، إنّه يشبه قضايا أمن الدولة». «أمن الدولة! ومتى كانت الكتب جزءا من أمن الدّولة؟ وإذا كان ضيفًا لديكم فهل يُسلَّم الضّيف إلى مَضافةٍ أخرى دونَ علم أحد؟» تمسّكتُ بالسّؤال مجدّدًا، لكنَّ الضابط أقسم لي أنّه لا يعرفُ شيئًا، وأنّه لم يكن موجودًا ساعة نقلِهِ، وعليَّ أنْ أرجع إلى البيت، فلا أحد سيُفيدني بالوجهة التي نقلوه إليهَا!

تسمّرتُ في مكاني. لا يُعقل أنْ أفقد زوجي وجنيني، والآن أخي، ثمّ أعود إلى البيتِ. أردتُ أنْ

أركض في اتّجاه الغرفة التي تصدر منها الأصوات، خمَّنتُ أن أجد رئيس المديريّة، لعلّه يبوح لي بالحقيقَة. لا يُعقل أنْ يظلّ شخصٌ قيدَ الاستجواب طيلة أشهرٍ بتهمة تهريبِ نسخةٍ لمخطوطٍ قديم، ثمَّ يودعُ مكانًا مجهولًا خارج المديريّة. ركضتُ بأقصى سرعتي حتّى شعرتُ بأنّ الغرفة أبعد ممّا كنتُ أتصوّر، خدعتني الأصوات بمرارتها، إنّها في طرف رواقٍ شاحبٍ متّسخ. لم أنتبه إلى الضّابط يصيحُ منْ ورائي، وخطاهُ تقرعُ طبلةَ أذني، توقّفتُ أمام باب الغرفَةِ. لم أعد أتبيّن صراخَ من بالدّاخل وصياحَ الضابط خلفي. اندفعتُ أضربُ البابَ بيديَّ إلى أن خفتَ الصّراخُ رويْدًا، وفُتح البابُ.

قفَزَ ضابطٌ آخر، سمعتُ الضابطَ الأوّل، يقول مختنقًا:

- «سيّدي الرّائد، هذه المرأة مجنونة، وينبغي إيقافها!».

عضّ الرّائد شفتَه السّفلى، بدأت فقاقيع الغضب تخرجَ من فمه، كانَ قصيرًا ومنتفخًا كإجّاصَةٍ فاسدةٍ، بين أصابعهِ عقب سيجارةٍ مطفأة، وحاجباهُ كأنّ

يغطّيان عينَيه المتورّمتين من قلّة النّوم. رشقني بنظرةٍ حادّةٍ وأخذ يصيح:

- «كدنا نقتلع الاعتراف، لولا هذه القـ..ـة».

وأطبق الباب أمامي.

في حياتي كلّها لم يُخالجني هذا الشّعور بالمهانة!

أطبق الضابط بيده على عنقي، خلتَنِي سأسقط لولا أنّه دفعني وهو يزبد بسيلٍ من الشتائم. هدّدني بِجَرِّي إلى الغرفة إن لم أغادر المكان فورًا. صحتُ في وجهه: «لن أتحرّك من هنا إلّا بعد أن أعرف أينَ أبو محمّد!» زمجرَ مجدّدًا، وقذفني على البلاط المتّسخ، صرتُ مثلَ قطّةٍ أتلوّى، لا أدري أينَ ضربني، ولكنّني تكوّرتُ وقبضتُ على خصري أحاول الوقوف. سمعتُه من خلفي يعوي: «انهضي حتّى أضربَكِ منْ جديد!». تحاملتُ على نفسي ووقفتُ. رأيتُ في عينيه سخريةً طافحة، ظنّ أنّني أتمرّدُ على أوامره. يمكنني أنْ أحتملَ أيَّ شيءٍ، ما يهمُّني هو ألّا أخرج من هنا إلّا بعد فهم ما يحدث لأبي محمّد. اقترب الضابطُ منّي، أخذ يُلوّحُ بمفتاحٍ في يدِهِ، ثمّ فتح بابَ غرفةٍ محاذيةً لغرفة الرّائد، وأمرني بأنْ أدخلها. ظننتُ بطيبتي أنّهُ

يُدخلني قاعة انتظار! ولم تبتلعني الوساوسُ كحشرةٍ ساذجة في بيت العنكبوت إلّا بعد أنْ ارتطمت قدمي بشيء ثقيلٍ أوّلَ ما دلفت، وغاصت عيناي في سوادٍ موجعٍ هزّني بعد أنْ أغلَقَ البابَ بعصبيّةٍ خلفي.

ظللتُ حبيسة الغرفة ساعاتٍ. كان الصّراخ في الغرفة المجاورة يزداد قرعًا لطبلَة أذني، ولم أستطع الاستدلال على أيّ شيءٍ منْ حولي، هل هي مهجورةٌ؟ ولكن ما الشيء الذي كاد يُوقعني عند دخولي؟ حاولتُ أن أتلمّس الأشياءَ في المكان فانحنيتُ حتّى أقتربَ من الأرْضيّة، لكنّني لم ألمس غير البلاط، وفي الوقت نفسه سمعتُ ما يُشبه الحفيفَ، خفتُ حقًّا، لعلَّ الغرفة مأهولة! تسمّرتُ في مكاني، ثمَّ تقهقرتُ إلى أنْ لامستُ الجدار، حمدتُ الله أنّ لكلّ غرفة جدارًا. في تلك اللّحظة استشعرتُ أنّ العالم متاهة، وقلتُ في نفسي: «لذلك تتقاذف الإنسانَ أمواجُ الحياة، وكلّنا منذورون للسّقوط!» الجدارُ نعمة، لولاهُ لقتلني الإحساسُ بالضّياع والتّهاوي والذّوبان، لولاهُ لوقعتُ في التبوّل اللاّإراديّ! تواردت عليّ صورٌ عفنةٌ، هل سيتركونني

هنا دون اكتراث؟ هل أصرخُ حتّى ينتبهوا إليَّ، ولكن لنْ يستطيعَ صُراخي أنْ يعلو فوق صراخ مَن بالغرفة المجاورة. ثمّة فرْقٌ بين صراخِ المشدوهينَ مثلي وصراخ المعذّبين. هل قلتُ المعذّبين؟ تخيّلتُ أحدهم يفتح الباب ويفعل بي ما يشاء، فلذتُ بالصّمت كأنّ الضرب لن يكون فعلاً قاسياً أمام الاحتمالات الأخرى.

مرّت ساعاتٌ أحسستُ خلالها بأنّني في قبر! دوّى الصّمتُ فيَّ حتّى شددتُ أعصابَ بطني إذ وخزني ألمٌ غريب. أمّا الحفيفُ فقدْ خرسَ تمامًا حتّى إنّي سخرتُ منْ نفسي، وقلت: لعلّها كانتْ وساوس. في الظّلمة لا تولد غير الوساوس. يمتدّ الوقتُ، يطولُ في اتّجاه العمقِ، بقدرِ غرابة ما يحدث، وغرابَة الضابط وذاك الصّراخ اللعين الذي لا يتوقّفُ، صراخ لأكثر منْ شخصٍ، كأنّها أجسادٌ تحترق وآهاتٌ تفورُ من التنّور. يا إلهي ارحم عبادكَ! فجأةً عاد الحفيفُ منْ جديد، تجمّدتْ أوصالي، كيفَ يُمكنني أن أسمع الحفيف وسط غلواء الصّراخ القادم؟! لقد صارت أذنايَ، من شدّة الهلعِ وجمودِ أعصابي، تسمعان دبيبَ الهواءِ في الغرفة. هذه المرّة تأكّدتُ أنّ

الحفيف موجود! ربّما هو مواءُ قطّةٍ لم تأكل منذُ أيّام. تسرّب إليَّ الشكّ في أنّه حفيف كائن! قطّة! ينبغي أنْ يكون مواء قطّةٍ مكتومًا، ذاك أفضلُ من التسليم بأن تكونَ أنفاسَ إنسانٍ شبه ميّتٍ يُجاورني في خلوتي الدّامسة!

لم يُنقذني من الشّكّ غير صوت انفتاح الباب. أخيرًا!

صاحَ الضّابط: «تريدين البقاء أكثرَ؟ لوْ نبستِ بحرْفٍ واحدٍ لتركتكِ جنْبَ كومةِ اللّحمِ تلك!».

آه! الحفيف! هو إذَن أو هي! ركضْتُ كأنّما تخلّصتُ منْ جثّةٍ وقعتْ على كتفي. لهثْتُ ما إن خطوتُ خطواتٍ في الرّواق. لم أتابع أزيز صوتهِ. فكّرتُ في النّجاةِ منَ الغرفة والضابطِ والمديريّة، وكومةِ اللّحم!

لمّا خرجتُ من المديريّة تلقّفني ظلامُ اللّيلِ. شعرتُ بأنّني خنتُ أبا محمّد! لماذا استسلمتُ سريعًا؟ كم هم مخيفونَ. إنّهم في كلّ عصرٍ متشابهون! لم أستطع التطلّع إلى الطريق منْ خلفي. كانَ هناكَ ظلٌّ شرِسٌ لمبنى المديريّة، تلقي به الأضواء الصفراءُ

وهي في نزعها الأخير! فقلت في نفسي: لا داعي إلى الاستماتة من أجلٍ معلومةٍ قد لا يكونُ لَهَا معنًى مادام صوتُ الصّراخِ هو الذي يُطبق على المبنى. هل أشعلُ سيجارَةً؟ ليسَ الآن، قدماي تتعثّران كأنّني دُستُ على زجاجٍ مكسورٍ. إذا لم يكن أبو محمّد في المبنى حقًّا، فذلك يعني أنّهم رحّلوه إلى مكانٍ غيرِ معلوم. يا إلهي! يحترق قلبي. احذري يا ثناء! عليْك أن تختاري بين البقاءِ وسطَ المخاوفِ والتفكير جدّيًا في الهروب هذه المرّة، ولكن كيف أهرُبُ وأترُكُ معلّمي؟

لا أدري كيفَ وصلتُ. وجدتُ البروفيسور عبد القادر في انتظاري مع طه، لا أذكرُ أنّني رأيته متجهّمًا كما رأيته في ذلك الليل. قال لي: «ما الخطب؟ ليسَ منْ عادتِكِ ترك الدكّان مفتوحًا إلى هذه السّاعة، وأينَ كنت؟ لقد انتظرناكِ طويلًا، خشينا وقوع مكروه لك». كانتْ عيناهُ تشعّانِ خوفًا، فترتعش الحدقة كأنّها إبرةُ ساعةٍ فقدتْ التّوازن. راح طهَ يعاتبني بنظراته الشّاخصة. كيفَ تركتهُ وحيدًا، لكنّني في لحظةٍ خاطفة، شعرتُ أنّه يلومني لومَ محبّ! لم أرغب في إعلامه، فلو أخبرته بذلك

لتمسّك بالذّهاب معي. ظننتُ أنّني سأنهي الموضوع في ساعة. منذ سنواتٍ تعوّدت على العيش منفردةً والتصرّفِ بما يُمليه هذا العقلُ المستقلُّ رغم وجود أبي محمّد. أخبرتهما بما جرى وأنا أرتعش. أومأ إليّ البروفيسور بأن ندخل البستان، جلسنا ثلاثتنا نفكّر في الأمر. لاحظتُ قلق طه أكثر من السابقِ. عندما تحدّثتُ عن حبسي ساعاتٍ وأنا واقفة، رفعَ عينيه إلى أعلى السّقف، ثمّ جلدَني بنظراته: «كانَ عليْكِ أنْ تخبريني كيْ أكونَ معكِ».

قال البروفيسور: «ليسَ لي البأسُ الكافي لأذهب إلى المديريّة، ينبغي تكليفُ عارف بهذه المأموريّة، عليه أن يتصرّفَ ليمدّنا بالمعلومات الكافية حول مصير أبي محمّد، للضبّاط جيوبٌ في سراويلهم، ولا يُعمي عينَ الجيب غيرُ الدّينار!».

نهضتُ لأغلق الباب الموارب، وتردّد صوتُ طهَ وأنَا أُبعدُ كراتين الكتب من خلفِ البابِ: «إذا غاب أبو محمّد في المديريّة أو خارجَها فذلك يعني أنّ الدّور القادم عليَّ!».

لم يُجب أحدٌ منّا. فقد سحبت أنفاسَنَا كلماتُهُ. كنتُ

أعرفُ أنّ كلَّ السيناريهوات واردة. وقد استحال الوطن الكبيرُ إلى هذه الحدود الضّيقة في البستان، سحبتُ الهواءَ منْ أعلى السّقفِ، واختنقت داخلي عبرةٌ غريبَة، صمّمتُ لحظتَها على أن أطلب من البروفيسور البوحَ لطه بما يعرف عن الأعوان، حان الوقت لكي يعلم من نحن، ولماذا يسعل البروفيسور منْ شدّة الجزع بأن يُفتضح أمرنا، وقدْ أيقنَ أنّ طهَ الغريب ليس غير مشروع مُطارد، ومشروع سجين، وهو حيٌّ ميّت إن لم يهرب!

ظلَّ البروفيسور فاغرًا فَمُه، لم ينبس بحرْف. كيف لطه أنْ ينجو بسرعة؟ لا بدّ من حلّ. لا بدَّ من حكمةٍ سماويّة. في يوم من الأيّام فكّرنا في دفن الكتب، وطردنا فكرةَ تهريبها خارج الحدود. قلنا إنّ ما للعراق يبقى للعراق! حبرُ العراق لأبناء العراق! صمَّمنا على أن تبقى الكتب تحت الأرض حتّى يأتي يومٌ تُبعثُ فيه مثلما تُبعثُ الأرض والأمل والطفولة من جديد!

ظّل البروفيسور صامتًا، ثّم توجّه نحوي وقال: «تكلّمي أنت سيّدة المكان!».

كان وجه طه يتغيّر تحت وقع حروفي: «بقاؤنا جميعًا

هنا خطرٌ علينْا، ينبغي إعلام عارف، أبو محمّد طرفُ الخيط ونحن اللاّحقون، هؤلاء سفلة، ومن الأفضل أنْ نغادر، هذه المرّة سنضطرّ إلى تهريب أنفسنا، حتّى لا ندفن في قبو لا نعرفُ مكانهُ!».

أصبحَ وجهه أزرقَ كقطعة فسيفساء ملقاةٍ على رصيفِ مرقد الجيلاني.

قال البروفيسور:

- «لا خيارَ لنا غير الهرب. هؤلاء لا يميّزون عُصبَةَ العلم من عصابة اللّصوص أو الجماعات السياسيّة، كلُّ منْ يحملُ كتابًا غير كتابهم يحسبونه معارضًا، وخائنًا لحزبهم. وكلّ من لا ينطقُ بما ينطقون يعتبرون فنّه إفكًا وأدبهُ منحرفًا، والوطنيّة لديهم تقاسُ في حدود صور القائد الملوّنة!».

ليلتها لم نتعشَّ، كانَ تفكيرنا منشغلًا بإمكان مداهمة البستان في أيّ لحظة، كنّا ننتظر أنْ يقتحم المدجّجون بنار الكراهية قلعتَنا الصّغيرة. وخفتُ أن يأتوا بالكلاب تبْحث عن رائحة كتبٍ مخفيّة، فيُكتشف أمرُ المدفَن! قد يأتون ويصوّبون فوّهات بنادقهم نحونا، ويقلّبون رفوفَ الكتب، ويسألون

عن نوعها، ويثرثرون حولَ عبثنا في جمع الكتبِ التي لاَ تقاومُ الحصار ولا تتحدّث عنْ أمجاد الحزب. سيضعوننا واقفين خارج البستان في عراء اللّيل الموحش، ينهشنا البردُ والخوفُ من ركلاتٍ جانبيّةٍ مفاجئة، ووجوههم الشاحبة نتوهّمُ أنّنا كتيبة أعداء، لا أدري لماذا رأيتهم في صورة جند هولاكو وهم يصيحون، «لن ننسحب قبل إحراق المكتبة»، وتراءت لي لعنة هولاكو وهو يزبد: «سمُّهم في لسانهم، أحرقوا مكتباتهم!».

باغتني طه، وأخرجني من ضياع التهيّؤات، حين قال بلهجةٍ عنيفةٍ: «ماذا سنفعل الآن؟ قلت لكم ألف مرّة أخرجوني من هذا البلد!» فجأةً تفطّنتُ باستغرابٍ إلى ذلك العَرق الذي يتصبّب على وجهه، كأنّه زيتٌ يَفُور من شجرة زيتون أسطوريّة، فأخذتُ إيشاربي الأسود لأمسح به عرقهُ دون مبالاةٍ بنظرات البروفيسور وعارف. ماذا سنفعلُ حقًّا؟! يا لهُ منْ سؤالٍ بسيطٍ وملغزٍ في آنٍ واحد! في هذا الجزء من العالم يغدو حالنا أشبه بحالِ منْ سبقونا في أزمنةٍ بعيدة، أولئك الذين خيّروا الصّمتَ والغياب والهروب إلى الجبالِ بعيدًا عن بطش بني العبّاس.

كأنّ تاريخًا مقفلًا بصدد التفتّح من جديد، هذا التاريخ المنقوشُ في الدنيا، يقتحم مفاصلنا وعظامنا، كشتاءٍ موبوءٍ يُنذر بالشّؤم.

في ذروةِ شرودنا، كانَ البروفيسور يعبث بورقةٍ بيضاء، يخطّ عليها خطوطًا غريبة، وينظر خلسةً إلى طه. كانت أصابعهُ تتراخى قليلًا ثمّ تعودُ إلى الدّبيب، كأنّ يده أرجوحةٌ، ويواصلُ الخطَّ حتّى صرنا ننتظر انتهاءه ممّا يخطُّ، ظننتُ أنّهُ يرسم خارطة هروبنا! فوجئنا جميعًا بأنّه يرسم اسكيتشًا لطه، صوّره في هيئة بائع عرق السّوس وهو يمسكُ الكأس النحاسيّة، ويحملُ عبوّته النحاسيّة ذات الخرطوم الطويل وأقداحهُ ثابتة، وبعد أن انتهى وهدأت أصابعهُ، قال بنفسٍ بطوليٍّ فاترٍ: «الآنَ علينا أنْ نذهب، لنترك بائع السّوس يُهيّئ لنا في الغد عصيرَ الرّحيل!» قلتُ في دخيلتي: «إذا اشتدّ الهمّ اتّسع النظر، ولكن ليس إلى درجة أنْ يكونَ الحلّ بيد طه!»، رمقني البروفيسور كأنّه قرأ استغرابي، وقال وهوَ يستعدّ للرّحيل: «إذا حلّت الإشارات في قلبِ واحدٍ منّا فليتبع قلبهُ». وقف عارف يُسنده، شعر بأنّهُ قد يفقدُ اتّزانهُ، ثمَّ انسحبَ معهُ إلى خارج البستان دونَ أنْ

ينبسَ بكلمة. عليَّ أن أنسحبَ أنا أيضًا، فالأنين في نبرة طه يَحْزُنِي: «من منّا سينامُ هذه الليلة!»، كان يُداعبُ بأناملِهِ كتابَ «الينابيع» للسجستاني وهوَ مُلقًى على طرفِ المنضدة، وقد تهرّأت حوافّه. لا أعرف من أيّ كرتونةٍ سحبهُ خلالَ هذه الأيّام. ثمّ انتبهتُ إلى أركان الغرفة، وأحسستُ بأنّ تغييرًا طرأ عليْهَا، فاعتراني إحساسٌ بالغرابَةِ. لقد لمحتُ حزمة ورقٍ في طرفِ خزانة المخطوطات، حوّلها الضّوءُ الفاترُ إلى ما يشبه المخطوط القديم. هل هي الحزمة نفسها التي أبحثُ عنْهَا؟

كنت واثقة على نحوٍ مّا بأنَّ طه غير الغريب الذي عرفت قبل أشهر. فكّرتُ في ذلك طيلَةَ أيّامٍ، هذا البستان مثل بيت التوليد، ما دخله أحدٌ إلّا خرج منهُ شخْصًا مختلفًا! عندمَا ورثناه عن أبينَا، لم نفكّر في بيعهِ لمغادرة العراق، حتّى مصاريفُ هروبِ عالية إلى هولندا جمّعناهَا عامًا بعد عامٍ من محاصيلِ بيع الكتب! هذا البستان لا يُباعُ، عندمَا ورثناهُ وجدنا بهِ كتبًا فريدَةً، قال عنها أبو محمّد إنّها أهديتْ إلى أبينا من أحد المشايخ قبلَ أن يودّع الدنيا. قيل إنّها جزءٌ من الخزائن التّسع لمكتبة الأوقاف العامّة، وكانَ أبو

محمّد يخفيها عن الأنظار، ولا يُخرج منها كتابًا لأحدٍ إلّا إذا صارَ من الأعوان.

لم يكنْ البستانُ مستودعَ كتب، بلْ مستودعَ أسرار، ولم أتوقّف يومًا عن التفكير فيه، ظللنا أسبوعًا كاملًا نفكّر، وظلّ طه يعملُ معي بنخوةٍ، فيجلسُ منفردًا في تحدٍّ لمشاعرِ الخوفِ، تعبثُ به نسمات الشّتاء الذي بدأ يهلُّ بعدما مرّ فصلُ استواء الليل والنهار، وتسلّل الحزنُ رويدًا إلينْا.

عزيزي القارئ، إن كنت تقرأ هذا الكتاب من موقع إلكتروني أو على شكل كتاب مطبوع، فتأكد من أنك تقرأ كتاب مسروق وليس لمن أخذه الحق في ذلك، وهذه النسخة مجانية بشكل كامل على قناة ضَـاد في تطبيق تيليجرام. فتأكد من أنك مشترك فالقناة وتحمل الكتاب منها. أعتذر على المقاطعة، قراءة ممتعة.

نقش

«حين لم يكن هناك إله له اسم
حين لم يكن هناك قدر مرسوم»

لم يكن الفضولُ مَا قادني إلى اليمن. والطّائرة المؤدّية إلى صنعاء، بعد أنْ حطَّت في مطار أسمرة بأريتريا، لم تحملني إلى مزارع القات (3)، بل ألقتْ بي في زمنٍ أوغلُ قِدَمًا ممّا كنتُ أعتقد! أخبرني هيرو أنّ الوقت مناسبٌ للسّفر، فبعد إعلان الوحدة بين الشّمال والجنوب، ستسير الحياةُ بلا قلاقل، ونستطيعُ اكتشافَ ما ينبغي اكتشافهُ والتحرّك بيسرٍ أكثر في المناطق التي هدّها الاقتتال والانقسام. لا أعرفُ هل كان هيرو قد بالغ في تقديره، لكنّني قدّرتُ أنّه أدرى منّي بشؤون اليمن الداخليّة، وأخذتُ كلامَه دون استفسارات كثيرة، فقد بلغتنا أصداءُ الوحدة اليمنيّة، والأفراح المفاجئة لاتّحاد اليمنيّين أخيرًا. أمّا أبي فلم يكنْ رأيه من رأي هيرُو، كان يقول: «اليمن شجرةُ قاتْ لا يطول تعقُّل أصحابها!»».

خيّرتُ الرحلة على العملِ في دائرة الآثار بالخرطوم.

حاول مدير الدائرة استمالتي: «نحن في حاجةٍ إلى الكفاءات الجديدة، وأنت خرّيج الإسكندريّة، ومن المناسب أن تلتحق بالبعثة السويسريّة في الشّمال، لا تتخلَّ عن فرصة العمل مع شارل بوني، هذا رجلُ كرامات أثريّة! «لكنني لم أكفّ عن التفكير في الالتحاق بهيرو والتعرّف على الشبكة. قبلَ سنواتٍ ما كان لي أن أتخيّلَ حتّى فكرة السّفر إلى اليمن. وفي ذهني هلاوس بشأن الرهائن في أزمنة الحكم الإماميّ، وإمكانيّة تواصل نظام الرهائن رغم إلغائه منذ سنواتٍ ورغم وجود الدولة، فقدْ يفنى شكله القديم وتبقى في عروق الأحرار دائمًا مخاوفُ العبوديّة. خشيتُ أنْ يقعَ القبضُ عليّ بسحنتي المائلة إلى السّواد، واستخدامي رهينةً، هي مجرّد هلوسات ممكنة الحدوث، فالدّخول إلى اليمن السّعيد استسلامٌ تامٌّ للمجهول!

لا أعرف عن اليمن غير القليل، حكاياتٍ عن قلاع صنعاء وحصونِ شهارة وتَعز والحُدَيدة، أعرف كيف تحوّلت في عهود سابقَةٍ إلى قبورٍ لأبناء اليمن، فدُفنوا أحياء في ظلمة الحجرات، وكيف استخدم الحكّام رهائن القبائل لإخماد صوتها والبطش

بها. فالحاكم حتّى عندما يسافرُ خارج اليمن للعلاج يأخذ معه عددًا من الشّخصيات القياديّة رهائن، لأنّ بقاءها في اليمن يهدّد بقاء السّلطة. فكانت القبائل تسلّم فلذات أكبادها تحت سياط القمع إلى أن تمرّدتْ. لكنّي كنتُ أتساءلُ: هل انجلى نظام الرهائن حقًّا؟!

وأنا اليوم رهينةٌ يا ثناء!

كانت زيارتي إلى اليمن مهمّةً لأكثر من سبب، إذ أتاحت لي الابتعاد عن شبح تزويجي السّريع، وكانت فرصةً لتوفيرِ المال لأهلي، وخمّنتُ أنّها قد تمنحني الشّجاعة الكافية لأكون مترحّلًا غير مستقرٍّ في مكان!

استقبلني سائق الوكيل الملاحيّ، شابٌّ يمنيٌّ نحيف، وفتح لي باب سيّارة المرسيدس السّوداء. كان طرازها قبيحًا، لكنّها نخمةٌ بالقياس إلى السيّارات الأخرى. ألقى الحقيبةَ في الصندوق الخلفيّ بصلفٍ اهتزّت لهُ جنبات السيّارة. شعرتُ بأنّهُ غير متوازنٍ، ينقصه شيء! وقلتُ في نفسي: كيفَ يكونُ المصير من صنعاء إلى الحُديدة، والسّائق متوتّرٌ كأنّه

سيحملني عبئًا على كتفيْهِ؟

في الطريق، أخذ يشقّ السوق، ثمّ توقّف في مكان ضيّق، ونزل دون أن يلتفت إليّ. كنتُ أستطيعُ ملامسة الخضروات الملقاة على ناصية الطريق بيدَيَّ، وفهمتُ أنّنا في وسط سوق القات. لم يغب السائق طويلًا، حملَ بيده كيسًا صغيرًا من القات الأثيوبي، مثلما قال، وهو يطلقُ ابتسامةَ نصرٍ غير مفهومة! وجلب معه قارورة ماءٍ وميراندا واحدة وضعهما جنبه، وعلى امتداد الطريق، لم أكن أقتنص غير مرأى سيّاراتٍ تعبُرُ حذونَا وكلُّ ركابها منتفخو الخدود. وكان السائق إلى جانبي يُخزّنُ هو أيضًا، ولا يتكلّم! حينَ دخلنا منطقة الجبال لم أتردّد لحظةً في محادثته، كنتُ أهربُ بعينيّ عن تلك المهاوي، بينما السيّارة تسيرُ بسرعةٍ خرافيّةٍ على حافّة الطريق الجبليّ. هذا نوعٌ من الجنون، السّرعة على مشارف الهاوية! حاولتُ أن أغرق نفسي في المحادثة بشكلٍ يكاد يكون مفتعلًا، أبرّرهُ بخوفي من الموت. صرتُ في تلك الساعات رهينةً لدى السّائق. ومن خلال الحوار المغلّف بالابتسامات، عرفتُ أنّهُ منْ أبناءِ صنعاء، ولا يحبُّ البحرَ وركوبَ السفن. أحسستُ

في تلك الوهلة بأنّه يشبهني، لكنّي انزعجتُ من طيفِ هذه الفكرة حينَ لمحت لعابًا أخضرَ ينسكب منْ فمه وهوَ يحكي. تقزّزتُ منْ هذا المنظرِ وحوّلتُ عينيَّ إلى نافذة السيّارة، ثمّ أغمضتُهما خوفًا منْ منظر الهاوية التي تحفّ بنا. دخلتُ الظلمة بينما الجوّ صحوٌ، والقيظ يتسلّل من خلف البلّور، فقد كانت صنعاء باردةً في ذلك الصيف بينما غرقت الحديدة في الحرّ الشّديد، رغمَ انفتاحها على البحر.

وصلنا إلى فندق الميناء القريب من البحرِ. وجدتُ هيرو في انتظاري، كانت سحنته متغيّرةً قليلًا، لكنّ ابتسامته الخبيثة لم تفارق شفتَيه. جلسنا في صالون الفندق فترةً، طلبَ هيرو لنا «الشاهي»، هكذا يسمُّون الشّاي في اليمن. أحسستُ بمرارته وأنا أتذوّقه، رغم أنّي غمستُ فيه كثيرًا من السكّر. سألني عن أحوال السّودان بعد الانقلاب، وسألته عن تأثير الوحدة بين الشّمال والجنوب في أحوال الناس، وفيه شخصيًّا. فأخبرني أنّ التغيير ليس له تأثير، مادامت السياسة لا تشمل أعمالهُ ولا تكسر شوكة الموج على شواطئ الحديدة! أبانت لي نبرته أنّه أكثرُ اتّزانا من هيرو الإسكندريّ، حتّى هيئته مختلفة، وأصابعه ازدادت

لمعانًا بالخواتم التي ترفلُ في فصوصٍ عجيبة.

كان الفندق من غير تكييف، وأُجبرت ليلًا على استخدام الناموسيّة درْءا للحشرات. اضطربت حين فتحتُ النافذة في الصباح، ورأيتُ البحرَ يتطلّع إليّ متهكّمًا. تفقدّت آلة التصوير التي صحبتها معي وحرصتُ على وضعها في حاويتها الجلديّة، على ألّا أستخدمها إلّا في أماكن العمل. أبناء الحديدة اعتادوا على صوتِ آلات التصوير منذ عقودٍ، فقد كانَ الرحّالة والمستشرقون يجوبون المدينة وهم لا يكفّون عنْ رشقِ كلّ شيءٍ بعين الكاميرا. استعددتُ لانتظار هيرو في لوبي الفندق، وتساءلتُ للمرّة الألف كيفَ قبلْتُ بأن أكون عضوًا في الشبكة. استعدتُ مكرَ هيرو إزاء حيْرتي وتخوّفي، بقوله إنّ أعضاء الشبكة لا يدينون بدينٍ واحد، فيهم المسلم والنصرانيّ واليهوديّ، والهندوسيّ أيضًا، بل حتّى من كانَ دونَ ملّةٍ أو دين! في الإسكندريّة زاد ارتيابي أكثر حين أخبرتُ «نبّاش القبور» فباح لي بأنّه عضوٌ في الشّبكة رغم عدم معرفته بهيرو، وأوعز إليّ بأنّ أطراف الشبكة غير معلومة، وأعضاؤها ينتشرون في الأرض ولا تجمعهم غير أهدافٍ مشتركة وهي «الرحلة من أجل

البحث». وحين عبّرتُ عن عدم فهمي لذلك، قال لي: «إن أردتَ أن تكونَ عضواً في الشبكة فعليك أوّلًا أن تحفظ الأسرار، ومشكلتكَ أنّ طيبتك الطافحة أكثر من اللزوم تجعلُ لسانَكَ يثرثر». الإنسان يُحاول أن يتعلّم، ولكنّ لغة الطلاسم صعبة. طلبتُ منهُ أن يفهمني ما يعنيه بـ«الرحلة من أجل البحث»؟ عمَّ البحث، وأيّ رحلة؟ عَبْر البرِّ هِيَ أم عبر البحر أم في الفضاء؟ سخر منّي الشناوي، وربّت على كتفي: «هناك منْ يبحث عن الذّهب، وهناك منْ يبحثُ عن معنى وجوده، وهناك من يبْحثُ عن آثار أجدادهِ، وآخرون يبحثونَ عن الله، وحتّى أبناء الزنا يبحثون عمّن قذفوا النطفةَ ثمّ لاذوا بالفرار! يا زول، أعضاء الشبكة لا يبحثون عن شيءٍ من هذا القبيلِ، إنّنا نبحثُ عن الأشياء المنسيّة والمفقودة والمهمَلة في ردهات الأزمنة والأمكنة! وفي كلّ بلدٍ ستجد أعضاء يبحثون عن شيءٍ يعنيهم، وللشبكة في كلّ بلد عنقود عنبٍ!».

ازددتُ حيْرَةً يومَها، احتفلتُ بالصّمت، حتّى لا يسخر منّي الشناوي مجدّداً!

عاودتني الحيرة حين التقيت بأبي محمّد في مطعم بغداديّ، الصّدفة قاتلة أم باعثة للكائن وهو شبه رميم؟ حسب علمي، على الإنسان أن يستسلم لقدره، الصّدفة جزء من قدره، تلك الرعشة التي داهمتني عند لقائي به ليست سوى نداء من المجهول، لقد كان مفتونًا بالكتب، لكنّ شأنه ليسَ شأن أيّ بائع كتب، فقد كانَ شخصًا غامضًا وساحرًا، قنص صحبتي بحديثه عن الكنوز الأثريّة بالعراق، ضرب لي مثل علاقته بالآثار كعلاقة الباحث عن التعويذة، خيّرتُ أن أنصت إليه في أغلب لقاءاتنا في الفندق، ولا أعرف هل لازمني أم لازمته، ولكنّه بقيَ يقلّب الكلمات بين الظاهر والباطن فأسَرني، حدستُ أنّه يُخفي عنّي جوانبَ كثيرةً من حياته، لماذا لم يُخبرني عنك يا ثناء؟ لماذا لم يحدّثني عن شارع المتنبّي أصلًا؟ علّني انجذبتُ إليه بسبب الفضول أو أنّي عثرتُ على صدى المعلّم «هيرو»، وعلّني تجنّبتُ رشقه بالأسئلة، كأنّني أراعي ما قاله لي في أوّل لقاء: «أخي، الإنسان جرّة أسرار، كما في الكتب أسرار خلف الأسطر، وفي الآثار أسرار داخل الحجارة، الكتّاب والأثر كوجه السرّ وقفاه، لذلك كلاهما يستوجبُ

البحث دون جلبة».

ظللتُ أتساءلُ: وما الذي يفيدنا في البحث عن كلّ تلك الأشياء؟ هل ستتوقّف حياتنا إن لم نعثر عليها؟ وما علاقة مشاكل حاضرنا بكلّ ذلك؟ أليست الرحلة على هذا النّحو فقدانًا للحاضر؟! تبًّا، ما تزالُ تلك الأسئلة تخترقُ ذهني إلى الآن.

في صباح اليوم الأوّل وجدتُ هيرو في انتظاري ببهوِ الفندق، بدا لي أنّه حَلَقَ ذقنهُ للتوّ. كان يمسك بيديه جريدةً، ويبدو هندامهُ جديدًا، قال لي: «هل أنت جاهز؟»، فطأطأت رأسي بينما تسلّلت إلينا امرأةٌ تبدو في الثلاثين من العمر، كانَ وجهُها مكشوفًا، بشرتها بيضاء ناعمة، ورائحة الصابون الفاخر تتسرّب منها كفيضٍ ساحرٍ، لم تكن ترتدي عبايةً سوداء مثلَ النسوة اللواتي لمحتهنّ من شبّاك الغرفة يتهادين في مشيتهنّ. كانت امرأة مُبهِرةً أدركتُ للوهلة الأولى أنّها ليست من بنات هذا البلد، وخمّنت أنّها سائحةٌ وعابرةٌ مثلي! كان بنطلونها الفيروزي غريبًا، وسترتها البيضاء تتلألأ، وقبّعتها الأوروبية تخفي خصلات شعرها الأشقر، ووميض

عينيها يختفي خلفَ نظّارتين متّسعتي الدائرتينِ! سبقتْنا إلى الجلوس، وأومأ إليّ هيرو بأن نتبعها ونُجالسَهَا، فتلكّأتُ، خشيتُ أنّه يدعوني إلى التحرّش بهَا، ولكنّه أخذ يضحك وهو يدفعُ بي أمامهُ، ويتمتم: «إنّها زوجتي يا زول!». شخصتُ حقًّا! كيف تكون هذه الظّبيةُ الغريبة في هذا المكان زوجةَ هذا القرصان! هذا الهيرو صندوق عجائب! ابتسم وقال: «أنجليكا، الزّول السّودانيّ كما تَريْن ما يزال على الفطرة!»، وضعت نظّارتَيها على الطاولة ورحّبت بي بكلمات عربيّةٍ انسابت من شفتيها الصّغيرتين بلكنةٍ عجيبة. لم أعلم أنّ الجالسة أمامي ألمانيّة إلّا بعد أنْ تفنّن هيرو في تقديمها! بقيتُ أخمّن وهو يثرثر، من أين اقتطفَ هذه الوردة البرّيّة؟! وهل هي مجرّدُ زوجةٍ أم عضوٌ في الشّبكة أيْضًا؟!

زالَ إحساسي بالاطمئنان فجأةً. ما الذي جمع بحّارًا تابعًا للفيتا بابنة حفيدة سفيرِ ألمانيا السابق لدى أثيوبيا في زمن الإمام يحي؟ وهل لأنجليكا يدٌ في دعوتي إلى اليمن؟ وماذا تفعل امرأةٌ بهذا الجمال في بلدٍ تُغرقه الغرابة؟ كانت الأسئلة تنهشني وتكادُ تعود بي إلى تماسيح النّيل لولا أنّها كانت تقطعُ شرودي بحديثها

عن جدّتها لأمّها التي انبهرت باليمن فغامرت في اكتشاف أسراره ودوّنت مشاهداتها وطريقة عيش اليمنيّين.

قالت لي بوداعة: «تبدأ رحلتك إلى اليمن برحلة قصيرة، وفجأةً نتورّط. حملتُ في داخلي جينة الاكتشاف، وتعقّبتُ خطوات جدّتي، وأنت هل جئت إلى هنا لتعقّب شيء ما؟».

شعرتُ بالارتباك، ارتبكتُ من وميض عينيها أكثر من مفرداتها، التفتّ إلى هيرو، وجدته غارقًا في قراءة الجريدة، فلم أجد بُدًّا من المزاح: «جئتُ متعقّبًا تعاليم هيرو!» ابتسمت وعيناها على هيرُو، قالت بصوت خفيض: «احترس منه، فلن يُعلّمك أكثر ممّا ستتعلّم بنفسك!».

زاد جراب دهشتي اتّساعًا. ارتبتُ فيها مثلما ارتبتُ في هيرُو من قبل. ومنذ ذلك الحين، صرتُ أضبط كلّ كلمة معها، ليس لي ما أخفيه عن نفسي، ومع ذلك، فقد شعرت بحماسة اكتشاف ما هو مجهول عنها وعن هيرو.

لم أتجرّأ على إلقاء أسئلتي. من الصّعب التغلّب على

وخز الرغبة في السّؤال، ولكنّني كتمتُ أنفاسي. فسارعت إلى إنقاذي من الوجوم كأنّها أحسّت بما هو معلّق بين شفتيّ، تحدّثت إليّ كأنّما تعرفني من سنوات: «لكلّ طريق بداية، ولا معنى للطريق دون رفقة، كنتُ أتساءل دائمًا هل كانت جدّتي مجبرة على مرافقة جدّي إلى أثيوبيا؟ وبعد سنوات، فهمتُ أنّ الطّريق هو الذي يُلهمك الرفقة». في تلك اللّحظة، رمقنا هيرو وتبجّح قائلاً: «كنت قدركِ، أمّا أنت يا زول، فلا مفرّ من أن أكون قدرك الآن!».

هذا الخليط الغريب بين إفريقيٍّ سليل الخرافة وألمانيّةٍ سليلة العقل جعلني أتّقدُ خوفًا من الآتي. خرجنَا إلى شوارع الحديدة، ومشاعرُ التوجّس تغمرني. أمشي أم أسرع، لا فرْقَ، خطواتي وخطوات هيرو موثّقة بإيقاع خطواتها، وكانت دليلنا إلى كلّ مكان.

مشينا في شارع جمال عبد الناصر، وهالني منظر الأوساخ المنتشرة في كلّ اتّجاه، المتاجر الصّغيرة تغصّ بالنّساء المنتقبات، حركة البيع والشراء تبدو نشطةً في الأسواق، والباعةُ يبدون مستسلمين لشيءٍ

آخر غير البيع، ولكنَّ حجم البضاعة التي رأيتها لم يسبق لي أنْ لاحظت وفرتَها في السّودان. استقبلنا سور الحديدة كفاتحين، إذ دخلنا المدينة بلا مقاومةٍ تُذكَر، وحتّى عندما حدّثتُ هيرو عن خوفي من تلك الخناجر التي يربطها اليمنيّون بحزامٍ على خُصورهم، هدّأ من روعي وقال «الناسُ هنا مسالمون، وفي اليمن لا يستخدمونها سلاحًا وإنّ كلمة سلاحٍ لا تعني إلّا تلك الثقيلة، حتّى الكلاشنكوف لا يُعَدُّ سلاحًا مخيفًا».

أخذ هيرو يحدّثني عن مهمّة الأيّام القادمة، في حين انشغلت عنّا أنجليكا. كانت تدلفُ إلى متاجر المشغولات اليدويّة، وتغيبُ فيها، ثمّ تخرج بسرعةٍ، غير أنّنا لم نكن نجد صعوبةً في تمييزها من سائر البقع الآدميّة السّوداء. عمّن تبحث؟ إنّها لا تعلن عن نيّتها شراءَ شيءٍ بقدر ما يبدو أنّها تبحث عن شخصٍ مّا. تُرى ما الذي جاء بها إلى اليمن؟ وكيفَ اقتنصها هيرو؟ وما الذي أعجبها فيه؟ كيفَ للقاء الغرب بالشّرق أنْ يَحدث هنا في هذا البلد الذي ما يزالُ يتنفّسُ بَخُورَ القرون السابقة؟

لم تكن أسئلتي وحدَها تُحلقُ في قوام أنجليكا وهي تعبرُ أمام الباعة. فعيون النساء كانت تتعقّبها بفضول. ووسط هذا السّواد العميم تبدو هذه الألمانيّة جنيّةً أو كائنًا سماويًّا، ليسَ في مشيتها غنج، بل استقامةُ منْ يملكُ المكان! هل كانتْ أنجليكا بَرَكَة المكان؟! كلّما لمستْ شيئًا بأصابعها النّحيفة، سارعَ البائعُ إلى لفّه في خرقة قماشٍ وأخفاهُ عن الأنظار! هل كانتْ فعلًا تنشرُ البركة؟ هل هيَ من سُلالة الأولياء؟ لأكنْ صريحًا يا ثناء، أنا كبقيّة الرّجال، سبقني لعابُ الغريزة! أيُّ شرودٍ حملني على التفكيرِ في المرأة؟ أنا الزّول البسيط الذي لم يدرس حتّى بيولوجيا المرأة في المناهج الدراسيّة! كدْتُ، وأنا أعود إلى ماضي شوارع الإسكندريّة وبناتها الملاح، أن أتعثّر في كومة أوساخٍ صارتْ حجرًا جاثيًا في الزّقاق. صاح بي هيرو: «يا رجل. تصطدم بالأوساخ وقد دعوناك لتكون عينًا من عيوننا؟» قهقهتُ مجيبًا: «ومن أين لي أن أدلّك على شيْءٍ وسط هذا الظلام؟!».

حامت أنجليكا حول متجرٍ صغيرٍ لبيع العقيق، فأطلّ البائع مستبشرًا حينَ قبض على ظلّها بينما كانَ شبه مستلقٍ داخل الدكّان، ناداها بملء جوارحه:

«قمريّة!». خلتُ أنّه يُطاردُ شبَحًا آخر. لكنّ هيرو تلقّف حيرتي: «لا عليْكَ، الجميعُ هنا ينادُونها قمريّة من البِشر والبركة!». كان الرّجل الذي خرجَ مهلّلًا أكثرَ سوادًا منّي، لم يكنْ يمنيًّا، فقامته الفارعة تدلّ على أنّه صوماليّ. صافحته أنجليكا بانحناءةٍ خفيفةٍ من رأسها، فطأطأ رأسه وطلب منها أنْ تدخل الدكّان. وتبعنا نحن خطوها. جلست على كرسيٍّ خشبيٍّ صُنِـع مجلسه من الحبال، وظللنا واقفَين. تفحّصني الصّومالي مستغربًا. وابتلع لسانهُ قليلًا. فغمزه هيرو: «هذا صديقٌ، لا تخف!» لا أعلم لم يخاف؟ انسلّت من أسنانه العاجيّة ابتسامةُ المرتاب، ثمّ دخلَ المقصورةَ وأبطأ قليلًا. كنتُ أتفرّسُ في الصّناديق البلّوريّة المليئة بأنواعٍ من الحجر الملوّن. أخذت أنجليكا تفتح العلبة تلو الأخرى، وتداعبُ العقيقَ، ثمّ تقرّبهُ من عينَيها لتفحصه. فغابَ العقيق تحت مقدّمة قبّعتها. وفاحت من المكان رائحةُ بخورٍ عجيب. انتبهت حينها إلى تلك الرّوائح التي تسيطر على الأنوف في كامل أزقّة السّوق. بعد ذلك خرج الصّوماليّ إليْنا، وبيده علبةٌ خشبيّةٌ ملوّنة، من الواضح أنّها تعود إلى عقودٍ خلتْ. سُرّت أنجليكا وهي تتسلّم العلبةَ، وطمأنته بأنّها

ستسلّمها عاجلًا إلى «مرتضى»! لا أعرف منْ يكون تحديدًا، ولكن بدا لي حينها أنّه صاحبُ الدكّان، وفهمت من هيرو لاحقًا أنّه يسكن في منطقة زبيد التي سنتوجّه إليها قريبًا للبحثِ عن النّقوش.

كانَ من الطبيعيّ أنْ نعود إلى الفندق، إذ اشتدّت علينا الرّطوبة، لكنَّ أنجليكا خيّرتْ أنْ تتركنا لتذهب إلى الميناء مباشَرَةً. وصلنا ساعة الظّهر، وقد بدا عليّ تعبٌ غريبٌ. أغلب الظنّ أنّ هذا الهواء الثقيل يحبسُ الأنفاسَ ويجمّد الزمن أيضًا. لا أدري كيفَ قضّيتُ تلك الأيّام في قلبِ ذلك الهواء برئتينِ بشريّتين! قال لي هيرو وهو يمسكُ صدرهُ: «اطمئنّ، ستعتَادُ على هذا الجوّ، وعندما نسيرُ في اتّجاه زبيد تخفُّ الرّطوبة». ثمّ تلفّتَ إلى أرجاء بهو الفندق. وكان المكان خاليًا. بدا متعجّلًا: «غدًا نتّجهُ نحو سهل تهامة، احمل قليلًا من أغراضك، فقد نبيتُ أيّامًا!» قلتُ في نفسي: هل سيتركني وحدي في المساء؟! ماذا أصنعُ في هذا الفندق؟ لكنّ فراستهُ أوقفتْ تخميناتي، فقد رشقني بعينيه وقال: «أمرّ عليك مساءً للمقيل، حاول أن تنام قليلًا».

شعرتُ بتوتّرٍ مضاعف، يبدو أنّ كلّ منْ يأتي إلى هنا يصبحُ نهبًا للقلق، وليسَ لآثاريٍّ أن يبقى دونَ توتّرٍ ما لم يعرف الخطّة! في ذلك المساء، وفي ديوان صديق هيرو، خيّمتْ عليَّ الدّهشة، وأنا أبحلق في كومة من أعشاب القات تتوسّط الديوان. أمرني هيرو بألّا أرفض طلبًا للتقوّتِ من أحد، عليَّ أن أقبلَ بعشبة القات بينْ فكّيَّ، إيحاءً بالتواصل مع أصحاب الديوان. لم أعرف ماذا أقول في حضرة المتقوّتين، لكنّي شعرتُ بأنّني أرضيْتُ كرَمهم، واصطنعتُ الابتسامةَ وأنا أرتشفُ الماءَ مثلهم، وأحاولُ تقليدهم، وأجاهد في سبيل ذلك دونَ جدوى. فأخزّنُ القاتْ، وأخبّئه في فمي بحذرٍ. لم ينفكَّ هيرو عن الكلام، ولم يتناسَ وجودي طبعًا، إذ قدّمني إليهم كما يقدَّمُ الشاي! فقد تحدّث عنْ رحلته الأخيرة إلى مصر، وذكرَ أنّه عثرَ عليّ، هكذا بهذا اللفظ تحديدًا، كأنّني رقيةٌ أثريّةٌ أو تمثالٌ نوبيٌّ لفرعونٍ أسود. سألني أحدهم، وبدا لي أنّه مسؤولٌ في الحديدة، عمّا إذا كانت لي تجارةٌ مع هيرُو؟ نفيتُ ذلكَ، وبدأتُ أتوسّعُ في الكلام على غيرِ عادتي! هل كانَ ذلك منْ أثرِ القات؟! انتبهتُ إلى وجود

شخْصٍ كانَ وجهُه مخفيًّا بالجريدة التي يقرؤها، وقد دفنَ نظراته خلفَ نظّارتين طبيّتين سميكتَين، وأهملَ وجودي. همستُ لهيرو: منْ يكون هذا الأوروبيّ؟ قال لي إنّه شقيقها، وسكتَ. ضحكتُ، فشخص فيّ الجميع ثمّ ضحكوا، ظنّوا أنّي انتشيْتُ، بينما قلت في نفسي: «سَحَبَ هيرو في شبكة صيدِه الأختَ وأخاها! ولئن كانت أنجليكا ملاكًا فهذا بحقّ الربّ شيطان، أليسَ كلّ أشقرٍ خبيث؟!» مالَ عليّ هيرو وقد انتشى، فقال لي: «لن نجد وقتًا للقات من هنا فصاعدًا، نخزّن بعمق!»، فجاريتهُ وأنا أتلعثم في الكلام، وأتلكّأ في التّخزين، وأُبَحلِق في كلّ اتّجاهٍ. قلتُ لهُ بصوتٍ خفيضٍ: «ما الخطّة في الأيّام القادمة؟!»، فأجابني: «كلمة السرّ: حبشوش!»، ضحكت للمرّة الثانية، وكانَ ذلك أوّلَ عهدي بمهمّة «حبشوش»، وظننتُ أنّها لن تتعلّق ببحثٍ أثريٍّ بل بتجارة الحشيش أو ما شابهَ!

لم أتخيّل أنَّ أنجليكا سترافقنا في تلك الرّحلة. امتلأت السيّارةُ بعبق عطرها، وازداد استغرابي من لباسها ولباسِ هيرُو. هل كانَ من الضّروري أن يتنكّرَا في زيٍّ يمنيّ. بدا هيرو من علية القوم، وبدت

أنجليكا خلفَ النقاب مثلَ ظبيةٍ مطاردة! لماذا الاختفاء؟ سألتُ هيرُو بهمسٍ، فأجابني بأنّ التقيّة جزءٌ من عمل الشّبكة. قلت لهُ لماذا لم أتنكّر أنا أيضًا، ألستُ جزءًا من الشبكة؟! فضحك وقال: «نريدُكَ كما أنتَ، أنتَ غريبٌ ونحنُ ندلُّكَ على الطريق!». وصلنا بيسرٍ إلى زبيد، بعد ساعتين من الصّمت أو أكثر بقليل. دخلنا من بابِ الشباريق، ومن الواضح أنّ المدينة غارقةٌ في زمانٍ قديم، وسورها يحرُسُ هدوءها.

استقبلنا شابٌّ زبيديّ مليح، سمرتهُ تقترب من سمرتي. تفحّصني جيّدًا أكثر ممّا تفحّص أنجليكا، فقد بدا أنّه يعرفها. وكان هيرُو يؤشّرُ بإصبعه نحو البيت الذي سننزل فيه ضيوفًا، ويقولُ بصوتٍ عالٍ: «ها قد وصلْنَا، احزمْ نفسكَ يا زول!»، كانت أنجليكا لا تكترثُ لهُ تمامًا، فعيناها اللتان تقفزان فوق خطّ استواء النقاب، تنهشان نظراتي النّزقة! اللّعنة عليَّ، ما كانَ لي أنْ أسمحَ لبؤبؤ العينِ بمطاردة زوجة صديقي! قال هيرو ونحن ندخلُ البيتَ الذي تداعى سياجُه الخارجيّ، وتراصفت الأتربةُ وأكوام الفضلات على جانبيه: «علينا التحرّك بعْد قليل». فاكتفينا بوضع

حقائبنا الصّغيرة في غرفٍ مستقلّةٍ مفروشة ببسطٍ من النّخيلِ عليْها مخدّاتٌ ملوّنةٌ عريضَة، ثمّ خرجنا مسرعَيْنِ دونَ أنجليكا، وبهتُّ حينَ دعاني هيرُو إلى امتطاء الموتوسايكل! وقال بسخريّة: «أبْشِر! كانَ حبشوش وهاليفاي (4) يستقلّان الحمير!». لم أركب الموتوسايكل في حياتي! تمنّيتُ لو استخدمنا الحمير. تشبّثتُ بخصر هيرُو، وطِرنَا إلى السّوق، مررنا من أنهجٍ ضيِّقَة، وكدنا نتهاوى على ناصيتها، أو هكذا خُيِّلَ لي. سألتهُ عن أنجليكا، لماذا تركناها وحدها في البيت؟ قال لي: «لا عليك، امرأةٌ مثلها خرجت عنْ دينِ أُسْرتها اليهوديّة لا خوفَ عليْهَا هنا!» ارتبكتُ منْ سماعِ ذلك. فأنا لم أتوقّع أنْ يتزوّج هيرو المسلم امرأةً من غير دينه؟! وبدأت أربطُ خيوط الكلام. الفيتا يهوديّ، أنجليكا من أصولٍ يهوديّة، وحتّى «حبشوش» الذي نقتفي آثاره يهوديّ! جُلتُ بناظريّ أتأمّل دكاكين متراصفةً تبيع القماش والفوط والمِخادَّ والفرش، وأنا أصغي إلى صوتُ المطارقِ على إيقاعٍ خفيف.

اقترب منّي رجلٌ مسنٌّ مهيبٌ وصافحني بقوّة، كان يلبسُ بدلةً تعود إلى السبعينيّات. قال هيرو باعتدادٍ:

«السيّد الفيروزيّ، كبيرُ التجّار في السّوق». ولكن لماذا لا يلبس الزيّ اليمنيّ؟! كان رجلًا في السّتين من العمرِ، لغير أنّ عينيه المشرئبّتين إلى الحياة تسطعان بالشّباب، لم أعرفُ سرَّ تلك الحماسة التي تتولّد منه وهو يطلبُ منّا الدّخول إلى قاع الدكّان، ويهمسُ إلينا بالجلوس على بساطٍ ناعم. لم يطل بنا الوقتُ للتّعارفِ، أخبرني بأنّه يُجِلّ السّودانيّين، وفهمتُ أنّه ليس يمنيًّا، لكنّهُ أمضى أكثر من نصف عمره في اليمن واستقرّ بها. حرص هيرُو على أن يكتفي في تقديمي بأنّي مساعدٌ لهُ! لا أدري في أيّ شيءٍ كنتُ أساعدهُ، ومع ذلك وافقتُ على كلّ ما يقولُ مطأطئًا رأسي كلّما أضاف إليّ وصْفًا: «الزّول خبيرٌ في النقوش، وهو كتوم مثل الحجارة!». تعلّمتُ أنْ أُنصِتَ أكثرَ ممّا أتكلّم، وإنْ شُبِّهتُ بالحجارة فهذا تقريظٌ لي!

قال الفيروزيّ: «طيّب هل أحْضرتَ الرسالة؟»، تبسّم هيرُو: «إنّها في عهدةِ أنجليكا، وهي في طريقها إلينا». كان كلامهُ البطيءُ يكشفُ نوعًا من الحذرِ، لكنّه سرعان ما بدّد حذرهُ ونظرَ إليَّ: «هذه الرسالة يا زول تعودُ لرحّالَةٍ نمساويّ يُدعى غلازيرْ، كان قد وجّهها إلى حبشوش يحثّه فيها على

كتابة رحلته الغريبة مع هاليفاي». واصلتُ الصّمتَ، فأنا لا أعرف رحلة حبشوش، حتّى أفهمَ تفاصيلَ أخرى وكل ما فكّرتُ فيه وقتَها هو قدوم أنجليكا في أيّ لحظة! اللعنة منْ جديد! تخيّلتُها على الموتوسايكل والهواء يلعب في ثوبها الفضفاض! يا إلهي، لماذا صرتُ أفكّر هكذا؟! قلتُ في نفسي: عليّ أنْ أسرع في الزواج فورَ عودتي إلى القرية، لتكن امرأةً شايقيّة أو غيرها، ما يهمّ هو إخماد النار حتّى لا أحترق بها!

قبل وصول أنجليكا التفتَ إليَّ الفيروزي، بوقار زعيم الشبكة! وقال لي: «نعوّل عليك في مساعدتنا على فحص النّقوش الأثريّة التي سجّلها حبشوش في رحلته، نحن نبحثُ أيضًا عنْ ألواحٍ حجريّة، قد تكون مطمورةً أو ظاهرةً في الموقع الأثريّ الرّابض على مشارف المدينة، أنت تعلم أنّ اللصوص داهموا كلّ شيءٍ، وأن مئات الألواح اختفت وهُرّبت إلى دولٍ عديدة على امتداد سنوات، النهب هو الطريقة الشنيعة التي خرّبت إرث اليمن، ونحن لنْ تفهم معنى الحياة دون أن نفهم الماضي، فما الماضي حسب رأيك؟» حدّق فيّ مليًّا، حتّى برقت عيناه، ثمّ واصل: «الماضي هوَ تاريخُك المنسيّ، هو أنتَ قبلَ

أنْ تتحوّل إلى طين، هل تفهمني؟!» رددتُ بتلقائيّة: «صدقًا، لا! لم ندرس حتّى في الجامعة تعريفًا للماضي بهذا الشّكل، الماضي الذي تعلّمناه هو كلّ ما اندثَر، وهو لا يوجد إلّا من خلالِ هذه الآثار المترامية في أطراف العالم، سواء كانت حجريّةً أو ورقيّة، الماضي معالمُ ومدوّنات، وذاكرةٌ مشتّتة. أمّا أنْ يكون الماضي هو أنا وأنت وهيرو قبل مرحلة الطين، فهذه فلسفة بلا شكّ!» تبسّم الفيروزي، وأغمض عينيْهِ، كأنّه خلا بنفسه في ملكوتٍ آخر، وأخذ يتمتم: «ماضيكَ هو أوّل نفسك، مبتدأ الكلمة قبلَ البلبلة!» تمتم بإيقاعٍ جذّاب، ولا أعرف لِمَ خَطر لي أنّها جملةٌ من مزمورٍ أو ما شابهَ: «هل يكون الفيروزي يهوديًّا أيضًا؟» ولكنْ ما الذي يهمّ إن كان يهوديًّا؟ أليسَ الدّينُ دفترًا شخصيًّا يُسجّلُ فيه كلّ واحدٍ منّا مَا شاءَ؟!

يومَ كنتُ في البصرة تهيّأ لي أنّ زيدًا بائع الكتب عضوٌ في هذه الشّبكة، ولكنّي ألقيْتُ شكوكي في الهواء. استلمتُ منه حزمةَ الورق، ودفنتها في حقيبتي دون أنْ أسأل عمّا تحتويه، لم تكن وصيّة أبي محمّد تمنعني من السّؤال، غير أنّي خيّرتُ ألّا أسألَ. تعلّمتُ من هيرُو أن أعملَ في صمتٍ، وليس المهمُّ

أنْ أعرف، بل أنْ أشارك في جمعِ ما هو مبعثرٌ من المعارف. تعاملت مع الحزمة مثلما تعاملتُ مع صندوق أنجليكا، وحتّى حين أُخبرتُ بأنّه يحتوي على تلك الرّسالة لم أسْعَ إلى معرفة ما بداخلها. تعلّمتُ أن أقفَ عند حدود الأسرارِ. قال لي هيرو: «إيّاك أن تفكّر في معرفةِ كلّ شيءٍ، إيّاكَ أنْ تفكّر في تركيبِ كلِّ قطعِ الحقيقة، عندها ستكون نهايتك! ابقَ عند حدود شعاع الشّمس، لا تفكّر في القرص نفسه!».

في هذا العالم آلاف الباحثين عن الأسرار المدفونة في الآثار والمخطوطات، وقد أدركتُ أنّهم ليسوا سوى أعضاءٍ في فكرَةٍ واحدةٍ لا تقتضي منهمْ أنْ ينتظموا في مجمعٍ علنيّ. إنّهم مبعثرون في كلّ مكانٍ ولا يبحثون عنْ شيءٍ واحدٍ، وليس وراء ذلك توفير مالٍ أو جاهٍ. ورغم اقترابي منهم عجزتُ عنْ فهمِ الغاية من بحثهم، وكم مرّةً قلتُ إنّهم أشبه بعطاشى لا يبحثون إلّا عن الارتواء! يومَ سألتُ أبا محمّد عن وظيفة الشّبكة، لم يتردّد في القول: «إنّها مثل النّجوم المبعثرة في السّماء، تبدو منفصلةً ومتباعدة ولكن يحكمها نظامٌ واحد، إنّها تُضيءُ رغم التباعد». صدقًا، لم أفْهم جيّدًا، هل كانت الشبكة طائفةً دينيّةً أم

جماعةً فكريّةً أم حركةً سرّيّة، أذكر جيّدًا ما قالهُ لي: «الشبكةُ ليستْ طائفةً لأنّ الدّين لا يجمعها، وهي تعملُ سرًّا لأنّ ما تجمعه من معارف تراكمت عبر العصور وتناثرت عبر الأماكن نفائسُ مخفيّةٌ قد تُهدّدُ الكهنة!»، ولمّا سألته عن «الكهنة» ضحك، وردّ بالقول إنّهم ليسوا كهنة دينٍ محدّد، بل ليسوا كَهنة أيّ دين، وإنّما هم كهنة العلم والسّياسة والاقتصاد والمجتمع. ذكّرني كلامه بالفيروزي، الطّلاسم والأحجيات نفسها: «ابحث عن المعرفة ولا تهمّك المعرفة نفسها! شرفك في البحث! ابحث دونَ أن تسأل عن الغاية لأنّها ملكٌ لأصحاب الغاية!».

حينَ عرفتُ سبب مجيئنا إلى زبيد، وسبب لقائي بالفيروزيّ، بدوتُ مطمئنًّا إلى أنّني سأفوز من هذه الرّحلة بشيءٍ واحدٍ على الأقلّ، وهو أنْ أكتشفَ ما يبحث عنه الآخرونَ. شعرتُ بأنّني عدتُ مئات السّنين، فهذه المنطقة التي أتحرّكُ فيها تمثّل بأسرها موقعًا أثريًّا، والبيوت والسّوق العامرة بشتّى أصناف الصّنائع، عليها آثار القرون السالفة، وهيَ تحتاج إلى صيانة.

شعرتُ بأنّني أشاركُ في بحثٍ لم أخترهُ، ولكنّه مفعمٌ بالفتنة، ورغمَ هدوئي وجمود دم التغيير في عروقي، وجدتُ في كلام الفيروزيّ ما جعل ذلك الدّم يتحرّك!

كم سخرتُ من بحثِ صديقي سعدي عن مخطوط الباب المفقود من كتّاب كليلة ودمنة! كانتْ سخريةً مقنّعةً حقًّا. صحيحٌ أنّي لم أكن أبالي بالبحث، ولكنّي داريتُ صلتي بأخيك، لا يُمكن في حياتنا أن نكونَ شفّافينَ دائمًا، تعلّمتُ من هيرو كيفَ أتستّرُ على ما أفعلُ. قال لي: «إيّاك أن تكون مثل المتصوّفة دون خرقةٍ وأن تسعى إلى نزع السّتر. الأستار شرطُ حياتنا، ودونها نكون لقمةً لأفواهِ الغيلان من البشر، كن حذرًا ولا تقلْ ما تُبطِن، كنْ صندوقًا مقفلًا!» إيه يا هيرُو، ليتَك أبقيتني كما كنتُ قبلَ مجيئي إلى اليمن!

عندما قطعتْ أنجليكا حديثَنا، وقفَ الفيروزي ودعانا إلى مكتبته، بضع خطواتٍ تفصلنا عن «مغارة الكنز»! كانت المكتبة متاخمةً للصالون الصّغير الذي جلسنا فيه، خزاناتٌ مزدحمة

بالمخطوطات المتنوّعة الأحجام، ورفوفٌ تحتضن آلاف الكتب، وما من مكانٍ شاغرٍ في محيط هذا المكان، حتّى النوافذ التي يتسلَّلُ منها ضوء الشّمسِ خجولًا كانت شبه مغطّاة، رائحةُ الكتب تفوحُ من كلّ جهةٍ، شعرتُ بنوعٍ من البرودة، فالرّطوبة خفتت قليلًا، إلى درجةٍ أحسستُ فيها بالارتجافِ. سلّمتْ أنجليكا الصّندوقَ إلى الفيروزي، فمسح ظهره بكفّه ثمّ دلفَ إلى مقصورةٍ مجاورةٍ لم أنتبه إلى وجودها أوّل الأمر، غابَ قليلًا بينما حسرت أنجليكا وجهَها ونزعت الشّال عن رأسها. والله يا ثناء، في لحظتها حسدتُ هيرو على ذلك الفصّ! كنتُ أخفي نظراتي بتأمّل سقف المكتبة، أُمعِن النظر في ألواح الخشب القديم التي تلتصق بها الشّقوق. كان باب المقصورة في الجهة الشرقيّة، وحالُه كحالِ كلّ أبواب البيوت من الخارجِ. تقدّمت أنجليكا صوب طاولةٍ صغيرةٍ وُضِعَت جنبَ الجهة الغربيّة، فانتبهتُ إلى وجود ألواحٍ عليها. استغربتُ حقًّا، فقد خلتُ أنّ الكتب وحدَها سيّدةُ المكان، وتبعتُ أنجليكا لأتفحّص تلك الألواح. اجتاحتني قشعريرة، وحاولتُ أنْ أتلمّسها، فلا يُعقلُ أنْ أرى لوحًا به نقوشًا وتبقى

أصابعي جامدة! ودون أنْ أسيطر على نفسي، أخذتُ الكاميرا لأصوّر الألواح عنْ قرب، وإذا الفيروزي يصيح شبه حانق: «رجاءً لا تصوّر شيئًا الآن!»، وسارع إلى سترٍ أسْودَ مرميٍّ جنب الطاولة ليُغطّيها به، ثمّ قال: «وجدنا هذه الألواح في قريةٍ غير بعيدة من هنا، يبدو أنّها تعود إلى الزمن الذي عاش فيه الصّائغ اليهوديّ يعقوب، وعلى الأرجح أنّها أجزاء من التّوراة». التمعت عينا أنجليكا لوقع كلمة»توراة»، وقالت بسعادة: «هذا مذهل، دعني أتفحصها جيّدًا، لقد تمكّنتُ من فكّ شفرات مخطوطة حبشوش، وسأنجح في فكّ نقوش هذه الألواح»، فردّ الفيروزي بأنّه يفضّل تأجيلَ ذلك إلى ما بعد الانتهاء من المهمّة، فالألواح محفوظةٌ وبعيدةٌ عن لصوص الآثار.

تلاشى فرح أنجليكا سريعًا، واختفتْ نظراتُها المتحمِّسة تحت حزم صوت الفيروزي. لاحقًا، أخبرني هيُرو بافتخارٍ عنْ نجاحها في تعريب مخطوطة حبشوش التي كتبها بالعربيّة مستخدمًا الحروف العبريّة! سحبَ الفيروزي من خلفِ خزانة المخطوطات خارطةً غريبةً لم تكن عليها غير أشكالٍ ورموز،

ووضع إصبعه على شكلٍ يشبهُ مركبًا أو سفينة، ثمّ قال: «نحن موجودونَ هنا». كانت الأشكال الأكثر توزّعًا تمثّل مآذن وقبابًا، وأشكالَ كتبٍ ربّما دلّت على المدارسِ أو بيوت العلم، أو خزائن المخطوطات، وثمّة شكلٌ غريبٌ لبركان، لم أفهم معناه إلى الآن، وشكل قلبٍ به ما يشبه التّنانين، لم أدرك معناهُ أيضًا، وفي أعلى الخارطة كُتبت كلمة «تهامت» بخطٍّ سميك. انطلقَ صوتُ أنجليكا العذبُ، يستفسرُ عن دلالات الأشكالِ وهدفِ الفيروزي من عرض الخارطة، أمّا هيرُو فغرِقَ في تقليبِ مخطوطةٍ. ظلَّ الفيروزي ينصت لأسئلتها، وقال بصوتٍ خفيض: «العلم يحتاج إلى صبر». ابتسمتْ، وصمّمت بعينَيها على طلب الإيضاح، فقال الفيروزي: «هذه خارطة أماكن آلاف المخطوطات المبعثرة في كلّ هذه المواقع. فمنذ بدايات القرن وعمليّاتُ تبديد هذه المخطوطات بالسّرقة أو الإتلاف أو التّهريب مستمرّة، ليت الدّولة تنصف ما تملك من ثروات علماء هذه الأرض». كنتُ أدرك أنّ رسم هذه الخارطة ليس بالأمر الهيّن، فتحديدُ مواقع وجود المخطوطات جزءٌ من عملٍ بحثيٍّ يحتاج إلى نفَسٍ طويلٍ ومجهودٍ

جماعيّ، لذلك سألتهُ: «هل أعدّتها جهةٌ حكوميّة؟!»

ردَّ الفيروزي بعتابٍ: «خيالُك واسعٌ، كانت الخرائط لدى الجغرافيّين عملًا فرديًّا، وكذا خرائط هذه المخطوطات، أفنيتُ سنواتٍ من عمري في جمع معلوماتٍ عن مواقعها، وسطَ تكتّمٍ كبير، أغلبهم لا يريد الإفصاح عمّا لديه منها، ولا حتّى الاعتراف بامتلاكه إيّاها، مع أنّ الجميع يعلمُون أنّ أكبر بيوت العلم تحتوي عليها، بعض المخطوطات يعود إلى مئات السنين، لكنَّ عمليّات البيع والشّراء غلّبت المصالح الفرديّة على مصلحة هذا التراث». قاطعه هيرُو: «لا تنسَ أنّ إغراءات الأجانب بالمال تسبّبتْ في حمّى بيع المخطوطات، أنت تذكرُ ما فعلهُ التاجر الإيطاليّ جوزيف كابروتي الذي كان يقايضُ ما يبتاعهُ من أقمشةٍ وملابس بالمخطوطات في عصر الإمام يحي، والأدهى أنّه أهداها إلى مكتبة الفاتيكان! ولولا مساعدة بعض أبناء البلد لما استطاع الحصول على أيّ مخطوط».

استدار الفيروزي إلى الخلفِ وأومأ إلى هيرو بأن يتبعهُ، واتّجها نحوَ المقصورة. تساءلتُ: ما الذي يحدثُ بين فينةٍ وأخرى؟ أحيانًا أقول في نفسي إنّني

أفهم ما يحدث، وأحيانًا أشعر بأنّني غريبٌ ولا يُؤَّمن جانبي، وانشغلتُ بتفحّص الخارطة فقفز إلى أذني صوتُ أنجليكا حتّى ارتعشَ قلبي:

- أنت في حيرةٍ، أليسَ كذلكَ؟!

- لا أخفيك حيرتي حقًّا، مرّةً أشعر بأنّي صرتُ منكم، ومرّاتٍ أخرى أشعر بأنّي غريبٌ بينكم.

- طبْعًا أنتَ منّا، كلّ إنسانٍ إنّما هو منّا!

- هل تعنين أنّ شعوب العالم كلّه أعضاء في الشّبكة؟!

قهقهت أنجليكَا بغنجٍ حتّى خلتُنِي في مصيدة الإثم، وأخبرتني بأنّ منْ يلتحقُ بالشّبكة لا يحتاج إلى عناءٍ، يكفي إيمانُه بأنّ الإنسانيّة ليست أقوامًا يكره بعضُهم بعضًا، وأنّ كلّ إرثٍ خلّفتْه الشعوب ليس ملكًا لها وحدَهَا، بل إنّ تلك الأجيال التي ما تزالُ نُطَفًا في الأرْحام من حقّها أنْ تمتلك ذلك التراث العظيم.

كنتُ أعرفُ أنّ الألغاز سرُّ الحياة. فمنذ تفحّصتُ الآثارَ الفرعونيّة القديمة ثمّ النوبيّة بعدها، وأنا أدركُ أنّ ما تراهُ العين ليس إلّا غلافَ الأحجية، وأنّ أبا

الهول كغيره من الحجر لا يفصح عن الحكمة إلّا لمنْ آمنَ بأنّ لحلِ اللّغز ثمنًا، وأنّ طريق الحلّ موحشٌ بالمتاعب والقلق والخوف، والنزوات أيْضًا.

إنّها الحياة يا ثناء! ما كان لي أن أبوحَ بهذا لو لم أشعر بأنّني تغيّرتُ منذ خطوتُ شوارع زَبيد وصارَ هيرُو معلّمي، أنَا العبدُ البسيطُ الذي انتقلَ منْ تاريخ الحجر إلى تاريخ المخطوط، ومنْ قراءةِ الشّفاهِ المكتومة إلى منطوق الشّفاه، ومنْ جمود المشاعر والرّغبات إلى صهيلِ البشر!

ماذا كنتُ قبلَ هذا؟ وإلى أينَ صرتُ؟

لم يُصارحني هيرُو بخطّةٍ مّا. عندما خرج مع الفيروزي من المقصورة، بدت عليه علاماتُ الانتشاء. كان يقول لي دائمًا: «البحث مصدرُ البهجة، لا تفكّرْ في ما تبحثُ عنه، فكّر أوّلًا في الفرحة التي تظفر بها تهمّ بالخروج عن الطرقات المسلوكة وتنصرف نحو المجهول!»، إيه، يا معلّمي، كم كنتُ أعتقد أنّك ربّان البحر، وها أنتَ ربّان البحر والبرّ!

همسَ إليْنا الفيروزي: «عليكما أنْ تتحرّكا في الغد نحو قرية الحِمى». بدت الحيرةُ على وجه إنجليكا، فابتسم

الفيروزي وخفّف عليها الأمر: «أنتِ في ضيافتي غدًا، ولكِ أن تبدئي في فكّ سرّ هذه الألواح!» أوصانا الفيروزي بأن نخرج عند الفجرِ، وأن يكون هدفنا هُو الوصول إلى بيت الزبيدي الواقع قربَ مسجد أويس القرني. ولم نودّع الفيروزي إلّا بعد أنْ أغدق علينا أنواعًا مختلفة من التمرِ، وأكلتُ منه ما لم آكله في حياتي!

بُعيْد الفجر من الغدِ، لم نستخدم الموتوسايكل، بدا لي أنّ هيرو يحقّق رغبتي في توفير بغلٍ جميلٍ للرّحلة، ولم يُساورني أيّ خوفٍ من السّقوط على الأرض ونحن نسيرُ بصعوبةٍ في منطقةٍ وعرةٍ وعيوننا تمعنُ في منظر النخيل المترامي في كلّ مكان، بل استحضرت طفولتي. لا أخفي كيفَ انتابني شعورٌ غريبٌ وأنا أرتدي الزيّ اليمنيّ، وأمدّ رأسي لهيرو كيْ يضع الشّال بمهارة. ومع أنّي لم أرَ نفسي في المرآة، أدركت أنّي صرتُ أُشبِه أيَّ يمنيٍّ زبيديّ، غيرَ أنّ هيرُو السّاحر أسرَّ إليّ وهو يضحك بأنّني أُشبه الأخدام منْ نسلِ نجاح الحبشي. في الطريق حدّثني عنْ الآثار الغريبة في زبيد، قال لي: «إنّها تحتاج إلى سنواتٍ أخرى كيْ يُكتَشَف المخفيُّ فيها». أجّج عطشي إلى البحثِ

ولاسيّما عندما أبدى اهتمامًا بالنّقوش: «إخراج النقوش المطمورة عملٌ تقومُ به الهيئة العامّة للآثار، ولكنّ عملنا من نوعٍ آخر»، ثمّ أضاف: «نحن نبحثُ عن الأسرار وهم يبحثون عن الآثار!» وأخذ يقهقه في طريقٍ خلتْ تمامًا إلّا من ظلّينا والبغلين.

الولهُ بزَبيد بدأ منذ دخلناها. ماذا تنتظر مدينة العلم والعلماء من باحثٍ مثلي ما يزال طريَّ العود في صنعته؟! وهذه الطرق الوعرة كيفَ احتضنت كلّ بُناةِ هذه المعالم، واستقبلت خطاهمْ؟ وهذا الوادي الصّامتُ كيف ظلَّ واجمًا أمام رحلاتهم، ورحلات المستشرقين، ولصوص المقابر؟ كنتُ من حينٍ إلى آخر أتفحّصُ الكاميرا التي وضعتها في جرابي مع دفتر أخذتُه من ورّاقةٍ مخصوصةٍ بالإسكندرية، عليْهِ كتابةٌ هيروغليفيّة. سألتُ هيرُو عن المهمّة، فقال: «لن نبيتَ في القرية، ليس في رحلة الذّهاب والإياب مخاطرة، والتّعب جزءٌ من الرّحلة!».

منذ أشهرٍ وأنا أحلمُ بهذه اللحظات التي قد يَمُنّ بها الله عليَّ فأطّلع على ما هوَ مخبوءٌ منْ عصيرِ الدّهور. فكم شردَ خيالي وأنا أطّلعُ على رحلات زوّار اليمن

من رحّالةٍ ومستشرقينَ وباحثينَ، وأدقّق النّظر في الصّور التي التقطوها للمناطق التي زاروها في صرواح ومَأرِب وبَراقِش ومَعِين، وكم اهتممت بالدّراسات النّقشيّة والتّعليقات التي أسداها العلماء حولها. لا أخفيكِ أنّي حاولتُ مرارًا أنْ أتعلّم قراءة النقوش السبئيّة، وأمضيتُ لياليّ في تعلّمهَا كمَن يتعلّمُ لعبة تركيبِ الحروف، لكن أيُّ حروفٍ تلكَ! إنّها مستعصيَةٌ وأعوص من الهيروغليفيّة نفسها. كانت أطياف رحلات نزيه مؤيّد العظم والصيدلانيّ الفرنسيّ أرنو وجوزيف هاليفي تتوارد عليَّ من حينٍ إلى آخر، وظننتُ أنّني سأزور مأربَ أو الجوف مع هيرُو، لكنّه ألجم خيالاتي بحزمه: «لا تطرق دربًا مقطوعًا».

عند وصولنا، طلبَ منّي هيرُو مجدّدًا ألّا أتكلّم كثيرًا مع مَن يعترضنا، وقال لي إنّه سيتركني عند مسجد «أُويس القرني»، وكان الفيروزي قدْ ذكر لي نُتَفًا من المعلومات عنهُ، وقيل لي إنّه مزارٌ للطّائفة الإسماعيليّة. سرتُ في اتّجاهه دونَ صعوبَةٍ، وربطتُ البغلَ في أقربِ شجرَةٍ وانهمكتُ في التقاط صورٍ لمدخل المسجد الذي اعتقدتُ في السابقِ أنه أكبرُ

مساحةً ممّا رأيتُ. طالَ غيابُ هيرُو، ومع ذلكَ شرَدْتُ في تسجيل انطباعاتي عن معمار المسجد، وجدتُ السّقْفَ مهدّدًا بالسّقوط، وذهلتُ حقًّا لوضعيّة جدرانه المتهالكة، واندهشتُ منْ حجم الأحجار المتناثرة من حولِهِ. كنتُ أتحلقُ حول أطرافهِ وأنا أحسَبُ رائحةَ الألواح تستدعي أنفي، وبين فينة وأخرى يعتريني إحساسٌ بالضحك المكتوم لولَا هيْبَةُ المسجد، فكيفَ لأنفي أنْ يتفطّن لشيءٍ مدفونٍ في الأطراف؟!

قضّيتُ أغلب النّهار وحْدِي، فأنا لا أستطيعُ التحرّكَ في أيّ اتجاه، ولذا اغتنمتُ وحدتي لأتأمّل تلك البيوت النّاعسة التي غرقت في الطّين، وظلّت صامدةً رغم هذا الحرّ الرّهيبِ. وأخذتُ أسجّل تعليقاتي حول العناصر الأثريّة بالمسجد، وانزويتُ جنبَ محرابهِ، فداهمتني رائحةٌ غريبَة، مزيجٌ من البخور والرّطوبةِ، وشيءٌ منْ عبق الماضي. وفجأةً قدمَ هيرُو رفقةَ رجلٍ في السّتين من العمرِ، يحملُ ندوبًا على وجهٍ لم تحجبْ بشرتُه الدّاكنة ملامحَ بهجتهِ. حدستُ أنّه الشّيخ الزبيدي، وقلتُ في نفسي: «أخيرًا سأفهمُ سببَ مجيئنا إلى هُنا!»

سرنا في طريقٍ خاليَة، دونَ البغلين، مررنَا حذوَهما لتفقّدهما، وتوجّستُ خوفًا من نهيقهما! تبادل هيرو مع الزبيدي صمتًا غريبًا، ولم أُرِد أن أنبُس ببنت شفَةٍ، فقد أوصاني هيرُو بأن أقلّل الكلام وأطيلَ السّماعَ. «حاضر يا معلّمي، السّمع لك والطّاعة!» بلغنا بيتًا مهجورًا يقع على ربوةٍ عالية، جدرانهُ شبه متهاويَة، ودلفنا داخلهُ من بابٍ لم يُحكِم أحدٌ إغلاقَهُ، أخشابُهُ نصفها منقوصٌ، كأنّها سُرِقت منذ زمنٍ بعيد، والسّقفُ مهترئٌ، خشيتُ أنْ يتهاوى علينا في أيّ لحظة. كانَ البيْتُ مكوّنًا من غرفتينِ اثنتينِ، وبهما فتحاتٌ ضيّقةٌ كأنّها نوافذ غرفٍ لبقايا قلعةٍ قديمة. اتّجهَ الزبيدي نحو كوم حجارةٍ ملقاةٍ في الغرفة الشرقيّة، وأخذ يرفعها واحدةً تلو أخرى، وساعدَه في ذلك هيرُو بينما كنتُ أراقبُ السّقفَ من جديد! التفت إليّ الشيخ الزبيدي وقد تعفّرت يداهُ بالغبار: «هل تعلم ما يملكُ ابن آدم؟» فسكتُّ، كانَ سؤالًا في غاية الصّعوبة، وما فهمتُ صلتَه بما نحنُ فيه! ثمَّ أضافَ: «إنّه يملكُ قلبَه». قلتُ دونَ تردّد: «أهذا كلّ ما يملك؟! ألا يملكُ عقله وجسده؟!» توقّف هيرُو عن رفع الحجر، ورمقني بنظرة حازمة: «القلبُ

مثل المرشد، والعقلُ مثل هذه الحجارة المتكوّمة، ينبغي أنْ تزيلها حتّى تصلَ إلى اللبّ، اللبّ هو قلبُ الأشياء والكائنات والعالم، اللبُّ هو لبُّ الألباب!» فلذتُ بالصّمت، وقلتُ في قرارة ذاتي: «إنهم يتفوهون بكلماتٍ كنقوشٍ، كل حرف فيها يحتاج إلى تدبّر» ثمّ اقتربت منهما لأشاركهما رفعَ الحجر، لكنّ الشيخ الزبيدي أوقفني بإشارةٍ من يده كيْ أكتفي بالفرجة. وعند آخر حجارةٍ انكشفتْ لنا حفرَةٌ دامسةٌ تشبهُ فتحةَ داموسٍ أو مدفنٍ ضيّق. طلب منّي الشيخ الزبيدي أنْ أسمّي باسم اللّٰه الواحد الأحد، وأنْ أستغفرهُ، وأنزلَ في الحفرة! تردّدتُ في البداية، كنتُ أخافُ من كلّ ما هوَ ضيّق، وأقولُ وسّعَ اللّٰه علينا فتحةَ القبر وأنارَه من ظلمته! وتذكّرتُ كيفَ رفضتُ الدّخول إلى هرم «خوفو» رغْمَ تأنيبِ المدرّسين، وتندّر زملائي الطلبة، رفضت ذلكَ حتّى لو كلّفني الرفضُ العودة إلى السّودان! تردّدتُ في النزول هذه المرّة، وفي قلبي نبضٌ منَ المغامرة لا أعرفُ من أينَ وُلدَ ولا منْ أيْنَ ظهرَ! واندفعتُ للنزولِ، فألقيتُ بقدميّ متحسّسًا المكانَ، وإذا بي أنزلُ بيسرٍ على درجٍ من الطّوبِ، حتّى بلغت عيناي

الظّلام. صحتُ بهيرُو: «لا أرى شيئًا هنا». فقال لي: «لا عليك، حاولْ أنْ تخطو بهدوءٍ، السيرُ في الظلام منتهى الحياة، وحينَ تصطدمُ بشيءٍ، حاولْ تحسُّسه برفقٍ، واقبض عليه برفْقٍ، واحملهُ إليْنا!» ازددت خوفًا من هذا الشيء الذي لا أعرف ما هو، هل يكون صندوقًا، أو حجرًا، أو ألواحًا خشبيّة؟!

تلمّستُ المكانَ مثلَ أعْمى، أهذا قبرٌ أم زنزانةٌ؟ دبّتْ إلى أنفي رائحةُ عفونةٍ، ولم أدر هل أسيرُ بشكلٍ مستقيمٍ أمْ أنحني قليلًا لأبحث بيديّ عمّا يمكن التقاطه. بعد لحظاتٍ مرّت ثقيلَةً، ارتطمت قدمي بشيءٍ خفيفٍ سرعانَ ما تحرّكَ قليلًا، فوجمتُ أوّلَ الأمر، ثمّ انحنيتُ بقلبٍ مرتعشٍ كي أتلمّسه بأصابعي، وإذا بي أقبضُ على حجرٍ غير سميك، في شكلٍ مستطيل. تحسّستهُ بلطفٍ، ولم يكنْ أملس، بل به حَفرٌ عميقٌ وبعض نتوءات. قلتُ في نفسي: «هذا لوحٌ منقوش»، ومن المحيّر أنّ قلبي تيقّظَ حماسَةً، واسترسلتُ في تلمّس المكان إلى أنْ عثرتُ على أربعة ألواحٍ أخرى، فصحت بهيرو أخبرهُ، فأمرني بالطلوع، وصوتهُ يتهدّجُ فرحًا. وعندما طلعتُ من الحفرةِ، تبسّم الشيخ الزبيدي وقال لي: «وضعتُ

الألواح منذ سنواتٍ، وقلتُ قد أموتُ قبلَ أنْ أعود إلى فتح المدفنِ، وقد تنامُ فيه إلى الأبد أو يأتي شخصٌ غريبٌ فيهتدي إليها، ولمّا أعلموني بأنّك قادمٌ إلى هنا، خيّرتُ أنْ تستخرجها بنفْسك، فتتعلّمَ معنى اكتشاف الشيء بالقلبِ، وتشعر بالبهجة حتّى إن كنتَ جاهلًا بما وجدتَ، فالعبرة في محتوى اللّوح لا تَعْدِلُ العبرة في التجربة».

لا أعرفُ ما الذي جعلني أبتهجُ، وكلّ ما عثرتُ عليْه كان من إرشاد الشّيخ الزبيدي! ولكن مع ذلكَ غمرني شيءٌ من سعادةٍ ظلّتْ باديةً على وجهي إلى حين عودتنا واجتماعنا بالفيروزي الذي أخذ يقلّب الألواح بعد أن حفظناها في خرقةِ قماشٍ وحشونا بينها القطن. لم تكن النّقوش سبئيّةً ولا عربيّة، كانت سومريّة، لا أعرفُ كيف وصلت إلى أرض اليمن، وهل كانت أصليّةً أمْ لا، وهل هُرّبت من آشور في الزّمن الحديث أم تناقلتها الأيدي على مرّ الأزمنة القديمة؟ كانَ الفيروزي يتفرّس ملامحي، لقد قرأ عجزي عن فهم قصّة هذه الألواح، وصاح بي كأنّه أدرك غرقي في الأسئلة: «لا تستسلم للحيرة! ستعلم قريبًا أنّ مفتاح هذه الألواح

هو «تِهامة»! لو حصّلت فرصة الذهاب إلى بغداد، فإنّي أوصيكَ بالبحثِ عنْ ألواح جلجامش، ستجد فيها ما لن تتخيّلهُ. تهامة المترامية أمامك بسحرها، محفورةً في نقوش الأساطير عند السومريّين والبابليّين والآشوريّين، إنّها البركان الذي انبثق من المحيط بملوحةٍ تصارع الماءَ العذب. قد تتساءلُ ما الذي حمل تهامة اليمن إلى تلك الأغوار السحيقة في عمق بلاد الرافدين وفي عمق التاريخ، يحقّ لك ذلك، ولكنّك يا زول ستزداد استغرابًا حينَ ترى بعض النقوش المسنديّة اليمنيّة وهي تحكي عن تهامة الإلهة التي أنجبتْ آلهةَ بابل العظام!».

تنفّستُ في تلك الأيّام سحرَ كلام الفيروزي، ونقشتُ في ذاتي تعليماتِ هيرو. كنتُ أتجوّل كلّ صباحٍ في المدينةِ، فأختلي بعمارتها، وأزور الجامع الكبير يوميًّا للصّلاة وتسجيلِ تعليقاتي، ولا أنسى زيارةَ قلعة زَبيد. عندما تقتربُ الظهيرَةُ أُسرِعُ لأجالسَ الفيروزي، بينما تظلُّ أنجليكا مرابطةً داخل المكتبَة، منشغلَةً بالبحث في المخطوطات القديمة عمّا يروي ظمأها. رفَعتْ يومًا رأسَها نحوي، وقالت لي بحنوٍّ: «أزول (هكذا كانت تنطق الألف

قبل اسمي)، هل قرأتَ شيئًا عن بلقيس الصّغيرة؟»، قلت: «ومن تكون! ابنة بلقيس؟!» فضحكت بأرستقراطيّة، حتّى إنّي تمنّيتُ أنْ أكونَ دائمًا سببَ ضحكاتها، إيه، ضحكاتها نقشٌ فوّاحٌ يحتاج إلى فكٍّ! هل كانت أنجليكا الموجةَ التي قلبت حياة هيرو من قبطانٍ إلى عضوٍ في الشبكة، وهل لها صلةٌ مباشرةٌ بالفيتا؟ لم أقف على تلك العلاقة، ولم تذكر لي عنهُ شيئًا، سوى أنّها التقتهُ في الهند!

لا أعلم كيفَ مرّت أيّامٌ وأنا غارقٌ في اقتفاء الآثار في كلّ مكان، في الجامع الكبير، في قلعة زَبيد، ألتقط الصّور وأجمع الملاحظات وأسجّلها كما طلب هيرو في سجلٍّ أسميناه «سجلّ زبيد»، وهو يقول لي: «نحتاج إلى هذا السجلّ حتّى يعرف العالمُ ما تكون زبيد!». كنتُ في الوقت نفسه أُجادلُ أنجليكا حولَ بحثِها عنْ أروى الصّليحي، صدقًا لم أكن أعرفُ حكايةَ تلك الحاكمة قبل ذلك الحين، ولا أدري لماذا تبحثُ المرأة دائمًا عنْ سرّ نساءٍ أخريات، وما الذي يحمِل امرأةً ألمانيّةً على إفناء سنواتٍ من عمرها في تصيّدِ كلّ معلومةٍ وأثرٍ لامرأةٍ شرقيّة؟ كنتُ مبتهجًا لسماع روايتها عن أروى، متعطّشًا

إلى فهم أسرار حكم امرأةٍ في منطقةٍ تنتمي بحكم الأعراف إلى مجتمعٍ ذكوريّ. وكنتُ ألاحظ مقدارَ التغيّرات التي تطرأ عليَّ في وقتٍ وجيز، فقد صرتُ أكثرَ انتباهًا إلى موضوع المخطوطات، وأكثرَ انشراحًا كلّما حدّثتني أنجليكا، إذ لم يسبق لي في حياتي أنْ تحاورتُ مع امرأةٍ كما تحاورتُ معها، حتّى إنّي شعرتُ بالحزن حين أعلمتني ذات صباحٍ بأنّها ستذهب إلى صنعاء. لأكنْ صريحًا أكثرَ، لقد شعرتُ بالفقدان! تصوّرتُ أنّني لنْ ألتقيها مرّةً أخرى. ولحظةَ أعْلمتني بالمغادرة انكسَرَ خاطري، وأعترفُ لكِ بأنّني وددتُ أنْ أضع وجهي على صدرها وأبكي!

(7)

أصرَّ طه على مساعدتي يوميًّا في تنظيفِ الدكّان وتنظيم الكتب في البسطة. وأخذ يفكّر معي في أمر الهروب من العراق. كان يلدغُني بنظراته كأنّما يردّد في سرّه أنّي أعاملهُ معاملةَ خادمٍ طيّع، وإن كنتُ لا آمره بشيء، بل أترك له الحريّة في فِعْلِ ما يشاءُ، يمسحُ بلّور الواجهة بهدوءٍ، ويغيّر ترتيب الكتب، فيجاورُ بين المجلَّد منها ويضعُه على الرفِّ قبالةَ الباب، لِظنِّه أنّ سُمكَها يجذبُ الزبائنَ. أمّا الصور القديمة بالأبيض والأسود فيَفرِدُها فوق المجلّات. ورغم توتّره الدّاخليّ، اتّخذ لنفسه مجلسًا يوميًّا على جانبِ الباب لا يفارقه الظلُّ، وقد أخرجَ المنضدةَ الصّغيرةَ، وأعدَّ الشايَ بنفسه، واسترسلَ في القراءة. لم يكن مغرمًا بالرّوايات أو الشّعر، فكلّ قراءاته كتبٌ تراثيّةٌ يُخرجها من الكراتين التي ركنها أبو محمّد قبلَ القبض عليهِ. وحينَ أُشاكسه بالسّؤال عن سبب استغراقه في قراءتها، يردّ عليَّ بأنَّ وقائع الماضي تشبهُ وقائع اليوم، وحَسْبُ المرء ما يجدهُ في بعض كتب الأقدمين. كنتُ أحملقُ فيه وهو ينطق بهذا المعنى. هل يقصد أنّ حاضرنَا لا يعدو أن يكون نَسْخًا للماضي؟ وإذا

صحّ ذلك، فما جدوى ما يخطُّه كتَّابنا اليوم؟! فوجئت يومًا بحديثه عن إخوان الصّفا، وسألني عنْ رأيي فيهم، وعمّا إذا قرأتُ رسائلهم كلّها. لماذا سألني عنهم دون غيرهم؟! الحقّ أنّي لم أخفِ تعجّبي. قال لي دُونَ خوْفٍ: «أدركتُ أنّ لكلّ عصرٍ جماعتَهُ، ولا يُمكنُ لهذه الجماعة أنْ تعملَ وتفكّر إلّا في السرّ، لذلك تأتي أفكارُها غامضةً في زمنها وتحتاج إلى أشخاصٍ آخرين يولَدون في زمنٍ آخر كيْ يفهموا السرّ. انظري إلى كلّ الآثار التي تركتْها الحضاراتُ السابقة، ألا تَرَيْن أنّها حملت أسرارًا لم يستطع حتّى أبناء الحاضر فهمها؟ في كلّ حَجَرٍ ومخطوطٍ أشياء غائبة، نسمّيها المجهول، وحينَ نفشلُ في فكّ ألغازها، نبرّئ أنفسَنا من العجز وندّعي أنّ ما بُنيتْ عليه خرافاتٌ وأساطير!».

خشيتُ يومها أن أبوحَ لهُ بأنّ الأعوان حلقةٌ من حلقات ذاك التاريخ الهامشيّ، تجمَع كلَّ منْ آمنَ بأنّ الحياةَ غوصٌ على النور في عمق الديجور، وبحثٌ في جوهر الوجود لا يتردّد في أخذ الحكمة من أحد، لكنّ قدَره أنْ ينشأ في الكتمان، فتُعْقَدَ مجالسُ أصفيائه في الدّواميس تحت الأرْضِ، ويُعرِّضُون

للتّشريد والملاحقَة لأنّهم يفكّرون بحرّيّةٍ ولا يعترفون بحدود الفكر التي رسمَها مجتمعهم.

كان يبكّر في الصحو كلَّ يوم، على ما اعترفَ به من قلّة نومه. وكثيرًا ما ردّد أنّ كوابيسَ المدّة القليلة التي قضّاها في مديريّة الأمن ما تزالُ تُقِضّ مضجعه. لكنّه لم يخرج إليّ كعادته في صبيحة ذلك اليوم الشّديد البرودة، وظلّ في الغرفةِ حتّى ظننتُ أنّهُ استيقظ عند الفجرِ، واتّجه صوبَ نهر دجلةَ. كانَت الأخبارُ يومَها لا تسرُّ مطلقًا، وقد ازدحم الشارع بشائعاتٍ عن قربِ ضربةٍ جويّةٍ أمريكيّة، والمضحكُ أنّ أغلب الباعة هناك يتعاملون معها بلامبالاةِ مريضٍ مستسلمٍ للموت في أيّ لحظة! كان الجميع يتحدّثون عنْ نوايا «ريتشارد باتلر» رئيس بعثة التفتيش، فقبْل حوالي شهرٍ من رمضان اتّهم العراقَ بعدم التّعاون مع البعثة الأمميّة. في الحقيقة، لا أعرف حجمَ هذا الاتّهام ولا أثرَهُ، فكم مرّةً تلبّدت الغيوم في سمائنا وازداد الوضع تعقيدًا. كنتُ أشعر بأنّنا في دوّامةٍ لا نستطيع الخروج منها، ونحن وقوفٌ بين موتٍ حيٍّ وحياةٍ ميّتة! سألتُ للمرّة الألف: هل كان لأسلحة الدّمار الشّامل أن تُخفَى وسماؤنا أقمارٌ

صناعيّةٌ تترصّد حركةَ النمل على أرضنا؟ أيّ وهمٍ يحملهم على تعذيبنا؟ هل غاب عنهم موتنا الجماعيّ؟

لم أكن أكترث لحديث السياسة، وكلُّ ما يُزعجني هو أن نكون ضحاياها. آمنتُ دائمًا بأنّ منْ يبحثُ في تاريخ الأفكار والفنون والحضارات لا يتوقّف عند حدود السّياسة، لا أنكر ما لها من تأثيرٍ في كلّ ذلك، ولكنْ لوْ اهتمّ الأعوان بها لضاعوا في غياهب السّجون وفي الزّنازين تحت الأرض منذ أعوام. الآلاف ممّن استُشهدوا في الأعوام الأخيرة، منذ الحرب مع إيران حتّى الآن، كانوا حطبَ السّياسة الذي يشتعل لأغراضٍ لا تعنيهم، لم يؤمن زوجي بالحرب يومًا، ومع ذلك أُجبر مثلَ آلافٍ آخرين على شمّ رائحة الموت مؤمنينَ في قرارة أنفسهم بأنّ الوطن يناديهم، والوطن أكبر من السياسة! لن أقلقَ! قلتُ في دخيلتي مرّاتٍ إنَّ ما يحدثُ منْ موتٍ عبثيٍّ جزءٌ من هذه الحياة، وإذا كانَ الموتُ سيفًا مسلَّطًا علينا منذ الخليقة الأولى فإنَّ رقابنا لنْ تعاندهُ إلّا بشيءٍ واحد، وهو أنْ تعثر على عقد المعنى الذي وُضعَ على العُنق حتّى يكونَ الموتُ شريفًا! لا يقهر الموتَ غيرُ المعنى.

كدتُ أغرقُ في تأمّل الشّارع المقفر على غير العادة، ففي تلك الأيّام ارتفعت وتيرةُ الاحتقان الشعبيّ ضدّ أمريكا، وازداد الفقر الكافر نهشًا للأجساد في كلّ مكان، حتّى إنّ الناس صاروا يبيعون أثاثَ بيوتهم ليسدّوا حاجتهم البسيطة، وأصبحت مواكب الجنازات أشبه باحتفالات تقديم القرابين للآلهة! فجأةً تسلّل طه بهدوء، فتح عينَيه بصعوبةَ، وهو يرجفُ. انتبهت حينهَا إلى أنّني لم أجلب له معطفَ أبي محمّد، فقدْ داهمنا الشّتاء، وانقلبَ الجوّ كما تنقلبُ الأيّام. كنتُ على وشكِ إقفال المكتبة، وزاد في وحشتي أنّي رأيْته مرتعبًا كقطٍّ أسْوَدَ. بدأت نسمات بردٍ غريبٍ تَخزُني من كلّ جانب، وخفتُ أن أصاب بالرّشح، فأغيب عن الدكان، وليس لطه غيْري!

فضّلتُ أنْ أطلب منه العودةَ إلى الغرفة، فهذا بردٌ لا طاقة له على تحمّله. وأوصيته بأنْ ينتظرني قليلًا، حتّى أُسرِعَ إلى البيت فأعودَ إليه بما يدثّره من أكلٍ ولباس. انتبهتُ حينها إلى أنّني تناسيتُ أبا محمّد، تُرى أيّ أوجاعٍ تطحن عظامَه وآمالَه في برد

مكانٍ مجهول؟ ما الذي بوسعي فِعلهُ؟ لا شيء سوى الانتظار والتسليم بقدرنا المشترك. وعسى هذا البردُ الماكر ألّا يتسلّل إلى مدفن الكتبِ، فتحافظَ في صناديقها على حرارة أفكارها.

لم أتأخرّ كثيرًا. كانَ المساءُ قاسيًا عليَّ. وأنا لم أَعْتَد أن يداهمني الشّتاء من غير أبي محمّد. مازال صوتهُ يرنّ في أذني، ووجهه في كلّ ممرّ. في المقهى المجاور أسمعُ نبراتِ صوته مرابطةً تنتظره في الهواء. لا شيء يتبخّر في هذا العالم، كلّ شيءٍ معلّق. سيأتي يومٌ، وتأتي أجيالٌ تتلقّف الأصوات والكلمات وتبذرها مجدّدًا في وجدانها كي تُزهر. سماءٌ مثل سماء بغداد لا يُمكن إلّا أن تحتضنَ الآهات والكلمات من الأزل إلى الأبد! سألني طه عن شرودي وأنا أقدّم له الشوربة. فكاد وسواسُ يدفعُني للبّوح بما لديَّ لعلّي أُشفى من سقمي الداخليّ. قلتُ له: «ستفترسني الوحدة هذه المرّة، فبعد رحيل زوجي تمسّكتُ بأبي محمّد، كغصنٍ يحنو إلى جذعه. والآن؟!» قال لي: «الآن، أنا هنا!» ثمّ تابعَ: «أنا ابنُ الحرّ، ولستُ ممّن يحبّون الشّتاء، رغم أنّي عشقتُ أيّامَه في الإسكندريّة. لكنّ الشتاء بقربك عذبٌ، وأراه هبةً ربانيّة!» ازددتُ

دهشَةً، فلم يسبق له أن حدّثني بهذه النّبرَةِ. وشعرتُ به يكادُ يُغازلني، وسرعان ما بدّدتُ هذا الوهم! طه لا يقدر إلّا على مغازلة الحَجَر. هذا ما قالهُ لي. الحجر عنده هو البداية والنهاية. وعندما قلتُ له: «التُّرابُ أوّلنا ومنتهانا»، ضربَ قدمه بالأرْضِ وقال: «ما التراب إلّا آهات الحجارة المتناثرة!» في ذلك المساء، عاودني الإحساسُ بأنّني لست وحيدةً ولا يتيمةً ولا أرْملة! أوه! لعلّي أبالغ، لكنَّ عينيه اللّتين اشتعلتا بعد رشفاتٍ قليلةٍ من الشوربة جعلتاني أتضوّرُ جوعًا إلى لحظةٍ منسيّةٍ في تاريخي سخطتُ فيها على إخوان الصّفا عندما اعتبروا الجسد كنيفًا!

مضت أيّامٌ وهو يستيقظ متأخّرًا، ولا يأتي لمساعدتي إلّا متثاقلًا. قبلَ يومٍ واحدٍ منْ رمضان، تسمّر أمامي في أوّل الصّباح، وعدَّلَ من ثيابه حتّى أنتبهَ إلى المعطف الرّماديّ الذي يلفّهُ. ثمّ أسرع يُدخل الكتب إلى الدكّان، ويحتمي بالرّواق من رذاذٍ بدأ يُنعشُ الوجوه. جحظت عيناهُ وهو يرى عارفً مبلّلًا. أخيرًا خرج منْ قوقعته بعد غياب أيّام. وامتزجَ اللّقاءُ بفرحٍ بكرٍ، إذ احتضنه طه، وربّت على كتفه بقوّةٍ. ثمّ همسَ من بين أسنانٍ

رَجَّها البرْدُ: «اعذرنا، تركناك وحيدًا تواجه هذه المرأة». وأخذ يضحكُ. تصلّب عارف في مكانه بعد أن حَدَجتُه بنظرة عتاب. قلتُ لهُ: «ها أنت هنا!» وتذكّرتُ لحظتَها كيفَ كانَ يتسلّل إلى الحديقة قبلَ أشهرٍ، ليحفر المدفنَ، فيحتقن وجهه، وتترنّح خطاهُ ويأتي ليستفزّ أبا محمّد وهو يقولُ: «أنت في قُمرة القيادة، وتركتني على سطح السَّفينة أعاني ضربات الموج!».

جلسَ عارف يواجه نظراتنا. البردُ يُجمّد بعض الكلمات في فمه، لكنّه مصرٌّ على الحديث. قال: «أخيرًا سنخرج من هنا، لم يعد أمامنا وقتٌ، والبقاء أيّامًا أخرى قد يعني موتَنا جميعًا. وإذا لم يكن مصيرنا هو مصير أبي محمّد، فإنّ الأمريكان سيجهزون علينا!». لفّني بعض الاستغراب. حتّى طه صمتَ بحزنٍ، هو الذي شغله الهرب أكثر ممّا شغله التفكير في زوجته! لا أخفي أنّ كلمة «الخروج» نفذت في عظامنا فدفعت عنّا البرد. تمتم عارف: «بعد أقلّ من شهرٍ نترك البلد، سيكون ذلك أوّلَ أيّام العيد، وسيصحبنا البروفيسور بطبيعة الحال، أمّا أبو محمّد فسأتدبّر أمره. الأوراق الخضراء تفتح بوّابات

السّجون!». قلتُ لهُ: «لم تعلمنا كيفَ نخرج من هنا، واجتياز الحدود أمرٌ في غاية الخطورة»، نظر إليَّ طهَ مُغتاظًا كأنه يقول: «دعينا نسعد حتّى بلباس الوهم!» فتنهّد عارف بارتياحٍ وقال: «مغادرة بغداد ليست نعمة، إنّها مرارة دواء».

أخذ عارف يشرحُ لنا خطّة الخروج. كانت له معارف وثيقةٌ بشبابٍ من الفنّانين الذين عبروا الحدود البرّيّة في اتّجاه عمّان، ومنها طاروا إلى بلدانٍ أوروبّيةٍ عبر مكتب الأمم المتّحدة، وتحوّلت هويّتهم الرّئيسيّة من مواطنين عراقيّين إلى «لاجئين». هنا تركوا كلّ شيءٍ، أحرقوا سفنهم، وباعوا ما لديهمْ بحفنة دولارات، لكنّهم تخلّصوا من الجحيم. عددٌ من الأعوان رحلوا بالطّريقة نفسها، قالوا إنّ العالم رحبٌ، والهجرة أسلم من البقاء في دار الخوف. إيه يا دار السّلام! لولا عارف لما تمكّنت عالية وزوجُها من الوصول إلى هولندا، فقد كانتْ صِلاته بأصدقائه الهولنديّين مفيدة، وكان يقول دائمًا مفتخرًا: «لا تقولوا الشّعراء يتبعهم الغاوون! بل قولوا يتبعهم الهاربون!» تطلّع طه نحوي: «أخيرًا سنصعد السّفينة! أنا أخشى البحر، لكنّ ركوب السّفينة أمرٌ لا غنًى

عنهُ، لا تجعلنا نركب البحر يا عارف، فسفينتنا تعبر النهر!» عَلَت عارف ابتسامةٌ مريرة: «البحر والنهر سيّان يا صديقي، والنّجاة هي النّجاة!» لم يكن في الأمر ما يدفع إلى تعجيلنا بالكلام وانسحاب عارف سريعًا. لكنّه اكتفى بطلب جوازَيْ سفرنا وصورٍ شخصيّةٍ لكلٍّ منّا، وقال وهو ينظر إلى الزّول: «من هنا فصاعدًا، تقبّل التعليمات واتّبِعها، احلقْ اللّحيةَ أوّلًا، ثمّ شعرَك حتّى تتخفّف من بؤسك!» ردّ طه متضايقًا: «أنا متصالحٌ مع نفسي بهذه اللحية!»، فتأوّه عارف: «ألم أقل لك اتّبع التعليمات؟! يبدو أنّك لم ترَ نفسك في المرآة منذ زمن، اللّحية زادتك عمرًا، وصارت مجلبةً للوساوس». فقال طه مُتندّرًا: «التعليمات تلاحقني حتّى في التّخطيط للنّجاة؟!».

دخلنا نحن الثّلاثة في شرودٍ ممتعٍ دام لحظات. فما أبهى أنْ يحلم الإنسانُ بالهرب!

طلبتُ من طه أن يحلق لحيتَه في الغد حتّى نذهب إلى المصوّر. وتهامسَتْ نظراتُنا بعد أنْ غابَ عارف. حدّق بِي مليًّا كأنّما ينظر في مرآته، وقال: «هل سأبدو بالفعل أفضلَ حالًا دونَ لحية؟!»، أومأتُ له

برأسي أن نعم. فدفع الكرسيّ أمامَه وقال: «اجلسي، المسيرُ أمامنا طويلٌ في الأيّام القادمة». ثمّ أضاف بنبرةِ مَن يفضي بسرٍّ: «سترحلين إلى هولندا وأعود أنا إلى قريتي، لكنّي أتساءل أحيانًا لماذا كلّ هذه اللهفة على الهرب، أليس الموتُ هو نهايتنا في كلّ مكان؟!».

كانَ يتحدّث بلهجةٍ غامضة. ما الذي أصابَه هذه الأيّام! تمالكتُ نفسي قليلًا كيْ لا أصدّه عن مواصلة الكلام. فتابع: «أتعرفين؟ الشّوق إلى القرية مثل الجُرح، لكنّي لا أرى الدّمَ ينزفُ فيها، إنها موطني ومع ذلك أراني نقشًا على حجرٍ في مكانٍ آخر، لسنا أكثر من حروفٍ تنبتُ في مكانٍ ثمَّ تموتُ في آخَر، نحن حروفٌ، ولا أحد منّا يعرفُ أيْنَ سينتهي به المعنى؟!».

الحقّ أنّي لم أنتظر منه مثلَ هذا الكلام. وما عهدتهُ متأمّلًا إلى هذا الحدّ. ظننته صارَ ساحرًا يأسرني بكلماته الغامضة. أمّا أنا فاعتدتُ أنْ أخفي معنى الكلمات، فعلى هذه الأرْض لا يُمكنُ أن نعيش دونَ إخفاءِ ما يحيا بداخلنا من أفكارٍ وآمالٍ، ولا

أحد من الأعوان يودُّ البوحَ بما لديْه أمامَ العامّة. تعلّمنا أنْ نحافظ على تلك الأسرار التي تجعلنا نعيش من أجل غايَةٍ سامية.

قبل أيّامٍ أراد طه استفزازي، فعبّر لي عن استغرابه من سلوكي وأنا أحدّثه عن إخوان الصّفا. لم يفهم كيفَ أدخّن السّجائر وأشربُ العَرَق أحيانًا، بينما تلتزم الجماعةُ بالدّين. ضحكتُ يومَها في صلفٍ، وقلتُ لهُ بإيجازٍ: «متى كانَت الأفكار جامدة؟ أَمَازِلتَ تنظرُ إليها نظرتَك إلى حجارة المعابد؟!» لم يستبسل طه في المناقشة، ولم يغضبْ، وقال بهدوءٍ وتندّر: «أنتِ إذَن من إخوان الصّفا الجدد!» وراح يضحك. لم أَنْتَمِ يومًا إلى أيّ جماعة، وليس الأعوانُ كتلةً حزبيّةً يحملون إيديولوجيا محدّدةً بضوابط، ولا مراتبَ يحتلّونها بحسب تفانيهم في الالتزام بشيءٍ مّا، وليسَ أبو محمّد زعيمًا ولا شيخَ طريقةٍ. كيفَ يمكنني أن أبوح لطه بأنّنا لسنا دعاةً إلى مذهبٍ ولا ناطقين باسمِ دين، وحينَ نُجلُّ القدامى من المفكّرين لا ننسى أنَّنا أبناء هذا العصر؟ كيفَ أعترفُ لهُ بأنّ الأعوان همْ أبناءُ شبكةٍ واسعةٍ لا تحدّها لغةٌ ولا دين، فكلّ اللّغات تنبعُ من وجدانٍ واحد، وكلّ الأديان تصبّ في دينٍ

واحد، وكلّ عونٍ لا يسعى إلّا في سبيل الحكمة؟! وكيفَ سيفهم أنّنا نعُدُّ إخوان الصّفا مرجعًا طلسمًا ما يزالُ بكرًا، وفيه أسرارٌ لا يتناقلها إلّا الأعوان بتكتّمٍ، وأنّ أفكارهم متناثرةٌ في العالم مثلما تتناثر الكواكب في الكون! هل كان عليّ أنْ أكرّر على مسمعه ما كان أبو محمّد يقوله: «سامح الله الشافعيّ حينَ أغلق بابَ الحكمة فقيّدها بالسُنّة، فأضاع علينا بابها»؟!

ظلّ طه ينتظرني عند باب المصوّر بعد أنْ التقطَ له صورة. وحين انتهيْتُ من التصوير سألني برقّةٍ: «هل من العدلِ أن يُصوّرني في ثانيةٍ ويصوّرك في دقائق؟!» صار كائنًا آخر تكاد طرافتُه لا تنفد. وكانت ممزوجةً بابتسامةٍ غريبَة. قال لي مرّةً إنّه تعلّم من الحيوانات في طفولتِه معنى أن يَسخرَ من العالم، وأن يُلقي بصرامة العقل في النّهر. وكرّر عليَّ أنّه يرانا جميعًا أنواعًا حيوانيّةً بكساءٍ بشريّ! وحين يشرعُ في تحليل ظاهرةٍ ينتهي إلى إجراء مطابقةٍ مستفزّةٍ مع موقفٍ حيوانيّ. ويقول إنّه لن يضيّع أيَّ فرصةٍ تتيح له الكتّابة عنْ تلك الحكمة، بدلًا من مواصلة حياتِهِ في تقليب الآثار، واستقراء الحجارة. كنتُ أميّز

الغريزة من العقل جيّدًا، لكنّي لا أخفي إعجابي بتلك المطابقة بيْنَ السّلوك البشريّ وردّ الفعل الحيوانيّ، ولعّل ما لدغَني حقًّا في حديثه، قوله ذات يوم إنّ ذاكرة الحيوان أشدُّ بأسًا من ذاكرة الإنسان، لذلك لا يعرفُ الحيوان الخيانة بينما يخون الإنسان!

رغبتُ في معرفة المزيد عن تفكيره بالحيوان. وعندما انتهى منْ رمي حِكَمِه عن ذلك العالم، أخذ يُتمتم: «كليلة ودمنة... لعنةٌ على صاحبها ولعنةٌ عليّ!» يبدو أنّهُ ما يزالُ يُعاني ممّا فاتَ. كانتْ كلمة «لعنة» عندي أعلى درجات الشّعور بالغبن، بلْ قمّة الوعي. إيه، ذلك الوعي، ألم يكن هو الفارق بيننا وبين الحيوان؟ ألذلك نحن نقطفُ اللعنةَ من شجرة الوعي التي تشبه شجرة الزقّوم؟ ومتى كانَ الوعيُ غيْرَ طريقٍ إلى المأساة؟! أليست المأساةُ ثمرةَ الخطيئة، أليست الخطيئةُ هبة آدم لبنيه؟! أعترف أنّي لُذتُ بهذه الهلوسات فانشغلتُ عنهُ. الإنسان أعلى مراتب الحيوان، هذه قاعدةٌ صفائيّة، ولكنْ هل يكونُ منْ قدرنا أنْ نَحيَا بشرًا ونُعامَل في أحيانٍ كثيرَة معاملةَ الحيوان!؟ وكيفَ لنا أنْ نبلغ أعلى مراتب الإنسان، وقد وُجدنَا لدُنيَا الفناء؟! مزيدًا من الهلوسات،

الوحدةُ المرّة، ليست سوى نبعٍ لهذه الهلوسات.

من حسن الحظّ أنّي فكّرتُ في انتشاله من الصّمت وانتشالي منَ الهلوسة، إذ اقترحتُ عليه الذّهابَ إلى سوق الهرج في منطقة الميدان. كنتُ أودُّ أنْ يطّلعَ على ما يحتويهِ منْ أنتيكات ولوحاتٍ قديمةٍ وتُحَف، فقد يجد فيه رائحة السابقين. طمأنته، وأخبرتُه بأنّه سيكونُ بخيرٍ حينَ نجتازُ الحدود. لكنّه لم يُجبْ. تطلّب الأمر دقائقَ حتّى عبرنا شارع الرّشيد، وبعض أحياء الحيدرخانه. كانَت السّوقُ حزينةً وكئيبة. وكان طه غارقًا في تفحّص الأزقّة والجدران الآيلة للسقوط. حركة الباعة قليلة، والوجوه شاحبة، وأجهزة الراديو القديمة والغراموفون والتّسجيلات الموسيقيّة ملقاةٌ على قارعة الطريق كجثثٍ هزَمَتْها حربُ النّسيان، والأثاث القديم غزا حيّزًا كبيرًا من السّوق، كأنّه يروي سيرَة راحلين، هاربينَ. ماذا لوْ نطق الأثاثُ، وتلك الأواني المستعملة والأدوات الكهربائيّة البالية؟ ماذا لو اشتكتْ بؤسَ أصحابها الموتى والأحياء المعدَمين؟ لم يكنْ طهَ يتبعُ خطواتي، وكلّما شدّتْ بصرَهُ تحفةٌ رخيصةٌ توقّف وهمسَ لي: «لو لم نكن نفكّر في الهروب لاشتريتُ كلَّ هذه

التّحف، وحملتها معي إلى القرية، وبنيتُ لهَا غرفةً خاصّة، وجعلتها مزارًا!» لستُ متأكّدةً من حماسته للعودة إلى القرية، وربّما كنتُ أخطّط لئلّا يعود، فذلك قد يعني فراقه، وكيفَ لي أنْ أفارقهُ بعد الآن!؟ كانَ يغمرني شعورٌ بأنّ كلّ راحلٍ إلى مكانٍ لا يُمكنه العودة من حيثُ أتى. الرّحيلُ وداعٌ أخير! لماذا مُنِيتُ بهذا الإحساس، هل كانتْ رائحةُ أشلاء الرّاحلين تزكمُ تفكيري؟!

اعتقدتُ أنّه سيظلُّ غارقًا في تقليب التُّحَف على ناصية الطريق، لكنّه سرعان ما أبدى نشاطًا وحماسًا للدّخول إلى قلب الدّكاكين، يسألُ الباعة ويتحدّثُ إليهمْ براحةِ من يقيم في ساحة الميدان ودرابين الهرج منذ أمد! صرتُ أتبعُ خطاه! وصارَ هو يتعمّدُ تجاهلي، وفجأةً صاحَ بي: «انظري، هذه قطعةُ منّا!» انتبهتُ لحظتَها إلى البرواز المعلّق على جدار دكّان بائعِ الأنتيكات، إطار منَ الخشبِ المزخرفِ، ويحتضنُ ورقةً عريضةً اصفرّت طرّتها، بينما حافظ خطُّ النسخِ فيها على نظارتهِ، وعليْهَا كُتبتْ كلماتُ الشاعرِ الهنديّ طاغور:

«أَيُّها الرحّالة، أَينبغي أَن ترحل؟

اللّيل ساجٍ، والظُّلمة تمَّحي فوق الغابة.

المصابيح تُشعُّ في شُرفتِنا والزَّهرُ كلُّه ترقرقَ ريَّان، والعُيونُ الفَتيّةُ تَسْتيقظ هادئة.

هل آن وقتُ الظّعن؟

أَيُّها الرحَّالة أَينبغي أَنْ ترْحل؟

لم نحِط بأَيدينَا الضَّارعة قدَميك.

إِنَّ أَبوابَك مُشرعَةٌ وجَوادُكَ المسَّرجُ قائمٌ أَمام البَاب.

لئِنْ حَاولنَا أَن نُعيقَ مُروركَ، لم نعمد إِلى ذلِكَ بِغيرِ أُغنيَاتنِا.

لئنْ حَاولنا أَنْ نُثنيكَ عَنِ الرَّحيل، لقدْ توسَّلنَا إِلى ذلكَ بِعيُوننا فَحسب.

أَيُّها الرَّحَّالة إِنَّنا عَاجِزونَ عَن اسْتِبقائِكَ، وليسَ لدينَا سِوى الرَّحيل» (5).

تسمّرتُ في مكاني، وأخذَ طهَ يتمّمُ وهو يعيدُ قراءةَ

الأسْطرِ. لا شيءَ أكثر عنفًا منْ لحظةِ انكشافكَ أمامَ صوتٍ لا جسْمَ له. كلماتُ طاغور المسجونةُ في هذا البرواز سحرتني. هل كانَت روحُ طاغور تتبعنا؟! تعيشُ داخلنا؟! قال طهَ وهوَ يهزُّ رأسه يمنةً ويسْرَةً: «اللهمّ إنّها لكرامةٌ منْ كراماتك!»، ثمّ تابعَ: «أرأيتِ يا ثناء، لنْ يحدثَ هذا إلّا لأحفاد الأولياء، لا يحدثُ إلّا لحكيم!» ومالَ على البائع واستأذنه في قلمٍ وورقةٍ لينسخَ تلك الكلمات. ثمّ نظرَ إليَّ وقال: «كيف لي أنْ أَنسخَ في حضرة الورّاقة؟!» كانَ البائعُ يتابعُ حديثَ عيوننا أكثرَ ممّا يُنصتُ إلى صوتَينا العاجزين عن العلوّ فوقَ صوتِ طاغور! مرّت دقائق عميقَة. كنتُ أكتبُ وهوَ يتلو الكلمات مثلما يرتّل آيةً أو ينشد مزمورًا.

عنْدَ خروجنا من الدكّان، وضعَ الورقَةَ بحنوٍّ في جيبِ السّترة الصّوفيّة، وأومأ إليّ بأنّه يبحثُ عن مقهًى قريب. لم يكن أمامي بعدَ أن بعثَ الله فينا كلمات طاغور إلّا أن أُسرعَ إلى مقهى الزّهاوي. وما إن وصلنا حتّى وجدنا مفاجأةً ثانيةً في انتظارنا! أحسستُ لحظتَها بأنّ ما يحدثُ ليسَ أمْرًا عاديًّا. فتلاحُقُ الصُّدَف علامةٌ غامضة. وجدنَا البروفيسور

عبد القادر جالسًا على الكنبة الخشبيّة وحيدًا، وإلى جانبه عددٌ من أعماله الفنّيّة الصغيرة المقاس المرسومة بالأكريليك. بدت عيناه متعبتَين يُداعبهما النّعاس، وهوَ يقْرأُ كتابًا، واستكانةُ الشّايِ أمامه شبه فارغة. فرح طه بهذا اللقاء غير المنتظر، وتفتّحت عينا البروفيسور كأنّه بُعِثَ الساعةَ منْ غيابٍ عميق. بدا عليهِ الحزنُ رغمَ الابتسامة الوديعة التي حيّانا بها. أعلمُ أنّه كثيرًا ما يتردّد على السّوق منْ أجلِ بيع أعمالٍ له يقول إنّها لا تمثّلُ فنَّه الجوهريّ، بل هي مجرّد خطاطاتٍ لأفكارٍ لا يُمكنُ بيعها بأسعارٍ بخسة!

سبقني طه إلى إعلام البروفيسور بقرار الهرب، فأخذ يستمع إليه بريبَةٍ وعيناهُ تجلقان في المقهى الذي بدا شبه فارغ. من الواضح أنّه مستغرقٌ في التفكيرِ بأمرٍ آخر. وسرعان ما قاطع طه: «قررّتُ أن أظلّ بالعراق، لا يُمكنني أنْ أتركها وحيدة. لا يُمكنُ أنْ تموتَ مرَّتين. لقد وعَدتُ روحها بأنْ أُدفَنَ جنبَ قبرهَا». لم يُحاول طه إقناعَه بالهرب معنا. فقد تجمّدت عيناهُ وهو ينظرُ في استكانة الشاي. ولم يجد ما يقوله للبروفيسور، مثلي تمامًا. لا أعرف لماذا شعرتُ بالمهانة لأنّني سأتركُ قبرَ ماجد باردًا من

دوني بعد موتٍ؟!

أنقذَنا البروفيسور: «تحدّثت إلى عارف، وقرّرتُ بيعَ بيتي، فثمنه هو كلّ ما أستطيعُ أن أساعدكما به لمغادرة العراق. سيستلم المشتري البيتَ بعد أن تغادرا، وعندَهَا أستقرُّ في الدكّان، سأتابع مع عارف مصيرَ أبي محمّد، لم يعد أمامنا من خيارٍ سوى التخطيط للأمر على هذا النّحو».

قلتُ وأنا أربّتُ على ظهْرِه بلطفٍ:

- «ألم تحدّثني في الماضي القريب بأنّ السفينة تسعُ الجميع، والطوفان قادم! كيفَ نتركك للطوفان؟!».

- « كلّا! السفينة تسعُ منْ كلّ زوجين اثنين!».

قلتُ مرّةً أخرى: «حدّثتَني عن وجوب الرّحيل متى وُجِد جور الإنسان».

أجابني بهدوء الحكماء: «في البستان سألتقي ملك الجنّ وأشكوه جورَ الإنسان!».

خشيتُ لحظتَها أنْ ينتبه طه إلى إيحاء البروفيسور. رأيتهُ يكظمُ ابتسامةً ماكرة، لم يُطلقها إلّا عند خروجنا من المقهى. حدّقت في عينيْه لعلّي أرى

صورةَ البروفيسور في بؤبؤَيْه فما وجدتُ غيرَ وميضٍ ساحرٍ مفعمٍ بنوعٍ منَ اليأس. في الأثناء صمّم طهَ على ألّا يترك البروفيسور يعود إلى بيته منفردًا، فقرّر أنْ يُمضي معه بضعة أيّامٍ هناك بحجّة شدّة البرد في البستان. لم أكن رافضَةً لذلك، فقد يُخفّف عن البروفيسور الشّعورَ بالضيق والوحشة، ونحن على أهبة الاستعداد للرحيل. ولا أخفي أنّ خفقانًا جارحًا هزَّ قلبي حينَ تلاشى ظلّهُ بيْنَ أزقّة الحيدرخانه.

دام غيابهُ أيّامًا لا أغمض فيهَا عينيَّ للنوم بشكلٍ جيّد. وكنتُ أدخلُ غرفة البستان منْ حينٍ إلى آخر، لعلّي أعثر على ورق تلك الحزمة التي ظللتُ أبحث عنها، وازددتُ يقينًا أنّها تحوي ما لم تقع عليه عينايَ من قبلُ مادام طه تعمّد إخفاءها في هذه الغرفة. قد يكون من الأنسب أنْ أنسى الأمرَ، لكنّي أدركتُ لاحقًا أنَّ تبخّرهُ بين الحشود على الحدود لم يكنْ سوى صورةٍ لتبخّر تلكَ الحزمة، رغم أنّي قدّرت أنْ تكونَ نقوشُه التي سلّمني إيّاها هي الحزمة ذاتها، وهذا مجرّد احتمال.

وعندما اقترب شهر رمضان، عزمتُ على ألّا

أتركه وحيدًا في غرفته، وقرّرتُ دعوته إلى الإفطار معي في بيتي فأعلمني بأنّه اتّفق مع البروفيسور على أن يقضّيَا رمضان في بيته، وحين طلبتُ منهُ ألّا يتركني وحدي! انقلب الوضع! إذ نظر إليَّ دونَ أن يقول شيئا ثمَّ همس: «ليكن ما تريدين، أيّامٌ معك وأيّامٌ مع البروفيسور، وتلك الأيّام أداولها بينكما حتّى يجدَّ الرّحيل». كانت عيناهُ منتفختَين منْ قلّة النّوم. وعندما سألتُه عن سبب ذلك قال لي: «لا نكادُ ننام، كلّما حكى لي قصّةً من حياته حكيتُ لهُ اثنتَين، الحياة قصص، ما معنى الحياة من دونها، ولماذا يحتكرُ اللّيلُ قصصَنا، لماذا نصمتُ في النّهار عنها، وتعود إلينا ليلًا لتعذّبنا؟!» فكّرتُ في أن أشتري لهُ بيجاما شتويّة، لعلّه إذًا شعر بالدّفء استغرق في النّوم، ينبغي أنْ يتمدّد في السرير ويتناول الطّعام بصورةٍ جيّدة، حتّى يستعدَّ للأيّام المقبلة.

انتصف شهر كانون الأوّل الذي ولدتُ في أيّامه. كانت ساعات اليوم الأوّل من رمضان موحشة، إذ غاب الصّحو في سماء بغداد، وخيّمَ عليَّ شعورٌ بالوحدة رغمَ حركة الباعة في الأسواق، ولهفة الناس في الشّوارع. الجميع لا يبالون بما يُشاع، ويتعاملون

معَ التهديدات الأمريكيّة بشيءٍ من التهكّم. فما الفرق بين هذه الحياة البائسة والموت؟ لم يكن الأمريكان يدركون أنّ البيوت التي اقتحمها الموتُ أنبتَ فيها رائحةً صارتْ تلفُّ أصحابَها بمعطفِ التسليم بأيّ شيءٍ، فلا معنى للبقاء، ولا معنى للرّحيل، وما الحياةُ إلّا انتظارٌ طوعيٌّ لموتٍ قادم!

حينَ قدم أخيرًا للإفطار معي في ذلك اليوم الرّهيب قال لي: «آسف لأنّني لم أزرك قبل اليوم، لقد سبّبتُ لك ما يكفي من المتاعب، ولكنْ للبروفيسور عليَّ حقّ. جلسَ على الأريكة الوحيدة التي تحتلُّ قلبَ الصّالون في بيتي، وظلّ ينظرُ إلى اللوحات المعلّقة على الجدار المتصدّع، ورأسه يميلُ في جميع الاتّجاهات، يَقنصُ كلّ ما يعترضهُ. كانت تلك زيارته الأولى لي في بيتي، بل زيارةَ أوّل مخلوقٍ إنسيٍّ لبيتي بعد موتِ ماجد.

سألَ طهَ: «أليسَ منْ حقّنا أنْ نعيشَ كما نريد؟» فقلتُ بصوتٍ عالٍ وأنا أضحكُ منْ جهة المطبخ: «هل سمعتَ بأنَّ الأموات عاشُوا بعدَ موتهمْ؟» لكنَّه علّقَ على قولي بأنَّنا أحياء رغم كلّ شيء، ولنْ ننتظر

ما بعد الموتِ حتّى نعيشَ حياتنا. وقال بصوتٍ مجروح: «يا ثناء، هل الحياة مقترنةٌ بأعباء هذا الجسد وقلقِ هذا العقل، أمْ هي حياة النَّفس فحسب؟ وإن نحن عشنا دونَ هذا اللحم الذي لا يصبرُ طويلًا على الجوعِ، فهل نشعرُ بمعنى الحياة؟!»، خرجتُ من المطبخ مسرعةً وأنا أستمعُ لأسئلته البديعة. «يا طه، إذا أصبحتَ تنطقُ بهذه المعاني، فالأفضلُ أن نبقيكَ هنا، فلا ترحلْ عنْ أرض العراق وهوائها، أنتَ هنا تتجلّى». وأخذتُ أمازحه، وهوَ يتجنّبُ التّحديق إليّ. ثمّ قلتُ: «هل سيلتحقُ بنا البروفيسور؟»، قال: «كلّا! طلبتُ منهُ ذلك، فأجابَ بأنّه لم يترك بيتهُ قطُّ، ولنْ يتركهُ. أتعلمينَ أنّهُ يشخر في اللّيل كثيرًا، ولمّا سألته عن السبب، قال إنّ ذلك ليس شخيرًا، بل صوت محاورةٍ بينه وبين زوجته! والله ارتعبتُ يومَها، وخشيتُ على نفسي معه!».

وحالما بدأنا السّهرة بعد الإفطار أخذ طه يتململ، شعرتُ بحرجه من وجوده معي في بيتٍ مغلق، وهو بدعابته المعتادة لم يخفِ ذلك، فسألني بصوتٍ مبحوحٍ: «ألن يتساءلَ الجيران عن وجود غريبٍ في بيتك؟!» فقلت: «لا يكاد أحدُنا يهتمّ بالآخر. هذه

البناية شبه المتداعية شبهُ خالية أيضًا، وأنا لا أدخلُ بيتي عادةً إلّا آخرَ المساء، حتّى إنّني لا أعرف مَن تبقّى منهم على قيد الحياة ومن مات!؟» لكنّه شكَّ في كلامي: «الجيران في كلّ مكانٍ تتّسعُ عيونهم ما إن تشتمّ الأنوفُ رائحة الغرباء، العيون منْ أدوات اللّصوص، في الإسكندريّة، وفي القرية، وفي اليمن، وفي الرباط، حيثما تمتدّ النُّطف العربيّة، لا تجد غير العيون المتلصّصة، تلك غريزةٌ فينا، ومهما تكن النّوايا فهيَ منْ أثر عيون القدامى، ألَا ترين أنّ الحضارات القديمة لم تخفِ انتباهَها إلى العين، انظري في عيون التماثيل السّومريّة، وفي عين حَوْرَس لدى الفراعنة، انظري في المرآة إلى عينيك!»، ثمّ أطلق زفرةً طويلَة، بينما ذهلتُ لكلامه. هل كانَ يقصدُ تلصّصي عليه؟! أم يتغزّل بي من خَلف ستر الكلمات؟!

كان المطرُ في الخارجِ يطرقُ زجاجَ النافذةِ. وكنتُ في حيرةٍ وهو يتحدّثُ عن تخميناته الأولى عند دخوله العراق. بدأ في ذلك اللّيل يستعيدُ خيطَ مغامرته الموحشة كما يقول. كُنت شاردةً عنهُ بتفكيري في احتمالِ انقطاع الكهرباء، ففي كلّ ليلة نستسلم لضوء الشّموع أو للظلام. بغدادُ كلّها تستسلمُ ساعاتٍ

للظّلام، بعض البيوت كانت مجهّزةً بمولّداتٍ خاصّةٍ وقد صارت بسبب الحرب قطعًا في متحف خرائب البنايات. لم يترك الحصارُ شيئًا إلّا سلب منه النّفَس! لو انقطعت الكهرباءُ فجأةً سيزدادُ حرجهُ. وأنا؟! طبعًا سيتسلّل إليَّ شعورٌ بأنّني بين ظلامَين، ظلامِ البيت وظلامِه هو!

لنجرّب القهوة، لا ينفع مع هذا البرد الخفيف في البيتِ إلّا فنجان قهوةٍ. كانت عيناهُ تزدادان التماعًا مع كلّ رشفة، وتُحلقان في بندول الساعة الحائطيّة. جاوزت الساعة التاسعة، وبدأ يتنحنح في جلسته استعدادًا للمغادرة، لكنّ رائحة القهوة أسَرَتْه، وجعلته يتمدّد على الأريكة البُنّيّة، يدُهُ ترتجفُ قليلًا وهي تمسك بالفنجان، غير أنّه يُداري نوعًا من الحياء. شعرتُ أنا أيضًا بشيءٍ من الخجل، حتّى إنّني تهتُ في شرودٍ عند ازدياد نقر المطر على النافذة، واستسلمتُ للتمدّد على الكنبةِ وبي قلقٌ لم يدثّره غير الغطاء الصّوفيّ الرقيق الذي يغطّي قدميَّ. باحَ لي ليلتَها بأنّهُ أضحى قليلَ التّفكير في زوجتهِ وأبيهِ وإخوتِه، قال لي: «وحدَها الأمّ لا يُمكنُ أنْ تُغادر الذاكرة حتّى لوْ سكتَ القلبُ، إنّها تقيمُ في قلبِ الرّوح!» وأخذ

يضحك. فدوّت ضحكاته في أرجاء الصّالون، ودوّى معها صوتُ الرّعد، فازددتُ ارتجافًا، وارتيابًا. مرّت وهلةٌ لم أميّز فيها ضحكاته من الرعد ومن صوتٍ شيطانيٍّ قرعَ طبلةَ أذني، حتّى خِلتُني أحلم. ولم أنتبه إلى أنَّ الصوتَ دويّ قصفٍ جوّيٍّ إلّا حين وقفَ طهَ فزِعًا، واقتربَ منّي حتّى كاد جسده يُلاصقُ جسدي، من أثرِ الصّدمة.

تطلّعنا معًا إلى النافذة التي تشقَّق زجاجُها، وتطايرتْ ستارتُها يمنةً ويسرة. ازداد الدّويُّ في كلّ مكان، فجرح آذاننا. وحلّ الرّعبُ محلَّ الضّحك. صارَت هيئته تشبه هيئة شبحٍ، وصرتُ بينْ ذراعيْهِ قمرًا ذابلًا. تواصلتْ الضّربات من كلّ صوبٍ، ونحنُ في فزع الأحياء يوم الحشر. ففكّرتُ في الهروب إلى غرفة النّوم والتسلّل إلى تحت الفراش، لكنّ أصابعه التي أوثقت ذراعيَّ كانت أعنفَ منْ قبضةِ مقاتل. لم نستطع الصّياح، ولا سمعنا أحدًا في البناية يصيحُ. إنّه سُكونُ الأنفاس في حضرة لعلعة القصف. ودونَ مزيدٍ من التّخمينِ دفعتُه نحو البابِ، لكنّه ثبّت قدميَّ بنظراته الزّاجرة، وقال بتلعثم: «نبقى هنا، لو قُدّر لنا الموتُ فسنموت هنا أو في مكانٍ آخر».

اختلط القصف بصوت صافرات الإنذار التي بدت أنفاسُها تلهثُ ثمّ تخبُو. منذ سنواتٍ لم يهتك سماءَ بغداد مثل هذا القصفِ. لقد تحقّقت الشّائعاتُ أخيرًا، ورحتُ أفكّر في أبي محمّد والبروفيسور عبد القادر وعارف والأعوان. أيّ مصيرٍ نواجه يا إلهي؟ وطرقَ ذهني خوفٌ على البستان من الدّمار وذكرتُ المدفن. آهٍ، المدفن؟ ماذا لو قُصِفَ شارع المتنبّي والتهمت النيرانُ مخازنَ الكتب. هل عاد التتار إلى إغراق نهر دجلة بالكتب؟! عدنا إلى الالتصاق على الكنبة، وتكوّرنا كحلزونَين. كانَ الهواءُ البارد يلدغ وجهَينا، وهو يتسلّل من كسور النافذة، قال لي طه: «ماذا تفعلينَ؟»، كنتُ أحاولُ التنصّل من ذراعه، بينما أخذَ البطّانيّة الصوفيَّة وأسدلها على كتفي. حدّقتُ في برواز صورة أمّي وأبي ليلةَ زفافهما، وعدتُ إلى صوتِ أمّي وهيَ تُنقَل في سيّارة الإسعاف صائحة: «الطبيخ على النار!»، لم أدرِ وقتَها هل أبكي أمْ أضحك! نحن الذين صرنا على النار يا أمّي! إيه يا طه، الأمُّ قلبُ الرّوح، حتّى وهي تسيرُ إلى ثلّاجة الموتِ تفكّر في أكلنا وحياتنا وبقائنا!

كنتُ أحاولُ أن أتفرّسُ في عينيه، هو الذي لم

يعرف في حياته قطُّ صوتَ القصفِ، ولم يعش ظلمةَ موتٍ قريب. لكنّي لم ألمح شيئًا. ألقيْتُ يدي فشَبَكَتْهُا في يده، وقال: «يا لطيف! هل أنتِ ثلْجة؟!». كانَ جمْرًا! رائحةُ عرقه تهاجمُ أنفي. قلتُ: «إطلاقًا!» وأخذتُ أرتجفُ، وهو يلاطفُ شعري بأصابعه، ويهدهدني كطفلةٍ فُجِعَت في موتِ قطّتها. لا أعرِفُ لَماذا خطرَت لي هذه الصّورة! قال: «هل سنموتُ معًا؟»، لم أتخيّل نهايَةً مثلَ هذه! حقًّا فكّرت في الموتِ مرارًا، خمّنتُ أن تصيبني شظيّة، رأيتُ كابوسًا في منامي، جسدي ملقًى على سريرٍ صدئٍ في مشفًى حكوميٍّ مهجور، وخفتُ من ميتةٍ واحدة: أنْ ينفجرَ مخزن البنزين المهرّب في طرف الشّارع الذي أمرّ منه يوميًّا، فأحترق. لا أريد الاحتراقَ. أريد أن أموتَ دونَ نار. وفي جميع تلك الحالات كنتُ أرى نفسي أموتُ وحيدةً، أمّا أن أموتَ بين يديْ غريب، كومة لحمٍ وشريحة مشاعر نيّئة، فذلك لم يخطر لي على بال!

استمرّ القصفُ ساعاتٍ. ثمّة أشياءُ تشبه قصصَ أفلام الحبّ، وقصصَ أفلام الحروب أيضًا، كأن يتحوّل رجلٌ متحفّظٌ إلى آخر متحفّزٍ، يجسُّ بأصابعهِ

امرأةً طريّةً بجسدٍ نائمٍ منذ سنوات. وقفتُ دونَ أنْ أشعر، واتّجهتُ نحو النافذة، فلحق بي. هل كنتُ أهربُ منهُ حقًّا؟! رأينا السّماء تلتمعُ بالشّهب الصّاروخيّة ثمَّ تنهالُ على أمكنةٍ بعيدة، تسقط مثلما يرْتمي وحشٌ كاسرٌ على فريسَةٍ جريحة. الدِّفاعات الجوّية تزمجرُ، والضّوء يختفي وينوسُ، وحركة الشّارع شبه عاديّة! بضع سيّاراتٍ مسرعةٍ يلهثُ سائقوها! وبعض الجيران يعبرون الشّارعَ رفقةَ أبنائهم الصّغار، لا أدري إلى أيّ وجهةٍ يسيرونَ، فالموتُ لا يستثني مكانًا، والبناياتُ التي تقفُ شبه ذاويةٍ تلتحفُ بالوحشة. شعرتُ على مرّ وهلةٍ بأنّني انخطفتُ إلى حيثُ أصوات التفجيرات تهزّ الأفق البعيد، وكدتُ أنسى أنّني لستُ وحيدة. عُدنا إلى الجلوسِ على الكنبة، ولا أعرفُ لِمَاذا شعرتُ باليتم ليلتَها أكثر من أيّ ليلةٍ أخرى.

سألني في ارتياب:

- «بمَ تفكّرين؟».

- «لا شيء، هذه المرّة سيدكّون كلّ شيء!».

أخذتُ عُلبة السّجائر من فوق الطاولة، وأشعلتُ

واحدة، راحَ يسحبُ الدّخان المتصاعدَ من فمي بأنفه الطّويلِ، ويتفحّص عينيَّ بجرأةٍ، قال: «أنا أحبُّ عيْنيك!»، وطوّقني بذراعَيْهِ، فصرتُ مثلَ مشلولة. ولم أستطع ثنيَه عن ذلك بيدٍ واحدة، فقد وضع رأسه على صدري بوداعةِ طفل، وهكذا غمرني البردُ أكثرَ. في الخارجِ دويٌّ لا ينكسر، وعلى جسدي دويٌّ قلبٍ يتعالى. شعرتُ أنّ بي حاجةً إلى قنّينة عرقٍ لعلّي أتوهجٌ وأصحو ممّا أنا فيه. همس لي: «اتّساعُ عيْنَيْكِ نبعٌ في صحراء غريب». لم أجبهُ. خالجتني ارتعاشةٌ، وكانت شفتاي تَعضّان على السّيجارة بعنف، وهو متكوّرٌ على صدري كقنفذ! همستُ في أذنه: «طه! ألا تفكّر في البروفيسور؟!»، لا أعرفُ كيفَ عمدتُ إلى هذه الحيلة كي أهرب من الاستسلام للانطفاء في أنفاسه! استلّ نفسه منْ صدري، وقال فزعًا: «يجب أن نسأل عن البروفيسور، مهما ثقل القصفُ ينبغي أنْ أُسرِع إلى بيْته!».

نظرَ إليّ برهةً، والضّوء يتمايلُ على وجهه: «كيفَ نسيناه؟!» وفجأةً نهضَ وصمّم على الخروج. فمنعتهُ من مغادرة البيتِ، فهو لا يعرف معنى المشي تحت

جناح ظلام القصف. وجلسنا ننتظر سُباتَ الدويِّ. لم يكن خفيًّا على أحدٍ أنَّ الموتَ يُنشبُ أظفاره في الأبرياء قبل حرقِ المزارع وإسكات خرير الماء، وشلّ مولّدات الكهرباء أو قتل أشباحٍ تَوهَّم الأمريكان وجودَها في القصور الرئاسيّة. في تلك اللّيلة فرّقنا الشّرود في أطياف الماضي، وجمعنا الخوفُ. فرغم سنوات الحروب والحصار لم يمت الخوفُ في داخلي، بل مازالَ في شيخوخته يصارعُ يُبسَ المشاعر. جمعتنا النّظرات أيضًا، هو يفترسني وأنا أتفرّسُ فيه، وأراهُ ينقلبُ إلى شخصٍ آخر، رجلٍ بملامح محاربٍ. قد يكونُ لطقسِ العنف الدّموي في الخارج تأثيرٌ مباشر، لكنّي سألتُ نفسي: لمَ رضيتُ بدور الفريسة؟ ألم يكنْ من البديهيّ أنْ تتوتّرَ مفاصلي، وتنفتحَ عينايَ فتطوّقَاه، وهو يعيدُ على مسمعي: «اتّساعُ عينيْك مدمّرٌ لكلّ ما تبقّى من آثاري؟».

ضاق الصّالون، وضاقت بنا الكنبة. لِمَ بقيتُ متجمّدةً تحت البطّانيّة، ولمَ خرجَ هو منْ عباءةِ الغريب الذي عرفتُ أوّل يومٍ؟! هل كان القصفُ أشبه بنفخٍ في الصُّور، حتّى تصعدَ أرواحُنا ويتشكّل ما تبقّى من رميمنا على هيئة شفاهٍ مصهورةٍ في قبلَةٍ

واحدة؟ لم أعد أميّز خطوطَ رموشه من خصلاتِ شعري. فقد أَوْدعَ وجهَه في كهف شعريَ القاتم السّوادِ، وانهال عليّ بأنفاسه، كمَنْ يجرّدُ أسيرةً من ثيابهَا، ليأمرِهَا بالرقص تحتَ رذاذ المطر. إيه من قطرات الريق التي تسلّلت إليّ كقصفٍ ناعم! ماذا أفعل؟ وما الذي يفعل؟! أتُرانا نسينا من نحنُ؟! وما الذي يجري حولنَا فتهاوينا كجدارَين على أرضٍ صلبة، وتطايرنا إلى حجارة، وصارت أنفاسنا تحت الأنقاض، لا تُسمعُ. أزيزٌ، صريرٌ، عويلٌ، لا أعرفُ مَن يستغيثُ بمَن! وهل كانَ هوَ يعتصرُ مثلي بهذه الارتجاجات التي حوّلتني إلى كتلة طينٍ بينَ يديهِ؟!

لبثنا غيرَ جامديْنِ. نمتُ ونامَ. ولمّا أفقتُ، تمنّيتُ أنْ يكونَ كلُّ شيءٍ قد انتهى. تساءلتُ: «لماذا تقسو هذه الدّنيا إلى هذا الحدّ؟!» ثمَّ نبسَ بفزعٍ، وهوَ يفتحُ عينيْهِ عليَّ: «هل توقّف القصف؟!» ونهضنا معًا. كان الهواء الباردُ يطرقُ وجناتنا، وحينَ فتحتُ الشُبَّاكَ رأينا الدّخان يتعالى من بعيدٍ، وحركة الشارعِ تموجُ بالعابرين، لا تميّز المشي من العدو، ولا الرّاحلين من المشرّدين والباقين واللّاجئين إلى الله وهم يجرّون الحزنَ كجبلٍ لم يتصدّع رغم القصف. داهمني شعورٌ

فظيعٌ بأنّ البغداديّين يسيرون هائمين في اتّجاه الحكمة الضّائعة، يعودون إلى عصور الحكماء الغابرين. لن نحتاج إلى شُرب الشّاي أو سَلق بيضتَين، فقد شربنا ليلةً كاملةً حشيشَ فوضى العالم حتّى غصّ الحلق. يا لَسُخفِ هذه الحياة! ركضنَا في اتّجاه الشارع دونَ تفكيرٍ. قال طه لاهثًا: «أيّ الطرق أقصر إلى بيت البروفيسور؟». ودون أن أجيبه بشيءٍ تقدّمتهُ مسرعةً، أشقُّ الشارع نحو الأزقّة الجانبيّة، ولا أنتبه إلى ما يحدثُ حولَنا من هرجٍ وبكاءٍ يتلوّى في الجوّ كإعصار.

كانت الشّوارع المحاذية للحيدرخانة تزدحم بالناس. كلٌّ يهرولُ في اتّجاهٍ، وأوّلُ ما التقطتْ عينايَ هو الخرابُ الذي حلّ بورشاتٍ صغيرةٍ كان يشغلها مهندسون من الشّباب، وفيها يصنعون الأطباق اللّاقطة سرًّا، لأنّ السلطات حاولت منعَ انتشارهَا حتّى ننقطع عن العالم الخارجيّ. وبدت لنا مشاهدُ الغبار المتطاير من كلّ صوبٍ، أشبهَ بفوران الأرض. انتبهتُ فجأةً إلى الغريب، وهو يركضُ. لم أستطع اللّحاق بهِ. أسرَعَ إلى بناية البروفيسور المتاخمة لشارع المتنبّي. وصلَ قبلي. وقبلَ أنْ أُدركه، لمحتُ

من بعيدٍ فراغًا بين البنايات التي لم تكن على علوٍّ يُجاوز الطابقينِ. شهقتُ حينَ وقعتْ عينايَ على الفراغ. ماذا لو ماتَ البروفيسور؟! وجدْتُ طهَ فاغرَ الفمِ، عيناهُ تدمعانِ، وهو يشهقُ شهيقَ نساء العراق في ذكرى مقتلِ الحُسيْن. وقفتُ لحظتَها شاخصةً. لم نكن وحْدَنا، فقد تناثر مئاتُ الرّجال والنساء حولَ أنقاض البنايَة التي دُكّت بلعنة «باتلر». قال طه بأنفاس مَن في النَّزَع الأخير: «لقد مات بلا شكّ، البروفيسور لا يُغادر بيْته!» ثمّ بدأ يصيحُ في النّاس، وصعد على الأنقاض وأخذَ يؤذّنُ! جلجلَ صوْتُهُ واختلطت مخارج الحروفِ بالشّهيقِ. وحلَّ الصّمتُ شيئًا فشيئًا، فكدْتُ أتهاوى. لمنْ أشكو مُصابي؟ لمن تركتنا يا الله! لم أعدْ أرى شيئًا، ولا أسمعُ غيْرَ انكسارِ الصياح والآهاتِ والبُكاء، وتلعثم الآذان. هل كان البروفيسور حقًّا تحتَ الأنقاض؟ هل ماتَ مَنْ قرّر ألّا يتركَ العراق، وأنّ يترك امرأةً حَفَرتْ في روحهِ سفينة نجاة؟!

***

تصوّرتُ أنّي سأغرقُ في الحزنِ من جديد. لم

نعثر يومَها على البروفيسور، ولم يعثر أحدٌ من جيرانه على أحدٍ من متساكني البناية حيًّا. كانت رائحةُ الموتِ تعبثُ بأنوفنا جميعًا. ظلَّ طه شاردًا طيلة ذلك اليومِ. وهرولنا إلى البستان. كانَ يهمس: «لا يُمكن أن يقبضوا روحَهُ مرّتينِ»، لم أفهم طلاسمهُ. وخمّنتُ أنْ يكون في البستان شيءٌ يتعلّقُ بالبروفيسور. وتذكّرتُ بصعوبةٍ موضوعَ حزمة الورق. ربّما ذاك مقصدُهُ! لا أدري. لمن تكونُ الحزمة؟ هل هي حقًّا للبروفيسور أم أمانةُ أبي محمّد تتنقّلُ من يدٍ إلى يدٍ، ومن عونٍ إلى عونٍ؟! لاحقته يومَها بعينيَّ الواسعتينِ. كان شارعُ المتنبي يضجّ بالمثقّفينَ على غير العادة. الدّكاكين مقفلةٌ، والجميع في شبه جنازة، وخبرُ موتِ البروفيسور بدأ يشيعُ، والتحقَ بعض الأعوان بالبستان. كانَ طهَ يتأمّلُ ما أسماهم لاحقًا بـ«الناجين»، يقول لي: «من أيِّ أنقاضٍ بُعث هؤلاء؟!» وجوههم شاحبة، وأجسادهم كأنّها رميمٌ متحوّر في شكل هيئات آدميّة، ولا يفهم أصواتهم أحد. أنا لم أفهم شيئًا ممًّا يحدث حولي. ولا أعرف أكان كلامهم عزاءً أمْ إعلانَ عزمٍ على النّجاة؟ تذكّرتُ أمرًا أساسيًّا قاله لي طه: «إيّاكِ أنْ تسمحي

لأحدٍ بدخول الغرفة». كان الجميع متحلّقين حول البستان، وكنتُ أخشى الاقتراب من المدفن، فلا أحد يعرف مكانَه الآن إلّا أنا وعارف. هذا ما اعتقدتُه آنذاك على الأقلّ!

دخلَ طه الغرفة. وطلبَ منّي أن أنتظرهُ. ولمّا أطلَّ برأسه منها، كان يحملُ كيسًا خيشيًّا قديمًا أستخدمهُ في العادة لتهريب قوارير العرق! فجأةً ظهر عارف! كانَ أصلبَ منّا جميعًا. فقد جمع لفيفًا من الأعوان الذينَ تجنّبوا الحديث أمام طه. وتحلّقوا حول الشّجرة جنب المدفنِ. لم نسمع ما يقولون، كانت مجرّد همهمات، اختلطت بأصوات العويل القادمِ من كلّ الجهات. كانَ عارف حازمًا، وقد بدت عليهِ قسماتُ غضبٍ وحزنٍ باهتٍ في عينْيهِ. مشاعر عارف مغلّفةٌ دائمًا بتصميم العقل، ويقول دومًا: «الشعر الفقير من العقل شعيرُ عصافير!» لا أدري، ربّما كنّا نتعامل مع الموت بوصفه حادثةً يوميّة، من فرط ما ننتظرُ حلوله في أيّ لحظة! ربّما كنّا نسلّم بأنَّ في موت الجسد ولادةَ النفس، فهان الموت، لكنَّ الفراق لا يهون!

تفرّقنا يومها، وقد صمّم الأعوان على تدبّر أمر البروفيسور. عزاءٌ، أم لا؟ الأمر عندي سيّان. قالوا سيكون البستان مكانَ العزاء، ثمّ اختلفوا في ما بينهم، وقالوا لا مكانَ للعزاء! فالقصف الليليُّ على امتداد أيّامٍ لم يترك معنًى لأيّ عزاء. سألني طه: «كيفَ أُشفى ممّا حدث!» لم أكن أُدرك وقعَ صلته بالبروفيسور. فنظرتُ إليه بخشوع: «مات أبواي، وزوجي وجنيني، ماتَ العشرات من الأقارب، وسيموت آخرون، ومع ذلك يدكّنا النّسيان!»، فردَّ عليَّ كأنّه يُحدّثُ نفسه: «لا أعرف ما الذي أُحسَد عليه، نعمةُ الذاكرة أم نعمةُ النسيان!». في تلك الليالي المضمّخة برائحة كافور الموتِ، لم يفارق بيتي، لم يفارقني. ولم تفارق بصرَه منمنمةُ السّفينة التي أخرجها من الكيسِ في ثاني ليالي القصف، ووضعها على الكوميدينو قُبالةَ الكنبة ثمّ أخفى تحتها الكيسَ بسرعةِ مَن يهرّبُ الحشيش. هل سجنُ أبي محمّد أرحمُ من هذا الوضع؟ وهل كانَ غيابُهُ أشدّ فتكًا من الموت، أم إنّ غيبتهُ لا تعني غيرَ أنّه عائدٌ لا محالَة؟

كنتُ أقول: «ما معنى أنْ نجتمعَ لنفترق، وكيفَ ننظرُ إلى ذلك الفراق بعينِ الاستسلام؟». لكنّ طه

يصرُّ على أنْ يرجع بي إلى المنزلة الحيوانيّة، ويَخزِني بقوله الكئيب: «إنّنا مثل الخرفان التي تستسلم لحظةَ الذبح». كنتُ أعتقد أنّه سيصمتُ نهائيًّا، وأنّني سألبس السّوادَ إلى ما لا نهايَة. موت البروفيسور ليسَ حدثًا عابرًا. لعلّنا لم نصدّق بعدُ أنّه مات. فعندما لا ترى بعينيْكَ جثمان الميّت، تظلُّ أبدًا غير مقتنعٍ بأنّه ماتَ فعْلًا. ستظلُّ في انتظار أنْ يطرقَ بابَكَ من حينٍ إلى آخر ويدخلَ بغتةً عليْكَ! أخذَنا الصّمتُ إلى عتمةِ الحقيقة الوحيدة في هذا التاريخ البشريّ المخلوط بالدّم. في تلك الليلة المشروخة بفراق البروفيسور، أحسستُ بأنّني ضائعة، وعدتُ إلى تاريخ ضياع الأعوان، خمّنتُ أنّ طه قد استاءَ من خلوة عارف بهم، وأنّ ذلك ضاعفَ من غربته، وهو الذي بدا لي أقربَهم إلى أبي محمّد رغم أنّه سلكَ الطريقَ إليه متأخّرًا عنهم. لم يكن قطّ يجيبُ عن شيءٍ في تلك الليلة. كنتُ أريد مواساته، وأريد حتمًا أن يُواسيني. في تلك الليلة، أدركتُ أنّه لا مكانَ للحديثِ، لا مكانَ للحروف التي تعبّر عنّا أحيانًا، وتخوننا أحيانًا أخرى، لا مكانَ إلّا لتلك اللّغة التي تجعلني أطرحُ شعري على ركبتيه كجدولٍ

يستريحُ على ضفَّته.

نقش

«نصرٌ من الله وفتحٌ قريب»

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ على زواجي حتّى فكّرتُ في العودة إلى اليمن. وجدتُني غريبًا في القرية، غريبًا في بيت الزّوجيّة أيْضًا. كانت سُليمة وديعةً كنعجةٍ خاملةٍ تحتَ شجرةِ المانجو. قَبِلتْ بي دونَ أنْ تعلمَ أنّني أبحث عنْ أثرِ شيءٍ آخر. لم تبخل عليَّ بشيءٍ، أعني ما تقدر على منحهِ من طاعَةٍ. عوّدتها دائمًا أن تراني كطيفٍ، وأن تقبَلَ بي حاضرًا وغائبًا في وقتٍ واحد. وكلّما سافرتُ إلى مكانٍ، ثمّ عدتُ منهُ بشوقٍ إلى رحيلٍ آخر، كانت تستسلمُ لذلك القدر. بل إنّها، ولله الحمد، تحثّني على السّفر. وتتندّر قائلةً إنَّ السّفر يجعلني شبيهًا بمَن يشربُ المريسة، أعود إليها ثملًا، فألزمهَا أيّامًا لا أغادرُ فيها غرفةَ النّوم، أحرثها بما لديَّ من شهواتٍ، وأزرعُ فيها ضحكاتٍ مكتومة.

لا أنسى كيفَ حللْتُ بصنعاء، وقد تركتُ سليمة حاملًا. دخلتُها مع مغيب الشّمسِ، وبي لهفةٌ إلى رؤية هيرُو. هذه المرّة وجدتُه متسمّرًا في قاعة الانتظار بالمطار. كان الرّجلَ الوحيدَ الذي يلبسُ

جاكيته صيفيّةً في جوٍّ شتويٍّ قاسٍ، لقد علَّمه البحرُ معنى أنْ يفتح صدرهُ عاريًا للعواصفِ، فلاَ يخشَى صفعات الموج. بدا مضطربًا، يتلفّت حَوالَيه، مرتابًا منْ أيّ صوتٍ، كعادته. يخطو خطواتٍ متردّدةً في اتّجاهي بسرعةِ مَنْ يريد الهروب من المطارِ، ثمّ يتوقّفُ ليترك لي مجالًا كي أُسرِع إليْهِ. فكّرتُ ونحنُ على مشارفِ فندق سبأ أنْ أسألهُ عمّا يدفعه إلى الحديث عنْ أشياء لا تعنينا معًا، عنْ ذلك الهراء الذي ملأ به مسافة الطريقِ، غيرَ أنّي أجّلتُ ذلك إلى لقاء الغد.

أينَ بهجتُكَ يا هيرُو؟ كنتُ أفترضُ أنّه كائنٌ صيفيّ، لذلكَ يتلبّدُ شتاءً كغيمٍ في السّماء، وتتلوّى فيه الكلمات فيغصّ الحلق. هل تؤثّر الفصول في النّفوس إلى هذا الحدّ؟ أليست الكواكب وحدَها ما يؤثّر فينَا؟ كأنّ نحسًا حلّ به، فأنا لم أتركهُ على تلك الحالِ آخرَ مرّةٍ. كان لسانُ حالي يُجيبني بأنّ بيْتَ الزّهرة بيتي، أمّا بيتهُ فلم أسأله البتّة عنه. كنتُ أقول: بيتُه الشبكة! مَنْ منّا ليسَ بيتهُ الشَّبكة؟! صرتُ من أتباع الشّبكة دونَ علمٍ ولا قرار. الانتماء إلى الشّبكة لا يكونُ بناءً على قرارٍ أو عرضٍ قَبْليّ. وسيكون

دخولكِ بحسبِ الأقدار إذا دخلتِ، ستجدينَ نفسك مستسلمةً لذلك، بلْ ستؤمنين بعدَها بأنّ التفكير في الخروج نوعٌ منَ افتقاد معنى وجودك. ألم تعيشي ذلك ثناء؟ أعرفُ أنّكِ مررتِ على صراط القدر، واستسلمتِ للشبكة طَوْعًا. الأعوان أنفسهم ساروا على الطريق نفسِها. نحن لا نختارُ ذلك! نحنُ نختارُ أنْ نواصلَ الطريق، ولا مجالَ للتفكير في الانقطاعِ عنها لأنّنا لو تركناها فلن نسمع صيحات طفولتنا ولن نلتقي غدًا بمن نحبّ وبكلّ المفقودين في حياتنا. كذلك حالُ مَن يؤمنونَ بأنّ الغائبَ سيعودُ يومًا، إنّنا نلتقي معهمْ في شيءٍ واحد، هو أنّنا ننتظرُ ذلك اليوم كَمَا تنتظرُ الفراشة تخلُّقَها من دودة القزّ.

هدأ قليلًا ونحنُ ندخلُ بابَ اليمن في ذلك الصّباح المشمس رغمَ البرْدِ. مازال الباعةُ يفتحون دكاكينَهم بتكاسلٍ، والأزقّة الضّيقة تتنفّس بيسرٍ لقلّة المارّة. أوّلُ ما قام به هيرُو أنّه ركض باتّجاه عربَةٍ صغيرةٍ، تعبقُ منها رائحةٌ مغريَة، وهوَ يأمرني بأنْ أستعدَّ لأكل «ساندويتش البطاطا» التاريخيّ! اشترى السندويتشين، ثمّ أومأ إليّ بأنْ نسيرَ نحو الجهة الشّرقيّة من المدينة. ظننتُ أنّه ينقلني في

جولةٍ استطلاعيّةٍ للسّوق التي بدت ملامحها تظهر شيئًا فشيئًا مع حلول الباعة، وقد شرعوا في إخراج البضاعة. ولكنْ ما جئتُ إلى صنعاء للتسوّق. كنتُ منشغلًا بما حدّثني عنهُ آخر مرّة، عنْ تلكَ اللّوحات القبوريّة التي أخفاها في مكانٍ لا يبلغه الإنس ولا الجنّ. وكنتُ أحملقُ في البنايات القديمة وأرى تلك الأبراجَ الشّاهقة، وكلّي دهشةٌ منْ عمارة المدينة التي يعود بناؤها إلى أكثرَ من ألْفي سنة. كمْ رأيتُ في ذلك الطّينِ سحرَ الخلقِ، وهو يلتحم بالطوب المحروق والحجر، ويسمق إلى أعلى فأعلى. الأبراجُ تكادُ تلامسُ السّماء. تُرى مَنْ شيّدها؟ ومنْ هَندَسَ هذه العمارة في ذلك الزّمن البعيد، قبلَ زمن الخرسانة والحديد؟ إنّه لأمرٌ محيّرٌ حقًّا أن تصمدَ مثلُ تلك الأبراج كلَّ هذه القرون، وتظلَّ واقفَةً تتهادى بين المساجد والبساتين، كأنّها بيوتُ الجان!

ليستْ حياتُنا سوى مجاورةٍ فريدةٍ للحيوان والمكان، لذلك حينَ أهيمُ في ضيقِ أزقّة صنعاء، أشعر بأنّني في شَرَكِ صيّادين من الزّمن الغابر. وليست هذه المنازل غيرَ أصابع أناسٍ مرّوا من هنا، ظلّتْ ببصماتها غير قابلةٍ للمحو. عندما تسمّر هيرو أمام بيتٍ من دور

أرضي وطابقين، وتحسّس جيبَ بنطلونه ثمّ أخذ يفتحُ البابَ الخشبيّ بمفتاحٍ حديديٍّ عجيبٍ، سألتهُ باستغرابٍ: «أهذا بيْتك؟!»، فردّ بزهوٍ: «نعم». لكنّهُ لم يُحدّثني عنهُ في السابق. ظننتُ أنّه يقيم في السفينة ولا يقبلُ ببيتٍ على اليابسة! وبعد هُنيهةٍ قال بصوتٍ هادئٍ: «هذا بيتُ قمريّة، اشتريتهُ لهَا كيْ تقيمَ فيه بينما كنتُ أشقّ البحارَ». شعرتُ في تلكَ اللّحظة بقلّة ذوقي، فأنا لم أسأله عن أنجليكَا منذ وصولي، ولْأَكُنْ صادقًا، لعلّي تعمّدتُ ذلك منْ فرْط استحضاري صورتَها! ولم يكن أمامي بدٌّ غيرَ أن أسأله عنها بمداراة أيّ نبرٍ قابلٍ للتأويل. ما أقلقني أنّه تجاهلَ سؤالي، ولم يزد على قوله إنّها بخيرٍ. لم أستطعْ تبيّنْ قسمات وجهه ولا عقلتُ سببَ لهجتهِ الآمرة بالدّخولِ، ولا علّةَ غيابها عنّا.

كانَ الدَّور الأرضيّ عبارةً عن غرفة استقبالٍ بسيطةٍ ومتقشّفة، أثاثها قليلٌ، عددٌ من الفرش ذات المساند، وسجّادٌ صنعانيٌّ قديمٌ مطروحٌ على الأرضيّة، ومجموعةٌ من الصّور بالأبيض والأسود لمناطق جبليّةٍ يمنيّة علِّقت على الجدران البيضاء المكسوّة بالجصّ، تتوسّط النّوافذَ الصّغيرة ذات المصراعين. وفي طرف

الغرفة دولابٌ خشبيٌّ غامقٌ يبدو منْ خشب السّدر، قد يعُود إلى عشرات السنين. اتّجه هيرُو نحوَه بتأنٍّ كأنّما يقتنص لحظةَ صيد، ثمّ فتحهُ وأخرجَ منه قطعًا للوحات قبوريّة من مادّة الحجر الجيريّ، ذات مقاساتٍ صغيرةٍ لا تتجاوز الأربعين سنتيمترا، صُوّرت عليها مشاهد لصيد الحيوانات، وكانت على بعضها كتابةٌ غائرةٌ بخطّ المسند، لا شكّ في أنّها تُسجّل اسم المتوفّى. وفي لوحاتٍ أخرى من المقاس ذاته، صُوّرتْ مشاهد من حياةِ المتوفَّى اليوميّةِ، ومنها ركوب الجمال وأعمال القنص والفروسيّة. وكانت أغلب اللوحات مجتزأةَ الجوانب. ذُهلتُ حقًّا من عددها، وارتعبتُ لحظةً، وأنا أتساءلُ: ما الذي جلبَها إلى هذا الدّولاب ومكانُها الطبيعيٌّ هو المتحف! وشعرَ هيرُو بارتيابي.

فتح الدّرج السّفليّ، وسحبَ ورقَة برديٍّ ملفوفة، خِلتُ أنّه سيطلعني على رسمٍ فرعونيّ. عرضَ البرديّ على التّخت الذي تُزيّن واجهتَه زخارفُ نباتيّة. كان يحتوي على صورةٍ تخطيطيّةٍ لمشهد عراكٍ بيْنَ أسدٍ وثور، ولم أفهم علاقة الصّورة بالبرديّ. أخبرني هيرُو أنّه هو الذي جلبَ الورق وخطّ بنفسه الصّورةَ

التي حدّثه عنها الفيروزي بعدَ أن طلبَ منه البحث عن لوحةٍ رُخاميّةٍ مستطيلة الشّكل تعود إلى القرن الثالث الميلاديّ، فيها تجسيمٌ بارزٌ لعراك أسد وثور، يظهر فيها الأسد مندفعًا إلى الهجوم وقد مدَّ مخالبَه الأماميّة إلى ظهر الثّور. أيّ جدوى من البحث عن هذا اللّوح؟! عليّ الاعتراف بأنّني تذكّرتُ قصّته ببغداد حينَ تهنا في البحث عن الباب المفقود من كليلة ودمنة، لكنّي سألتُ هيرُو بدهشةٍ: «ما علاقة اللّوح بالشّبكة؟ هل صرنا نعمل في شبكة تهريب الآثار فحسب؟!» سكتَ هيرُو، وطلبَ منّي الصّعودَ معه إلى الطابق العلويّ. كدتُ أسقط فورَ صعود الدّرج، يا لَغرابة مقاساته! لكلّ درجٍ مقاسٌ مختلفٌ يُفقد توازنَ مَن يسرع. ومن حسنِ حظّي لم أكن أُسرعُ، وكأنّ تفكيري في صورة اللّوح أوثقَ قدميَّ. عندما بلغنا الدّورَ الثاني تجهّم وجه هيرُو قليلًا، وكانَت غرفة الدّور الأوّل مغلقة، لعلّها غرفة النّوم. ولتغطية ارتباكه، أفْشى ما كانَ يَدورُ في ذهنهِ: «هذه الألواح القبوريّة مصيرُها المتحف ولا شكّ، لكنّنا نحتاجُ إلى تصويرها وتسجيلِ صورها في سجلّاتنا، نحن لسنا واثقين من مصيرها لاحقًا،

أمّا ذاك اللوح الذي نحن بصدد البحث عنهُ فقد يشكّل تلك الرابطة الخفيّة بين اليمن وحضارة بلاد فارس وبلاد الرافدين، أنتَ تعلم أنّه لا وجود لأسُودٍ في البيئة المحلّيّة اليمنيّة، وهذا مشهدٌ غريبٌ في الجزيرة العربيّة، وحتّى لو وُجدت الأسود في بعض مناطقها، فذلك أمرٌ نادرٌ، وقيمة اللّوح في رمزيّته السياسيّة، لذلك خذ للتصميم الخطّيّ عددًا من الصّور، فقد تُعيننا في العثور عليه». جلسنا فوق المراتب المفروشة على الأرض، وأخذتُ أُديمُ النّظر في المشهد الخارجيّ، فقد كانت النّوافذ الواسعة تحيط بأغلب أركان غرفة «المفرج». وقفتُ كي أتطلّع إلى مشهد الجبال عنْ بعدٍ، وأرقبَ منظرَ المباني الشّاهقة التي تزدانُ ببياض الجصّ، وكأنّني أمام لوحةٍ فنّيّة. تعجّبتُ لهيرُو لم يُحرّك ساكنًا! فهذا الجالسُ منكسرًا على المرتبة، ليس هيرُو الذي أعرف! لا شكّ في أنّ حُزنًا غزا قلبهُ. اقتربت منه فحدّق إليّ، وقد حملتْ نظراتهُ في البداية بأسًا كثيرًا، لكنّ وجهه تغضّن سريعًا، وقال لي: «لا أحتاجُ إلى مقدّماتٍ كيْ أُسرَّ إليك بأنّنا نواجهُ مشكلة! لقد اختُطِفت قمّريّة، وهي في طريقها إلى منطقة «جبِلّة»!» خبوتُ كما تخبو

شمعةً عصف بها هواءٌ بارد، شعرتُ بمفاصلي تبرد. ما هذا الذي يقولُه؟ اختطاف! هل سمعتهُ جيّدًا حينَ نطق كلماته وأطرقَ يدمعُ؟ ما شاهدتُ من قبلُ ماردًا للبحرِ يذرفُ دمعًا، هيرُو الجبّار، المعلّم الذي يعلّمني الصّلابةَ والجأش، ويشقّ البرَّ كما يشقّ البحرَ ببوصلةٍ واضحة، ينهار؟! إيه يا أنجليكا، لوْ قُدّر لك أنْ تري انكسارَ الموج على جبلِ غيابكِ! لم أنبس بكلمة. صحيح أنّي لم أجرّب معنى قلق العاطفة، ودقّات القلب الاستثنائيّة، وتوقّفِ العالم لحظةً، وضعفِ الإنسان أمام القدر، لكنّي أشعرُ بشيءٍ يَحِزُّ صدري حتّى أنفاسي بدأت تتكسّر. هل يقتصرُ الوضع على مواساته؟! ومَن أواسي هيرُو أمْ نفسي؟ وما دخلي أنا؟! لماذا شعرتُ بنوعٍ من الندم كأنّما أتيتُ إثمًا؟ هل كانَ الإحساس بألمِ افتقادها شيئًا ينبغي ألّا يخصّني؟ من حقّي التّعاطف مع هيرو مُعلّمي وزوج أنجليكا، وليس من حقّي أن أشاركهُ فقدانَها؟ وما معنى أن تُختطَف في اليمن؟ وهل هذا هو اليمن السّعيد؟!

كانَ الاقترابُ منهُ أكثرَ أشبهَ باقتراب المرء من النّار. تركتُه دقائقَ غارقًا في صمته. فقد تعلّمتُ في

القرية ألّا أقربَ حيوانًا جريحًا إلَّا بعدَ وقتٍ قصير! من الأفضل ألّا يتدخّل الإنسانُ في أيِّ لحظة انفعال. عليكِ أن تتريّثي حتّى تتراخى الأعصاب. رأيتُ في عينيه قسمات المغلوب على أمره، ولمّا خرجَ من صمته قال لي: «لا نعرف الخاطفين! طلبتُ منها العدولَ عن فكرة الذهاب إلى جبلّة، إذ كانت الأخبار التي تصلنا عنْ وضع القبائل في المناطق المجاورة لا تشجّعُ أحدًا على السّفر، أنتَ تعرفُ عنادَها، إذا قرّرت فعل شيءٍ فهي لا تبالي بأيّ خطر. كانتْ تقولُ إنّ القدر يقودُها إلى ضريح «أروى بنت أحمد الصّليحي»، ولا مجالَ للتوقّف عن إتمام بحثِها في خفايَا سيرتها. قلتُ لها: «دعي للنقصان مكانًا»، فترنّحت كلماتي أمام تصميمها. كانت يا زول أخلصَ من أعضاء عربٍ في الشّبكة. أنا لا أريدُ أنْ أفقدها الآن. ولنْ أفكّر لحظةً في فقدانها».

في تلك الغرفة البديعة سكينةُ أزمنةٍ قديمة. لا يحتاجُ هيرو إلى مَن يخفّف عنهُ، فإن كانَ ما حدثَ لأنجليكا فظيعًا عندي، فهو عنده أمرٌ منتظر، وهوَ أدرى منّي بهذه الشّعاب التي خلتُها شربتْ كأسَ الوحدة السياسيّة، وما عادت تموج بالصّراعات

القبليّة. يمتلك هيرُو استشعارَ القراصنة بأنّ كلّ لحظةٍ قادمةٍ موعدٌ مع اختطافٍ محتمل. لكنْ أن يقعَ اختطاف قمريّته، فذلك ما لم يَخطر له. غرقنا في الصّمت فترةً. وفي تلك الصبيحة القاسية، أمضيْنا الوقتَ نقلّب النظر في عمليّة تحريرها. أعرفُ أنّه لا حول لي ولا قوّة! لكنّي لن أتوانى في تقديم المعونة. لماذا؟ من أجلِ هيرُو؟ أمْ منْ أجلِهَا؟ أسأل نفسي بينما يُغمضُ هيرُو عينيْهِ، ويهمسُ لي: «الفيروزي بدأ الاتّصال بمشايخ القبائل الذين تربطه بهم مودّة، وأعلمني أنّها بخير، ولا خوفَ على حياتها، وكلّ ما في الأمر أنّ الموضوعَ يتطلّب وقْتًا، إنّهم يستخدمونها ورقةَ ضغطٍ على الحكومة! أحيانا يا زول تكون الجنسيّة لعنة! رغم أنّها أقامتْ بين العرب سنواتٍ وصارت بنتَ بيئتهم، مازالوا يؤمنون في قرارة أنفسهم بأنّ الغريب يظلّ غريبًا، والدّخيلُ يظلّ دخيلًا، والثّور عندهم ثورٌ والأسد أسد!».

كانَ على هيرُو أنْ يتّجه صوبَ زبيد في مساء ذلك اليومِ. فالأفضل أن يكون قريبًا من الفيروزي وعلى بيّنةٍ ممّا يحدثُ. طلب منّي أن أنتقل من الفندق إلى بيت أنجليكا! وأودعني المفتاحَ دون أن ينتظر ردّي.

التعليمات بنتُ التّعاليم، وعليّ أنْ ألتزمَ بما يُوجِّه. لم يُدهشني تصلُّبه مجدّدًا بعد أن رأيتُ انكسارَهُ. كأنّ شيئًا لم يحدث، لكنّي حين تملّيتُ وميضَ عينَيه، أدركتُ أنّ مجرّدَ الذّهابِ إلى زبيد خطوةٌ حالمةٌ في قلبه نحو تخليصِ حبيبته. يُمكنُ لي التقاطُ تلك الشّعلة التي تُحوّلُ العتمة إلى نور، مثلما تعيدُ إلى الأعمى فرْصَةَ النظر منْ جديد. هل هذا هو معنى الحبّ؟! ما تزالُ المواعظ التي نشأتُ عليها تُكبّلني. وتسجنُ عاطفتي. المرأة موطنُ الإنجاب، لا غير! الرّجلُ لا يكونُ رجلًا إلّا إذا هوى بفأسه على الأرض، فيُخرج منها النّبت! المرأة ناقصةٌ والرّجل يسترُ نقصَها! أعرفُ أنّي ما عشتُ الحبَّ ولا أحسستُ يوْمًا برعْشَةِ القلبِ قبْلَ قدومي إلى اليمن. أعرفُ أنَّ رائحة الصّابون الذي كانتْ أنجليكا تدعَك به وجهها خلّصَتْ أنفي من أتربة القريَة. هل كانَ ذلك أمرًا آثمًا؟! يا لَشقائي، أنْ يرتعش القلب بعد موات في طريقٍ مسدودة، يا لَأيّامي البائسة التي أمضيتُهَا في كنفِ المواعظ البالية!

في اللّيل، صمّمتُ على التّسكّع بمفردي في شوارع صنعاء الحديثة. شققتُ طريقي في اتّجاه شارع

الجمهوريّة. لكنّي تردّدتُ في البقاء خارج الفندق، فشبحُ اختطاف أنجليكا صارَ ينوسُ أمامي كلّما عبرتُ طريقًا مظلمةً، وخلتُ أنّ كلّ جنبيّةٍ يمكن أن تقفز من الحزام وتستولي على الرقاب. وحدي أتمشّى في جوفِ الوحشة. لم يكن ثمّة صديقٌ غير هيرُو الذي سارع بالعودة إلى زبيد، ولكن متى كان لي أصدقاء؟ مع هيرُو شعرتُ بمعنى أن يكون لي صديق، وفي ستر الشّبكة أحسستُ بأنّي فرحٌ منيرٌ يعيشُ تحت جنح الظلام.

بدت شوارع صنعاء الباردة ثملةً من أثرِ القات. إنّها تلبسُ منذ المساء عباءةً خضراء في كلّ مكانٍ. تتحوّل إلى ضريحٍ يجتمع فيه مريدون منْ كلّ صوبٍ لا نُذورَ لهم ولا أمانيّ. يمضغون القات بصبرٍ ويشربون الماء بين كلّ مضغةٍ وأخرى. صنعاءُ التي تتلألأ رغم شحوبِ الأضواء فيهَا، تستعيرُ من الجبالِ وقفتَها، وتحرُسُ الأحياءَ كما الأموات بالهيبة نفسِها. ورغم القذارة المستلقية على جوانبها، لا يبلى جسدُهَا القديم، إنّها قذارة لا يستنكف منها أحد، كأنّها شَعرُ بلقيس الكثيفُ النّابت في رجليْهَا.

عند الظّهيرة، حزمتُ نفسي وأمتعتي، واتّجهتُ صوبَ منزل أنجليكا. أوصاني هيرُو أنْ أدخلهُ حينَ تهدأ حركة الأسواق، ويبدأ النعاسُ في مغالبة جفون المتقاعسين من التجّار الذين يركن أغلبهم داخلَ الدكاكين، ولا يكترثون لمنْ يرغبُ في الشّراء أو منْ يتطفّلُ من المارّة. كانت خشيتي في محلّها، العيون ترقب كلّ من يمرُّ، حتّى وهيَ تفكّر في المقبلِ القادمِ. لذلك خطوتُ بإيقاعٍ متسارع، وبي أملٌ زائفٌ في لقاء أنجليكا عندما أفتح البابِ! لعلّ تلك النّظرات التي رافقتني عند عبوري إلى المنزل كانت تحرسني، تطمئنّ عليّ إلى أن أولجتُ المفتاح، بل لأقلْ لكِ إنّها كانت تشيّعني إلى قبرٍ حميمٍ لصديقيْنِ عجنا الطّينَ الإفريقيَّ بالجبسِ الأوروبيّ النّاعم.

حينَ بلغتُ غرفةَ الجلوس ولمحتُ الدولاب، سألتُ نفسي: لمَ قبلْتُ عرْضَ هيرُو بالبقاء هنا، وتركته يذهب وحدَه إلى زبيد لينظرَ في أمر تخليص أنجليكا. لكنّه لم يعرض عليّ ذلك بل أمرني! إنْ أردنا العيش فلا بدّ لنا من قبول قسمة الأدوار. وإن أردنَا أن نستمرَّ في البحث فلا يُمكننا البحثُ في طريقٍ واحدة. وكلّما شعرنا بأنّنا تفرّقنا ازددنا يقينًا بأنّنا

في مأمنٍ من الموتِ الجماعيّ، وبقينا على شفا النهاية دون أن ننتهيَ! تلك الدّرر منْ تعاليم هيرُو. لو كانت أنجليكا معي واختُطِفَ هيرو لطلبتْ منّي الشّيء نفسه. لذلك هوّني عليْكِ يا ثناء إن وجدتِ نفسكِ يومًا بعيدةً عنّي، وتجرّعتِ الفراق الدّنيويّ، فما نحنُ إلّا نفسٌ واحدةٌ من أجسادٍ متفرّقة، وما علينا إلّا تغليب مصلحة الشّبكة على مصلحتنا.

فوق المفرش وضعتُ حقيبتي، وقرّرتُ أنْ أقيم في الدّور الثاني، وأقضي الأيّامَ حبيسَ المنزلِ، لذلك فكّرتُ في جلبِ ما أحتاج إليه منْ أشياء، وتدبّرتُ أمري حقًّا في تلك الفترةِ مكتفيًا بوجبتينِ طيلة اليومِ. وحينَ أصعد من الدّور الأرضيّ إلى الدّور الثاني، تنتابني رغبةٌ في التلصّص على غرفة النومِ، بل لا أنكر أنّي عند عتبتها أتباطأُ قليلًا محاولًا شمّ رائحةٍ قدْ تتلقّفها أرْنَبَةُ أنفي، ورنينُ توصية هيرو يقرعُ أذني: «لا تفتح باب الغرفة، ففيها أشياء تخصّ قمريّة».

ما أثقلَ أنْ تمرّي منْ باب حبيبٍ دونَ أنْ تسألي! تبًّا لرغباتٍ لا تعرفُ حدًّا. كانَ هيرُو قدْ حدّثني عنْ أنجليكا بما لم يُحدّثني به عن الشّبكة، حتّى خلتُ

أنّه ما دخلَها إلّا ليظلَّ إلى جانبها، يتعقّبُ ظلّها، ويتحكّم في مقود السفينة، ويعبرُ البحرَ بدافع العودة إليْهَا.

- هل أنتَ متأكّدٌ من قدرتك على البقاء وحدكَ في المنزل؟

- نعم، لا تقلق عليَّ. أنا وحيدٌ دائمًا.

- حسنًا، إذا أحسستَ يومًا بوحدةٍ لم تعرفها من قبلُ، فاترك المكانَ وتعالَ إلى زبيد. إنّك لنْ تقدر على البقاء وحدك لو داهمتك تلك الوحدة، إنّها الفراغ بعينيه، الخواء الذي يسبقُ نشأة الأشياء، فأنت ما تزال طريًّا ولن تستطيع تحمّلَ ذلك.

- وهل من وحدةٍ أخرى غير أن تظلَّ وحيدًا في مكانٍ مغلقٍ أو حتّى في الطريق؟

- نعم! أن يُصادفكَ فراغُ الوجود من حولك وقد حَسِبْتَه امتلاء!

لم أتبيّن يومهَا باطنَ كلام هيرُو. قلَّبتُه طويلًا وأنا أنظرُ إلى تلألؤ نجومٍ في السّماء من خلال نوافذ غرفة المفرج حيثُ أقمتُ لياليَّ. لكنّي عمدتُ ذات ليلةٍ

إلى أخْذ عشبة قاتٍ منسيّة، ما تزالُ تحافظ على طراوتها، وشرعتُ في تخزينها، وصوتُ أبي يصيحُ من داخلي: «القات من الخبائث!» ليلتهَا، أخذتُ كوبًا من القهوةِ أيْضًا، وطاردني النعاس دونَ أنْ يهزمني، وقرّرتُ في لحظةِ إعياءٍ أن أفتح باب غرفة النّوم. فقد رأيتُ طيفَ أنجليكَا يحومُ فوق رأسي. ودونَ تفكيرٍ مدمّرٍ اتّجهتُ صوبَ الغرفة وكنتُ أظنّ الباب مغلقًا بالمفتاح، فتجمّدتُ أمامه لحظةً، ثمَّ دفعني فضولٌ غامضٌ إلى دفعهِ بحنوٍّ، فإذا به يُفتحُ. وليتني ما فعلتُ، فقد كدتُ لحظتَها أتحوّلُ إلى تمثال، وكاد اللهُ يمسخني قرْدًا. لم يكن بالغرفة شيءٌ! لا سرير الناموسيّة ولا دولاب أغراض أنجليكا، لا شيء. وجدتُ الفراغَ. فزعتُ إلى نفسي. وأدركتني الوحدة التي حدّثني عنها هيرُو. أحسستُ بأني هالكٌ لا محالَة. وكانَت صدمتي تعدلُ ما شعرتُ به لحظةَ الْتهَم التمساحُ صديقي.

أسرعتُ إلى تسجيلِ اللَّوحات القبوريّة الكثيرة في سجلٍّ خاصّ، حدَّدتُ مقاساتِها، وخصائصَها وموضوعاتِها، وحاولتُ قدرَ الإمكان أن أنسبها إلى زمنٍ تقريبيّ، وسجَّلت ما أسمِّيه بطاقات «الميلاد»، فما

ظهرت ألواحُ قبوريّةٌ إلّا خرجتْ من زمن الغياب ودلفتْ إلى زمن الميلاد من جديد. كنتُ أتملّى بين فينةٍ وأخرى تلك الصّورَ الحائطيّة المبّروَزَة، وقف بصري مطوّلًا على صورةٍ لا تشبه سائرَ الصّور في أجوائها، لم تكن تنتمي إلى اليمن دونَ شكّ، فالمبنى الذي فيها يبدو مختلفًا عن العمارة اليمنيّة، وكذلك الحديقة التي يُطلّ عليها وفي قلبها نافورة ماءٍ بديعة. تملّكني إحساسٌ بتفحّصها، فجلبتُ كرسيًّا يتيمًا كان في الغرفة واعتليتُهُ، وكلّي خشيةٌ من السّقوط، بسبب اهتراء حباله المصنوعة من جريد النخل. أخذت البرواز، وتفحّصتُ الصّورة مليًّا، وقلّبتها فوجدتُ العبارة التالية: «هُنا التقيْنَا، مدينة سورات، الهند، اعلم أيّها الأخ أنَّا لا نُعادي علمًا من العلوم، ولا نتعصَّب لمذهبٍ من المذاهب، ولا نهجرُ كتابًا من كتبِ الحكماء». تذكّرتُ ما حدّثني به هيرو حينَ سألتُه عن لقائه الأوّل بأنجليكا. وفاحت في أنفي رائحةُ البهارات وهو يَروي اللّحظة الفاصلة بينَ حياةٍ وحياة.

- أتعرف مَرَجَ البحريْن؟ ذاك اللقاء بيْننا كانَ وسطَ البحر، في ذلك البرزخ الفاصل بيْنَ بحر وبحر!

- وهل اصطدتَها أمْ اصطادتْكَ؟

- لم تكن سمكة! أنا الذي وقعتُ في الأسر حينَ دخلتُ ساحة الجامعة، بعد أنْ طلب منّي الفيروزي نَسْخَ مخطوطٍ من هناك. رأتني قبلَ أنْ أراها. ألم تلاحظ نظرتَها الحادّة التي تشبه الشّامواه(6)؟ منْذ ذلك الوقت وهيَ تقفزُ بي منْ بلدٍ إلى آخر، ومنْ بحثٍ إلى بحث، إنّها تفضّل سفوح الجبال لتقطفَ الحكمة، وأنا لم أكن أرى غيرَ البحر. لا أعرفُ غيرَ حوت القرش الذي ينطّ حول السفينة. هل رأيتَ قرصانًا مستسلمًا؟ تخيّل! ذلك ما وقعَ لي فعلًا! كنت أرى الهندَ متاهة، وحين التقيتها في ذلك الصّباح الخلّاق عند مدخل الجامعة السيفيّة بمدينة سورات، صارت الهندُ طريقًا منيرًا إلى حكمةٍ ضائعة. بعد ذلك اللقاء، باحتْ لي بأنَّ الطريق واحدة. وأذهلني لسانها العربيّ، وهيَ الآتية منْ ثلج جبال الألب. ازددتُ ذهولًا حينَ أخبرتْني بأنّها تعرف الفيروزي! وتضاعفت فتنتي بها لمّا قادتني إلى مكتبة الجامعة ويسّرت لي الحصول على المخطوط لنسخه. أكان ذلك كلّه صدفة؟! قالت لي بصوتٍ عالٍ: «بحركَ في جزرٍ

إذا لم تقرأ هذا المخطوط قبلَ منحه الفيروزي». لقد حوّلت حياتي يومَها من عونٍ يافعٍ ومتغطرسٍ بشاربَين كثّينِ، إلى تلميذٍ خجولٍ يتعثّر في طابور المدرسة.

كانَ محتاجًا إلى شيءٍ آخر غير القاتْ كيْ يتجلّى يومَها. لم أعرف إلّا لاحقًا أنّ تعاليم الشّبكة ليست نسخةً بريئةً من التعاليم القديمة. اعتقدتُ أنّ القاتْ والخمرة وجهان لضررٍ واحد، ولا يمكن لأيّ عونٍ أن يقترفَ الضّررَ بنفسه. اندهشتُ من الفيروزي نفسه حين أسرّ إليَّ: «لا نتبع ظاهر الحروف. إذا أردت القاتْ فتقوّتْ وإذا أردت الشّراب فاشربْ. إنّما أنتَ تحكمُ نفسك بنفسك»، قلتُ له: «وماذا عن الدين؟» أطرق الفيروزي، وطمأنني: «ذاكَ ما ستكتشفه بنفسك حينَ تسيرُ في اتّجاه الحكمة». قلتُ: «وماذا عن الحكمة نفسها؟» فردّ بحنوِّ الأب: «تلك ضالّتنا جميعًا». قلتُ في حيرةٍ: «لم تُجبني عن سؤالي!»، وأرعبَني حينما قال: «فكّر خارج الحلال والحرام وإلّا فلن تمسك بشيءٍ».

هل كانَ على هيرُو أن يشربَ حتّى يتجلّى أمامي وهو يتحدّث عن قمريّته؟!

حين فرغتُ من تصوير الألواح القبوريّة، قرّرتُ مغادرَة المنزل. فالوحدة التي حذّرني منها هيرُو بدأت تَعلقُ بروحي، وفقدتُ الرغبةَ في الأكل. قضّيت يومَين شبه صائمٍ، لا آكلُ إلّا قليلًا من التمر، وكسرةَ خبز الرشوش اليمنيّ، ولا أخرج من المنزل إلّا لمامًا. فكّرتُ في المغادرة عند الفجرِ حتّى لا ينتبه أحدٌ إلى خروجي، ولا أكون في مرمى المراقبة. أعدتُ ترتيبَ الألواح في الدُّولاب. وخمّنتُ في تغطيتها بقطعة قماشٍ مزركشةٍ وجدتُها في درج التخت، وفجأةً خامرتني فكرةُ فتحِ الدرج السفليّ. كنتُ أسعى إلى توزيعٍ أفضلَ للألواح، فلا يعقل أن أُراكم بعضَها فوق بعضٍ مثلما كانت.

وجدتُ كتبًا قديمةً بلا أغلفة! شدّني مجلّدان غريبانِ، تنبعث منهما رائحةُ بخورٍ كأنّهما يشتعلان! التقطت أحدَهما كمَنْ يلتقط فاكهةً محرّمة، وفتحتُ الصّفحة التي عُلِّمت بعشبة قاتْ جافّة، وقرأتُ الفقرة المسطّرة: «إنّ لنا كُتبًا لا يقفُ على قراءتها غيرُنا، ولا يطّلعُ على حقائقها سوانا، ولا يعلمها الناسُ إلّا من قِبلَنا، ولا يتعلّم قراءتها إلّا من علّمناهُ، ولا يعرف صورَ حروفها غيرُ من عرَّفناه، ولنا علمٌ آخر لا يشاركنا

فيه غيرنَا، ولا يفهمه سوانا، وهو معرفة جواهر النّفوس، ومراتب انتقالاتها، واستيلاء بعضها على بعضٍ»».

قلتُ في نفسي: كانَ عليَّ أن أغادرُ قبل تقليب الكتب، أنا حجريٌّ فما شأني والكتب؟! ذلك المنزل يشبه مستودعَ أسرار. كيفَ لم أفكّر قطُّ في شَبَهِ البستان به؟! كلاهما ينبضان بالأسرار. هل من الصُّدفة أن أجد نفسي ثانيةً في مكانٍ محاطٍ بالريبة؟! وأنتِ يا ثناء، هل أنت شقيقة أنجليكا؟! أم نسخةٌ من روحها؟!

قبل مغادرتي التقطتُ صورةً لذلك المقطع. قلتُ في نفسي: هذه طلاسم تحتاج إلى فكّ. وسجّلتُه في ورقة. وعرضتُه لاحقًا على هيرو بعد أنْ وصلتُ زبيد. عند المساء حملَ النرجيلة، وكيسَ القاتْ بينما كان الفيروزي يمسحُ زجاجَ نظّارتَيه بشاله، ويتهيأُ لمجالستنا. لم تكن لديَّ وقتها أيّ أخبارٍ عنْ أنجليكَا، لكنّ حالتهما بدت لي مطمئنة، ما داما شبه عاديَّين، يتصرّفان كما لو أنّها في نزهةٍ لقطف المشمش منْ حديقة بيت الفيروزي.

ابتسمَ هيرُو أخيرًا بعد أنْ سحبَ من بطن النرجيلةِ نفَسًا عميقًا، وأخذَ يُخزّن إكسيرَ الحياة. سألتهما عن أنجليكَا، فلا يُعقلُ أنْ نتعمّد جميعًا الصّمتَ ولا نتحدّث في موضوع الاختطاف. حرّكتُ يدي فتوهّم هيرُو أنّي أريد مقاسمته النرجيلة. لم أسحب في حياتي نفَسًا منْ ذلكَ البطن الذي يبقبقُ كنقيق ضفدعٍ مريض. ضحكَ منْ فرطِ خيبته: «يا زول، مازلتَ تخافُ المغامرات؟»، رمقته بعطف. أيْنَ حديثه عن أنجليكا؟ لو كنتُ مكانهُ لهشّمتُ رأس النرجيلة، ودفنتُ وجهي في الحزن. هل يسهلُ النسيانُ إلى هذه الدّرجة أمْ إنّه يعوّضُ غيابَها بمّص ذلك الخرطوم الملوّن؟! شقّ الفيروزي صمتَنا: «دخلنا مرحلةً جديدة، اختطافُ أنجليكا ليسَ استهدافًا للشبكة، لكنَّ القبائل تستعدّ لابتزاز السّلطة السياسيّة، ولنْ نتأخّر عن استخدام أيّ حطبٍ لإشعال النّار، وفي هذه الحال نحن مجبَرون على الاختفاء عن الأنظار قليلًا. حاولنا يا طه خلال هذه الأيّام أن نفكّ أسرهَا، عرفنا مكانها، واطمأنّنا على صحّتها، لن يُقدِم المختطِفون على إيذائها، لكنّهم طلبوا منّا الانتظارَ، إنّهم يُلاعبون السلطة، وأخشى

أنْ يُفهم ذلك على أنّه نوعٌ من التّواطؤ معهم في معركةٍ لسنا طرفًا فيها»». أبهجني ما توصّلا إليه، لكنّي بقيتُ على قلقٍ، إذ امتقع وجهُ هيرُو وقال: «أنا لا أثق بهم البتّة! طالبتُ أنْ ألتقي قمريّة فماطلوا، ثمّ عدنا بكيسٍ من الوعود. أنت تعلم يا فيروزي أنّ بعضهم لا يثق ببعض!»»، فأجابه الفيروزي مهدِّئًا: «لا عليْكَ، غدًا نتوجّه إليهم، وهذه المرّة لنْ نعودَ إلّا بها، فقد تشاورتُ مع كبارِ التّجّار هنا، وسيرافقوننا في الرّحلة»». ثمّ تنحنح ونظر إليَّ: «طبعًا، ستمكثُ هنا، لنْ نُدخلكَ في هذه القصّة»». استأتُ من كلامه، ألستُ أنا أيضًا معنيًّا بأمرها، أليستْ واحدةً منّا؟ وهل أنا قاصرٌ عن التفاوض مثلهم؟ لُكْتُ كلماتي في الدّاخلِ وترشّفتُ قدح الشّاي.

اختطاف أنجليكا ليسَ قصّةً كما قال الفيروزيّ، هو لا يعرفُ أنّها لو كانت كذلك لما استطعتُ البقاءَ يومًا واحدًا في منزلها والوساوسُ تحدّق بي من كلّ جانب. أنجليكَا ليستْ جنّيةً تطلعُ من حكايات شهرزاد وتتلاشى عندما يصيح الدّيك فجرًا. ومثلما جعلتْ هيرُو يلُقي بمرساة السفينة في ميناء الحديدة إلى الأبد، جعلتني أُلقي بتاريخي الحجريّ في ذلك

الميناء نفسِه حتّى تتكسّر عليه سنواتُ سَيْري على خطى آبائي وأجدادي! هل بدأ دخان النّرجيلة يعبثُ بفكري؟! شعرت بأنّني أعيش مزيجًا من الحالات، ويبدو أنّي أولدُ من حينٍ إلى آخر. فهل أنا لوحُ قبوريّ أُخرِجَ من مدفنه؟!

في تلك الليلة، توسّع الفيروزي في الحديث عن الشّبكة، نصفُ ما قالهُ لم أستوعبه إلّا بعد أنْ تعرّفتُ خلسةً على أبي محمّد. أمّا النصفُ الآخر فحزمةُ تعاليم ونقدٌ لكُتَّابٍ سمعتُ بأسمائهم لكنّي ما قرأت لهم يومًا، حتّى القليل الذي طالعته لهم كان جزءًا منْ رميم المقرّرات الدراسيّة. وقد أشعرني ذلك بنوعٍ من النّقصِ! انقطع عنّا هيرو تمامًا. عندما أفكّر الآن في شروده وعزلته بيننا، أستطيع تفهُّمَ مشاعره القاسية، فعزلتي شبيهةٌ بوحدته، وها أنا في غرفة البستان صريعٌ لها. الفرق بيني وبينه أنّه شاردٌ في امرأةٍ مختطَفة، وأنا شاردٌ فيكِ وأنتِ موجودة، هوَ يبحث عن استعادة روحٍ وأنا أبحثُ عنْ قطرات الكلامِ تنسابُ من شفتَيْن متورّدتين بالأحزان.

كم حاول الفيروزي شدّه بالحديث، لكنّه كان

منصرفًا إلى عالمه. أصابتني عدواه قليلًا. فأنجليكا تستحقّ منّا أن نتيهَ في الزّمان، ونتطاير فيه ونتلاشى. هل كان لي أن أفكّر في سليمة التفكيرَ نفسَه لو أنّها اختُطِفت يومًا؟ ولكنْ ما الذي يُمكنُ أنْ تمثّله سليمة للمختطفين؟! ها أنا أقول لنفسي: «إنّ الأمر مختلفٌ، ليس لأنّها أوروبيّة، وسليمة من طينٍ إفريقيّ مُغمّسٍ في النّار، فعلى مدى قرونٍ ماضيةٍ اختُطفَ الأفارقة من غاباتهم كما تُقتَلَعُ أشجار السافانا بلا رحمة، لكنّ معادلات التّاريخ تنقلب. وفي هذا العصر، لا قيمةَ للطّين الإفريقيّ أمام الرّخام الأبيض!».

كانَ الفيروزي يُحلّل أسبابَ الاختطاف، ويشيرُ دونَ استفاضةٍ إلى الخلفيّات السياسيّة، لكنّه سرعان ما يتجنّبُ إبداءَ موقفٍ من الصّراع المستتر بين الحزب الاشتراكيّ والمؤتمر الشعبيّ، ويعبّر عن حدسه أنّ عاصفةً قادمةً ستأتي على هذه الوحدة السياسيّة الهشّة. «لا تكون الوحدة من دوننا»، هكذا يتمتم، ثمّ يقول إنّ الأصل هو الخير في هذا العالم الرّحب، ويضيف: «الشرّ يا طه أيّها الأخ البارُّ تخلّفٌ مستمرٌّ عن اللحاقِ بالكمالِ، وقد استوطنَ هذا العالمَ، لقلّةِ اجتهاد الإنسان في إدراك قيمة العقل، فلو أدركه

لعرفَ أنّه الفاضل، وأنّ كلّ مفضولٍ متى عزم على اللحاق بدرجة الفاضلِ انتصرَ للخيرِ وقلّصَ مساحةَ الشرّ حتّى يعود الخلق أجمعينَ إلى أوّله، وهو الخيرُ المحض». أخذتُ نفسًا عميقًا، وأنا أستمعُ إلى طلاسمِ الفيروزي، وكدتُ أسألهُ هل تُقامُ الحضارات بالخير أم بالشّر، لكنّي تذكّرت وصيّة هيرُو: «لا تسأل إلّا بعد تحصيل المعرفة، كي تسأل سؤالًا عليك أن تقرأ قبله عشرات الكتب، عليك أنّ تدعها تقيمُ فيكَ على سبيل الضيافة وقتًا، ولا تنسَ أن تعدّ لها المقيلَ حتّى تنتشي، فالأفكارُ لا تتعرّى إلّا أثناءَ الانخطاف!».

مازلتُ إلى الآن أفكّر في هذه الأشياء، رغم أنّ العمر يذبل. ما الخيرُ؟ ما الشرّ؟ هل تفكيري فيكِ خيرٌ أم شرٌّ؟ أَهُو خيانةٌ لسليمة أم مسرّةٌ لنفسي؟ وهل كنتُ أخونُ هيرُو حينَ فكّرتُ في أنجليكا؟ أم كنتُ أبحثُ لنفسي عنْ قمرٍ في ظلمةِ أسئلتي وحياتي؟!

***

بعد رحيلِ هيرو والفيروزي، انشغلتُ بالقراءة. واختليتُ بالمكتبةِ كَمَنْ يختلي بعروسه ليلةَ الزّفاف.

كانَ هيرو يقولُ مداعباً تردّدي في القراءة: «إنّ رائحة الكتب مثل رائحة المرأة يا فتى!»، لا شكّ أنّه استفزّني. وكان الاستماع إلى آراء الفيروزي وأفكاره كافياً لدفعي إلى القراءة. ثمّ إنّ من شروط الانتساب إلى الشّبكة اكتسابَ المعرفة، لا أعني المعرفة التي تُناقض الجهل فحسب! بل المعرفة التي تُثبتُ الوجود.

في تلك المكتبة الفسيحة المرتّبةِ ترتيباً عجيباً تفطّنتُ إلى وجود غراموفون قديم. صدقاً لم يسبق لي في حياتي أنْ استمعتُ إلى الموسيقى بشغف. بل إنّ كلمة موسيقى نفسها لا تُوجَد في دماغي! وللأسف لم أشغّل ذلك الغراموفون. إلى هذه اللحظة أشعر بأنّني ناقص. ربّما هذا من الأشياء التي تعجز عن اللحاق بالطبيعة التي تعجز عن اللّحاق بالنفس التي تعجز عن اللحاق بالعقل، وهكذا يحتلّني الشرّ! يا سلام تبًّا لي، كيفَ ألخّص تحليل الفيروزي بهذا الشّكل اللئيم!

في أيّام غيابهما تردّدتُ على المقهاية القريبة من بيت الفيروزي، كنتُ أرى البغالَ أشدَّ احتلالًا للطريق من البشر. الجبال والأودية المجاورة للبلدة تمنحُ البغلَ مكانة. قاذوراتٌ ملقاةٌ في كلّ ناحية،

قنانيّ فارغةٌ وأكياس نايلون، بقايا خضروات، وأتربةٌ معجونةٌ بأوراقٍ صفراءَ سقطت من أشجارٍ غريبة، كلّ ذلك بجانب جدران البيوت، فلا أرصفة في زبيد. ها هي آثار الأجداد تلتقي بآثار الأحفاد، دونَ وجهٍ للمقارنة. كلابٌ ضالّة، تخاف مَن يقترب منها، ونعاجٌ تتبختر في الطريق، حرّةً وهانئةً لا يهمّها البعوض الذي يحتلُّ ظهورهَا! كنتُ أسجّل ما أراه، وأنا جالسٌ أرتشفُ القهوة اليمنيّة، في ذلك الدفتر، تاجُ حياتي! أتعلمين يا ثناء أنّ هذه الأوراق التي أخطّ عليها نقوشي هي من ذاك الدّفتر نفسه، الدفتر الذي أهدتْني إيّاه أنجليكا. لم يكن مجرّدَ دفتر مذكّرات. قالتْ لي بعينينِ زائغتَين نحو الغروب: «سجّل حياتك هنا». شعرتُ وقتَها أنّها سلّمتني نفسًا منها، وكلّما كتبتُ شيئًا شعرتُ بأنّه مكتوبٌ بماءِ عينيْهَا.

آلَمَنِي اختفاؤها القسريّ، وسلبني الرغبةَ في زيارة معالم لم أسجّل عنها شيئًا في زيارتي السّابقة. ما أكثر المصادفات في حياتنا. ففي هذا البستان أشعرُ بأنّي أعود إلى ذلك الزّمن وبي نخوةُ لقائها من جديد، ويغمرني فيضُ الألم لفقدانها. وعزائي الوحيد أنّي وجدتكِ! كانتْ أنجليكَا الصّامتة في أغلب الأحيان

لا تحتاجُ إلى لغةٍ كي نفهم ما تريد. ألم أقل لكِ إنّي تعلمتُ من الحيوانات صمتَها. لقد قرأتُ حدود غريزتها، وتفرّستُ في سلوكها وعينَيها حتّى اكتشفتُ لغتَها الكامنة! أنجليكا لم تحدّثني طويلًا. لا يهمّ الطول ولا المدّة. كم من جملةٍ قصيرَةٍ قاتلة. وكم من استطرادٍ لا يقتلُ غيرَ صاحبه. هل كانت تعلم أنّ الدفتر الذي أهدتْني إيّاه سيكون جدولًا لمائها؟ هل كانت حقًّا تعلمُ أنّه لن يحتويَ على إشاراتٍ وتقييداتٍ عن الآثار التي عاينتُها بقدر ما سيحتوي على إشاراتها؟ لا أعلمُ!

توجّستُ من غيابهما أكثرَ من أسبوعٍ. ودارت في ذهني تهيّؤاتٌ كثيرَة. أيُّ معنًى للحياةِ دونَ يقينٍ من عودة الكائنات والأشياء؟! في اليوم الثّامن حطّ الفيروزي رحالهُ وحيدًا. أين هيرُو؟ هل اختُطفَ هو أيْضًا؟! الراجح أنّهُ صمّم على ألّا يعودَ إلّا بها. ذاكَ ما أكّده لي الفيروزي بأسًى. قال: «ازدادت الأمور تعقيدًا! ولنْ يُفرجوا عنها إلّا إذا حقّقت السلطة مطالبَهم، لم يسمعوا لوعود كبار التّجار، ولم يُفصحوا عن الوجهة الجديدة التي قادوا إليها قمريّة، أمّا هيرُو فقد قرّر البقاء هناك». لو كنتُ مكانَه لفعلتُ الشّيء نفسَه. أنجليكا لا تُترَك وحيدَةً. إنّها كائنٌ فطريّ،

هكذا تراءت لي أوّلَ يومٍ، ولا يُمكنُ للعقل أن يحبسَ تلقائيّتها، إنّها من النّساء اللّواتي خُلِقنَ قبل الكيد!

عبثًا حاولتُ أن أنسى يومَ كانت وحيدةً في مقصورة البيت الذي نزلنا فيه. كنتُ مع هيرُو في الخارج، يحدّثني عنْ رحلاته إلى الهند. آنذاك لم يذكر لي شيئًا عن قمريّته. اكتفى بعرض براعته في كسب المال من تجارة التّوابل والبهارات. وفجأةً، تذكّر أنّ عليه في ذلك اليوم أن يشتري التوابلَ لنطبخَ. طلبَ منّي انتظارَه، وأسرع إلى الموتوسايكل. كانَ الجوُّ رطبًا، ومع ذلك نَمَتْ فيه نسمةٌ غريبَةٌ عبثت بالأوراق وأكياس النايلون الطّائشة. شعرتُ بظمإٍ غريبٍ، فدخلتُ البيت. كنتُ مُجبرًا على المرور من أمام مقصورتها، وقُدِّر للسّتارَةِ أن تمايلَ بقوّةٍ وأنا أفتح الباب، فرأيت أنجليكا عاريَةً! بعينيَّ هاتينِ اقتنصتُ الثلج. تجمّدتُ في مكاني، وما تحرّكتْ هي من مكانها. أحسست بوخزةٍ في قلبي، وسمعتُها تضحكُ بإيقاعِ جُلجُلِ عنزةٍ تمرحُ في البرّيّة. اعتراني بردٌ شديدٌ حتّى ازْرقَّ لوني. لم أنبس بكلمة، وهربتُ إلى المطبخ. لكنّ حاجتي إلى الماء تبخّرت. فحوّلتُ

وجهتي إلى بيت الراحة. وهناك تبوّلتُ بصعوبة بالغة. خفتُ منَ أثر الصّدمة. وخشيتُ أن تقُصّ أنجليكا على زوجِها ما حدثَ. لكن يبدو أنّها لم تحدِّث حتّى نفسها بما وَهَبَنِيهِ القدر!

ما وقعَ للفيروزي غريب. عاد منْ جِبلّة تائهًا. رأيتُه يصلّي في اتّجاهٍ آخر غير القِبْلة! أنْ يُضيعَ هيرُو البوصلةَ فهذا معقولٌ، أمّا أنْ ينسى الفيروزي القِبْلة فهذا من علامات آخر الزّمان! لمتُ نفسي لأنّي قبلتُ البقاء ولم أذهب معهما. لو كنتُ بينهما لفهمتُ ما وقع، ولما احتجتُ إلى الاستفسار والاستغراب ممّا يحدث. انتهى الفيروزي من صلاته، أطلق السّلام يمنةً ويسرَةً، وبدا ضغطه مضطربًا. هل كانَ مريضًا بالسكّريّ؟ فلون وجهه ممتقعٌ، وعيناه زائغتان. اقتربتُ منه وجلست حذوه على الحصيرِ. أومأ إليّ يطلبُ الماءَ، فوثبتُ واقفًا لأجلبَ القلّة، وسقيتُه بيديَّ. كنتُ أسمعُ غرغرةَ الماء في حلقه، كأنّه خروفٌ بعد الذّبح! هدأ هنيهةً، ثمّ قال: «عليكَ أن ترحل، لم يعد لنا هنا من بقاءٍ، لقد حان وقت السّتر!».

إذا تحدّث الفيروزي بهذا الأمر فلا مناص من تنفيذه. لم يعد للسّؤال أو لردّ قراره مجالٌ، هو يُدركُ الوضعَ تمامًا أكثَر من أيّ شخصٍ آخر، وهو أقرب منّي إلى هيرُو وأنجليكا، ومع ذلك طلبَ أن ننسحبَ من معركةٍ لم نخضهَا! كانَ عليَّ أنْ أغادرَ، وأختفيَ من هذا البلد، فأنا لم أعرفْ بعدُ ما يختّص بمعرفته أمثال هيرو والفيروزي. كان من اليسيرِ أن أطويَ صفحاتٍ قليلةً من الكتاب على أن ينوءَ به كتفي طوالَ حياتي. حاولتُ الفهمَ، قضّيتُ اللّيلَ كالمخبول. جرجرتُ قدميّ في كلّ ركنٍ. وتمنّيتُ إشعال النّرجيلة كي يتوقّف تفكيري، وأهرب من سياط الأفكار. رحتُ أقلّب الكتبَ الموضوعةَ على الطّاولة بعبثِ مَن يبحثُ عن لاشيء. هل تتطلّب الصّداقةُ ألّا أبرح مكاني، وأنتظر عودتهما؟ لكنَّ الرّحيلَ لا يعني جفاف الصّداقة، الرّحيلُ تلبيةُ نداء!

كانَ الوقتُ فجرًا حينَ قدم الفيروزي ليوقظني، فوجدني أحرسُ النّجوم الآفلة حذوَ النافذة. ربّت على كتفي وقال: «لا تبتئس، مصيرنا أن نلتقي».

حين وطئت قدمايَ مطار صنعاء، أحسستُ بأنّي

لنْ أعود إلى هذه الأرض مرّةً أخرى! تملّكني شعورُ مَن عاشَ اللذّةَ القصوى ورأى نفسه عاجزًا عن تكرارها. مرّت سنواتٌ على غيابي عن ذلك المكان الذي حفر في نفسي نهرًا جفَّ بعد أن غُصتُ في الطّينِ من جديد، وعدتُ إلى الحَجَرِ وسليمة والوظيفة والأسفارِ، ومنذ ذلك الوقتِ وأنا أشعر بأنّي مريض.

حاولتُ أن أعرفَ مصيرَ هيرو وأنجليكا. وفكّرتُ أكثر من مرّةٍ في السفر من جديدٍ إلى اليمن، فحالت الأوضاع السياسيّة دونَ ذلك. تتالت الاختطافات، وسقط البلد في الاحتقان من جديد، كلّ شيءٍ هشٌّ هناك ما عدا جسد أنجليكا الذي سمّرني على آخر أبواب صنعاء. كم مرّةً سألتُ شول عنْ هيرُو دونَ أنْ أتلقّى منه خبرًا واحدًا. فكّرتُ في الذّهاب إلى القاهرة والسّؤال عن الفيتا لعلّه يعلمني بما حدثَ، لكنّي جبُنْتُ! ولم أتوقّف بيني وبينْ نفسي عنِ الهذر بشأن ما رأيتُ وعشتُ، وبشأن ذلك الوجع الذي أصاب قلبي فلم أُشفَ منه إلّا حينَ رأيْتكِ!

على امتداد سنواتٍ، بدّدتُ في ذاكرتي قصّةَ الشّبكة، وخدعتُ نفسي حين ظننتُ أنّي تحرّرتُ

من كلّ شيء، حتّى من البحث عن المعنى، لكنّي أيقنتُ أنّ من يدخل الشّبكة يومًا سيعجز حتمًا عن اقتلاع نفسه منها حتّى لو غاصَ في الرّملِ ودفنَ عقلَه ووجدانَهُ في أعماق البحار. ما كان لي أن أُبعثَ فيها من جديدٍ لولَا تلك الحزمةُ التي نخرتْ تفكيرَكِ وأذهبتْ عنكِ الطّمأنينة.

لا تفكّري كثيرًا. سأظلُّ محتفظًا بحزمة الورق. لن أبرحَ هذا المكان، فقد دبّت فيَّ روحُ النّاجين، ولم أعد أرتبط بأحد! الحزمة ليست ملكًا لأحد، ومع ذلك فهي أمانةٌ عندي. سأذهبُ معكِ إلى غاية الحدود. هناك جغرافيَا منسيّة، جغرافيا الروح والعقل. حينما نصلُ معًا إلى الجمارك، قد أتركك تعبرين وحدكِ، أنت تؤمنين بأنّنا جميعًا سنعبرُ يومًا مّا وحْدَنا، وهذا عزائي، فأنا لا أريد منك أن تحزني إن فارقتكِ. كلّ واحدٍ منّا سيحملُ حزمةَ ورقه وحدَه. وقبلَ ذلك، عليَّ أن أبقى هنا، حتّى تظلّ تلك الحزمة في هذه البلاد، لأنّها لن تعودَ أبدًا لو عبرنا بها إلى بلادٍ أخرى، وسنجني على الأعوان القادمين، ونرهقهم بالبحث عنها من جديد. قد تكونين مثلَ هيرُو تمامًا، لا يعنيكِ غير البحثِ. لا يعنيكِ غير أن

تمتلكي ما لا يملكه الآخرون. ولكنْ إذا كان ما يعنيك هو أن تظلَّ الشبكة حيّةً إلى ما لا نهاية فانسيْ أمر الحزمة. فكّري فحسب في ما قاله لي الفيروزي: «أوصيكَ إذا تبدّلت حالُكَ من عبدٍ إلى عونٍ أن تموتَ في دارِ السّلام».

---

(1) الخولده: العملة الهولنديّة من القرن السابع عشر إلى حدود 2002 قبل استبدالها باليورو.

(2) عنقريب: كلمة من اللهجة السّودانيّة تعني سريرًا مصنوعًا من الخشب ومنسوجًا بالحبال، ينام عليه من غير فراش.

(3) القات: نبات يزرع في اليمن وفي بلدان شرق إفريقيا، يُمضغ من قبل مستهلكيه، وله تأثير منشّط.

(4) لُقّبَ حاييم بن يحيى بن سالم الفتيحي 1833م - 1899م بحبشوش، وهو تاجر نحاسيّاتٍ ومؤرّخٌ يمنيٌّ عاش خلال القرن التاسع عشر، أصبح في آخر حياته حاخامًا ذا تأثيرٍ كبيرٍ على الطائفة اليهوديّة في اليمن، كان دليلًا للرحّالة والمستشرق الفرنسيّ جوزيف هاليفي1827م - 1917م الذي وصل إلى اليمن عام 1869، وسارَا معًا في رحلةٍ أثريّةٍ شهيرةٍ في ممالك اليمن القديم، سجّل حبشوش وقائعها الغامضة في كتابه

«رؤية اليمن».

(5) مقطع من قصيدة للشاعر الهنديّ طاغور، أوردها الدكتور جليل العطيّة في مقاله «هكذا أدركتُ مقهى الزّهاوي.. مفارقات الشاعر الزّهاوي في مقهاه»، موقع الأنطولوجيا.

(6) الشاموا: نوع من الظباء يستوطن جبال شمال أوروبا.

نزار شقرون

زول الله

في رواية أخت الصفا

لا شيء يدفع هاجس الموت عن الخائف من المصير سوى المعنى. وقد يكون مفتاحُ معنى الحاضر معلّقًا في أفقٍ مؤجّلٍ أو في ماضٍ دفينٍ، بين طيّات كتبٍ أو ألواحٍ أو سطوحِ حجارةٍ، ينتظر من يستنطقه. لكنْ هل يستطيع إنسان واحدٌ فكَّ طلاسم المعنى أم يحتاجُ في ذلك إلى شبكةٍ من الأعوان المخلصين تُعينه في تهجّي حروفه وتدبّرِ أمرِه إن وجدَ نفسَه بين مطرقة السلطة وسندان الفقهاء؟

لكأنّ الشخصيّات في هذه الرواية أشباحٌ في مهبّ المعنى، تحضر وتغيب، كيفما حرّكتها رياح السرد وأسئلته المُضنية، فلا تبقى منها غير آثارها، وكلّ حاضرٍ ينفخ في أثرِ غائبٍ، أليست الكتابةُ نداءً للغياب؟ ما كان لـ«زول الله» أن يروي بعضَ فصولٍ من سيرة الإنسان في هذا الوطن المنكوب لولا أختٌ في شبكة الأعوان ورّاقةٌ شغلَها، كما شغل الأصفياءَ من إخوانها، أمرُ حفظ الماضي خوفًا من تيّار العصر. جاءت تجرّه إلى الدكّان مولودَ يومِه من جديد، وقد أفلتَ من فكّ السلطة، فصار الدكّانُ مستودعَ حكاياتٍ وملتقى فنونٍ، بل غرفةَ عمليّاتٍ وتخطيطٍ، لا لمجموعة حزبيّةٍ أو طائفةٍ دينيّةٍ بل لإخوانِ صفا جُددٍ اجتمعوا على الفكر الحرّ والإيمان بالإنسان، فلم يجدوا أمامَهم من حبال النجاة سوى الرّحيل، وقد نسيتْ دارُ السلام أن تكون دارَ سلام.

الناشر

ISBN: 978-9938-74-020-2
9 789938 740202

t.me/twinkling4